جمال الغيطانى

هاتف المغيب

رواية

دار الشروق

هاتف المغيب

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع ١١٣٢٤ / ٢٠٠٨
ISBN 978- 977-09-2417-3

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون : ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

جمال الغيطانى

هاتف المغيب

دار الشروق

حدث جمال بن عبد الله كاتب بلاد الغرب فقال:

المؤكد أنه جاء من المشرق، لم يرد إلينا أى إنسان من جهة الغرب، لو وقع ذلك لصار حدثا عجبا، ديارنا آخر حد العمار اليابس، نقف على حافة المحيط الأعظم، بحر الظلمات، لم يصل إلى ضفته الأخرى أحد وعاد ليقص علينا ما رأى، لكن. . لم يحل ذلك بين البعض وقصد المجهول.

هذا ما ترويه الحكايات عن إخوة سبعة بنوا بأيديهم سفينة متينة، حمَّلوها بزاد كثيف يؤمن إبحارهم مدة لم يسبقهم إليها أحد، اختلف القوم فى تقديرها، ثمة قائل إنها شهور ستة، وآخر يؤكد أنها سنة، وثالث يجزم أنه أمد غير معلوم! كان وداعهم مشهودا، مؤثرًا، قبل طلوعهم ظهر قوم لا يدرى أحد الجهة التى قدموا منها، أحاطوا بهم وبادلوهم الود ثم أسروا إليهم بما لم يسمعه مخلوق، وقفوا يرقبون فرد الأشرعة ولحظة استدارة المقدمة واتجاه السفينة غربا. . اختفوا.

عُرف هؤلاء برجال البرية، منها جاءوا وإليها مضوا، وإن لم يقطع أحد ولم يجزم، أما الأشقاء السبعة فغربت أحوالهم. لم يقع بصر عليهم، تعاقبت أجيال بما يكفى للتأكد من انقضاء أمرهم، بعض من القوم يشيعون يقينهم بعودتهم يوما، وأن كل شىء سيتبدل فور

قدومهم من جهة الغرب، تردد هذا خفية، ولو وقع الجهر به لعوقب قائله وجرى له المكروه، مولانا اعتبر دعاويهم مخالفة للملة!

صارت غيبتهم مثلا، فيقال عندنا:

«. . . انتظر إذن عودة المغرر بهم»

أو . .

«إذا رجع الإخوة السبعة»

يقال ذلك في استحالة الأمر، وصعوبة تحققه، هذا وارد على الألسنة وإن جهل كل منا المنشأ.

حدثني إبراهيم الرجراجي أقدم ربابنة البحر فى النواحى، العالم بأحوال الموج، وخطوط الطول والعرض، ومواقع النجوم وطرق الاستدلال بها، قال إن بعضهم أبحر فى المحيط الأعظم، وصلوا إلى حد معين يقوم عنده تمثال من نحاس فوق قاعدة متبقة من القاع البعيد، لا يدرى أحد من وضعه؟ من نحته؟ من جاء به إلى هنا؟ ولضخامته وغرابته وثق القوم أنه من عمل آخرين لا يمتون إلى النوع الإنسانى، تمثال له هيئة بشرية، يستوى واقفا، مشيرا بيده، أصابع خمسة مبسوطة، عليه كتابة بكافة اللغات المنطوقة . .

«لا خطوة بعدى»

أكد الرجراجي أن صوتا يُسمع فى ليال معينة، يبدو صادراً من شتى الجهات الفرعية والأصلية، يتضمن تحذيراً مماثلا.

سألت الرجراجى، هل رآه بعينيه؟ قال: لا

استفسرت منه عما إذا سمع مباشرة ممن عاينه وتأمله؟ قال إن الأمر شائع، وإن الربابنة يحذرون الاقتراب منه.

لما أوردت هذا لتأكيد استحالة مجيء إنسان من جهة المغيب، بعد أن ردد البعض قدوم صاحبنا عبر المحيط، المقطوع به مجيئه من المشرق وهذا ما أخبره به، لم يأت من الجنوب لأنه ليس صحراويا، ولا من الشمال لأنه ليس أعجميا.

لم يره إنسان من جهتنا لحظة دخوله حاضرة بلادنا، آخر نقاط الكون المعمور، عاصمة سلطان بلاد الغرب، دار العلم ورباط الجهاد، ديوان الساعين ومقصد السائلين، مستقر الراحلين، ومنتهى الآملين خيرا، حفظ الله واليها وراعيها.. إليها وصل صاحبنا، ظهر فى حومة السوق وسط المدينة، قبالة المسجد الجامع، إرهاقه باد ونصبه بيّن تجمّع حوله صبية وبعض متسكعين، صاحوا عليه، وعندما رفع ولد غر حصاة مستديرة ليقذفه بها تردد صوت مهيب يعرفه الكافة ويخشونه. فوق الدرج المؤدى إلى مدخل المسجد وقف الشيخ الأكبرى المرابط نفعنا الله به.

التفت صاحبنا إليه وفى عينيه تعب ورجاء وأمل ممتزج بخوف قديم، تقدم حاملاً خرجه الذى حول كل متاعه وزاده، فقط.. سبعة كتب عتيقة، سنفصل الحديث عنها فيما بعد. نزل صمت ولزم الخلق سكون، تقدموا متقاربين حتى وصلوا إلى حد غير منظور فكفوا، انفرد صاحبنا بالتقدم وارتقاء السلم حتى وقف دون الشيخ بدرجتين، عندئذ سمعه القوم كافة يقول:

«إذن.. جئت!»

جاوبه صاحبنا:

«نعم. . »

«وكيف الإخوان؟»

« يوجّهون أرواحهم نحوك . . »

قال الشيخ هادئا، واثقا . .

«إذن. . سيبلغون مرساهم بإذنه . . »

أشار إيذانا بالتقدم، باجتياز العتبة، أبدى صاحبنا وجلا فمسح رأسه وملس عمامته، استدار مواجها الجمع فأطرقوا وبدأ انصرافهم وعندهم خشية!

الشيخ الأكبرى سيد المرابطين، مهيب الطلعة، منيع المكانة، ثابت الجهة، عالى الهمة، مسموع الكلمة، لا يمضى إلى عظيم مهما اشتد أمره، بل يرسل فى طلبه فيمتثل صاغراً، يزجر الكبير قبل الصغير، لهذا كله لقبه الناس بالسلطان، إذا نطق أحدهم اللفظ فإياه يعنى، مع أن سيد البلاد والقائم على تصريف شئونها يتخذ اللقب عينه، ومنذ حول كامل اضطر إلى تغييره خضوعا واضطرارا، فتلقب بالوالى، ولم يعد سلطان إلا الأكبرى.

أكثر ما يثير الرهبة منه اشتغاله بالدوائر، فمرة يتخذ هيئة أسد، ومرة ينقلب إلى فراشة رهيفة، ومرة يصير سحابة معلقة أو ضوءا ساريا فى العتمة أو زهرة نابتة من الصخر لها ترديد ورجع.

عُرف أيضا اشتغاله بالنجوم، ودرايته بحركة الأفلاك البعيدة وتوجهاتها، خبير بأسرار الحروف وعلاماتها، ملم بأخبار الذين

غامروا وخاضوا بحر الظلمات، أو الذين سعوا غربا، رحلوا ولم يرجعوا، يقال إن عنده ثبتا بأحوالهم، ما جرى لهم، ما انتهوا إليه. لكنه لا يفضى ولا يبوح..

لمدة سبعة أيام خلا صاحبنا إلى مولانا، لم يظهر إلا وقت الصلاة، يقف بآخر صف، خروجه دائما على مقربة منه، يرد تحية الآخرين بالإيماء، لم يفه حرفا، بعد تمام الأسبوع ظهر فى باحة المسجد، متطلعا إلى جهة مغيب الشمس دائما، كأنه يتوقع أمرا، أو ينتظر إشارة.

عرف بين الناس بالغريب، فى حضوره، قعدته، حيرة نظراته، ما يؤكد أنه عابر، مؤقت، مفارق.. إلى أين؟. هذا ما لم يفصح عنه لمحدثيه، ولم يصرح به إلىَّ بعد بدء جلساتنا واتصال موداتنا، إنما صرت أفهم عنه، ليس لفظه إنما شروداته وسكناته، أقول إن ثمة إشارات صدرت عنه، فضضت شيئا من أسرارها، لكننى ألمحت فى تدوينى ولم أصرح. التزاما بعهد قطعته على نفسى، بعد بدء تنفيذى التكليف الشريف بتسجيل ما يمليه علىّ، وهو ألا أذكر إلا ما صرح به تماما، ولا أورد لفظا يخل بمعنى نطقه.

أعود إلى ما بدأته، وأكف عن استطراد انسقت إليه بدافع الرغبة لشرح الأمور، والإفضاء بما جرى، أقول إن أمره ذاع خاصة بعد انتهاء عزلته الإرادية التى دامت أربعين يوما، وبدء حديثه إلى القوم وإخباره عن أمور عاينها وأراض عبرها، وأزمنة تجاوزته وبلاد أقام بها، وجاه أتاه على غير توقع، وسلطة بلا حد زالت عنه، ونساء عرفهن لا مثيل لهن، ومشاهدات غريبة لم يُسمع بمثلها.

ذاع أمره فى الحاضرة، وسرى إلى النواحى فى البادية، حتى أصبح

ورود القوم عليه من أماكن بعيدة بقصد الإصغاء إليه، تلقوا عنه ما بين مكذب ومصدق، لكن فى كلا الحالين بدهشة وعجب.

ولما فشا وضعه، وزاد اللجاج حوله، أرسل مولانا فى طلبه ليسمع منه بغير وسيط، لم يلب صاحبنا الأمر مباشرة، إنما مضى إلى الشيخ الأكبرى فأعطاه الإذن، وأبدى الإشارة.

هكذا.. انتقل إلى القصر، أفرد له مكان محفوف بجميع أصول الخدمة الواجبة للغرباء من ذوى الرفعة. أبدى مولانا اهتماما، وبعد ثلاث جلسات أمر باستدعائى. فمثلت بين يديه وانتظرت ما سيفضى به.

قال إن مجيء هذا الغريب نادر، مثير، وإنه يمكن نسيانه، أن يمحى خبره كريح هادئة تعبر المدينة من أقصاها إلى أدناها، فلا تترك أثراً ولا ترسى علامة.

توقف مولانا وحدق إلىّ، جال بأصبعه فى شعيرات لحيته الكثة.

ـ ما يناسب قولى هذا؟

أطرقت مقدار لحظة، ثم قلت إن واحداً من أدباء المشرق أفرد مؤلفا ضخما فى علم الكتابة، صدّره بقوله:

ما هى الأفكار والخواطر..

إنما هى ريح تعبر.

وما يقيدها؟

الكتابة

استحسن مولانا ذلك، أمرني بتدوين كل ما يخبر عنه وما يذكره، أن أستمر حتى يكف، أن أعرض عليه ما سمعته وكتبته بعد تمامه، حتى يأمر بنسخه، حتى تبقى التفاصيل لمن سيحل بعدنا فلا تذرى مع الذاريات، إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا . .

ذِكرُ الهاتِف..

. . يقول الفقير إلى ربه، الراجي عفوه، الملتمس حنانه: أحمد بن عبد الله بن على بن عوض بن سلامة، الجهنى، الصعيدى، القاهرى المنشأ، المصرى المنبت، إن خروجه عن موطنه جرى يوم الأربعاء، التاسع من مايو، منذ خمس وأربعين سنة وربما خمس وخمسين، أو خمس وسبعين. المدى بعيد والأمر مختلط، صعب القطع، وعر التحديد والإلمام!

عندما يقول التاسع إنما يحدد اليوم، لكن مجمل المدة المنقضية غير يقينى، خاصة أن الشقة بعيدة، تبدو أحيانا أقل من نهار عابر وتارة أخرى كدهر مثقل.

ما يعرفه الآن بعد بلوغه بلاد المغرب أن خروجه تم فجراً، يتوقف لحظات، شارد النظر، غامض القسمات ليتساءل:

لماذا يكون الموت فجرا؟ كذا الميلاد فى معظم الأحيان؟

والده أغمض عينيه إلى الأبد والخيط الأبيض يوشك أن يبين من الأسود، أمه، خاله، عمته، نفر من أصحابه المقربين، أما من سمع بمجيهئم إلى الدنيا فتمت وفادتهم فجرا بعد أن فارقوا الأرحام.

لماذا تستعد الجيوش للمنازلة، فتنتظم الصفوف الساعية إلى الهلاك قبل أول ضوء، لماذا يفضل أهل العلم بالحرب هذا التوقيت؟

يطرح السؤال ولا يعقبه بإجابة، ربما ينطق ردودا احتمالية، لكنها غير قاطعة، غير مرضية، جرى هذا طوال جلوسى معه، وإصغائى إليه، وتسجيلى ما يمليه علىّ. ومما قاله فى هذا الجانب إن الفجر يعنى دنو اقتران البداية والنهاية، فثمة ليل ينقضى، ونهار على وشك!

أقول، أنا جمال بن عبد الله، إن القدماء فضلوا البكورة عند السفر. الخروج فجراً مستحب، ما يمكن طيه صباحا أكثر، أما الدافع فمتعدد، من ذلك طلب العلم ومطالعة آيات العالم من جمال وتفرد، ورؤية جبال وبحار وأنواع حيوان وغريب نبات، وامتزاج لحظات وتفر. أوقات، يفلت بعضها فيبقى مع صاحبه ولا يفنى إلا معه، سفر من أجل العبادة وزيارة الأولياء، الأحياء منهم والأموات، والمعلوم أن زيارة الأحياء مستحبة عن زيارة الأموات، لكن الوقوف على أضرحة الصالحين ومثاوى الغابرين مفضل، لما فى الأمر من التماس عظة أو إحياء عبرة، أو الاقتداء بسيرة، أو الحنين إلى عزيز غاب، قيل فى الزمن القديم إن النظر إلى وجوه العلماء والصالحين والمبدعين فى كل فن عبادة ورغبة فى الاقتداء بهم، والتخلق بآدابهم، ثمة سفر للهرب من الفتنة.

أسفار أحمد بن عبد الله الجهنى المصرى التى أملاها علىّ لا يمكن توصيفها. أو تحديدها، لا أخفى حيرتى أنا من لزمت تلك الديار فلم أفارقها قط، ليس بسبب تقاعس، فالشوق غالب، ولكن الحيلة معدومة، والاضطرار قسرى!

عظم اشتياقى وقوى فضولى لسماع ما يقول، حتى انتبهت إلى

استغراقى، وطول إصغائى مما يعنى كفى عن مهامى وتعطيل عملى، فأنثنى مستأنفا ما بدأته، والمعروف أن لكل أمر ديباجة. والحق أن بداية سعيه من أغرب ما وقفت عليه، ونمى إلىّ.

يقول أحمد بن عبد الله إنه لا يذكر أمرًا ذا جلل قبل بزوغ الهاتف وسماع نبره، لكم حاول، أجهد الذهن. . لكن عبثا، لم يبذل الجهد إلا ولاقى فشلاً، فراغات، فضاءات مبهتات لا يدرى من أى الموجودات صيغت، كل منها مؤد إلى الآخر، متصل، منفصل، خيوط واهية غير كافية للفهم، للكشف. كأن كل ما سبق الهاتف لم يكن مع أنه اجتازه بحضوره الجسمانى وأنفاسه الحرى، كان فى مطلع فتوته وبداية غايته عندما تلقى الأمر ممن لا يمكن رؤيته أو فهم كنهه أو إدراك سره، أو الوقوف على مصادره. أرق فى هذه الليلة، لا يدرى سببا مباشرا، وعندما بدأ خوض المسافة الفاصلة بين أفول اليقظة والإيغال فى النوم، إذ تتميع الجمادات وتتداخل الأوقات، تتوالى الصور المبهمة، يمتزج الحنين بالتوقع بالأمل فى الآتى، باستنفار العزم وعقد النية، وبزوغ ندم على ذنب مجهول بدر منه يوما . .

هنا . .

خلال اللحظات الفاصلة، الواصلة بين عالمين، دوى الهاتف، برق، لكم تكرر فيما بعد، لكنه لا ينسى أبدا المرة الأولى، هكذا . . لا تمحى البدايات من الذهن، كذا النهايات، أما ما يقع بينهما فنسبى!

ما مصدره؟

لا يمكنه التحديد. نابع من داخله فكأنه صوت آخر طال كمونه، قادم من خارجه أيضا، ليس من جهة محددة، بل من سائر الأنحاء،

صـادر منه، هل يمكن لإنســان أن يصـغى إلى صـوته لحظة نطقـه؟، لا يمكنه تشبيهه بمرجع معروف، يستعصى على كل قياس وينأى عن أى مصدر، لا يقدر على تحديد وجهته. آت من اللاأينية، هكذا.. بزغ!

ـ ارْحَلْ..

أمر كـونى، علوى، سـفلى، ليس بوسعـه إلا الاستـجابة إليـه والامتثال، لم يكن قادرًا على الخلاص تماما من الوسن الذى بدأ الدنو منه، ولا الإمساك بضفتى اليقظة غير المؤكدة بعد،

ـ ارْحَلْ..

ما من شك إذن! ، قام مفزوعًا، وحيدًا، مجردًا عن أى مساعد، منفرج الحدقتين، فى حلقه غصة تتكون، وعلى شفا حدقيته مشروع دمع، ولسوف تلازمه تلك السمة، فلكم أصغى فيما بعد إلى معنى تردد مرارا خلال رحيله، عندما يقول له من يطيلون التحديق صوبه، «تبدو وكأنه على وشك البكاء لا تبكى..»، حتى بعد بدء الابتسامة الدائمة لم يمنح أثر تلك الدمعة المطلة أبدا ولكنها لا تخرج.

ـ ارْحَلْ..

وقف متطلعا حوله، كأن للصوت توابعه، المكملة له، معان عديدة تترى عليه بسرعة، تساءل..

ـ إلى أين؟

ـ إلى موضع تغيب فيه الشمس..

موضع مغيب الشمس؟ كيف؟ أى المسالك؟ أى الطرق؟

ـ اتْبَعْها..

يقول أحمد بن عبد الله إن يقظته اكتملت، تطلع حوله، إلى فراشه، إلى موضع رأسه، إلى دفء المكان، أيقن أن المقام انتهى هنا، ما كان لن يكون، ما استمر حتى الآن انقطع، ما انتظم اختل، وما التأم زمنا على وشك الانتثار والتبدد، الدار الآمنة التى أقام فيها لم تعد له، لا مفر من فراقها. أيقن أن الرحيل دب داخله قبل سريان حركته، لكم خشى المفاجأة وبغتات المقادير، مالا يبين، مالا يفصح، مالا يشير ولا يفسر، لكنه لم يتصور قط ولم يتوقع بزوغ الهاتف الذى قلقل مضجعه، وقوّض أمورًا طال ثباتها داخله.

يقينا.. إن ما اتصل لن يكتمل ولن يسرى.

تمدده، هجوعه مكان رقدته مستحيل، فى اللحظات الأولى أشفق على نفسه، خاصة مع إدراكه الأتم لما يجرى، وبدء استحالة مقامه، ليس أمامه إلا أن يبدأ، أن يلبى، توضأ وصلى، ثم خرج إلى الطريق، متاعه كله فى يمينه، مخلاة صغيرة من كتان، موقن أن الأصداء التى أعقبت الهاتف أمرته بمصاحبته.

مضى مضطربا، قصير الخطى، مودعًا بعينيه الجدران والنواصى والمحال التى وقف عندها وتلك التى اعتادها، لمراحل عدة ظلت تلك النواصى من مستثيرات الشجى عنده.

عامة.. يعنى الوقوف عندها نهاية شوط وإطلالة على مفارق شتى، أو مختتم مرحلة أو بداية سعى، وخاصة.. يهفو قلبه وتغدق عليه المخيلة صورا شتى للحظات مندثرة، منها الغامض الذى لا يبين، والجلى السافر!

لكم ترقرق كوامنه إذ يستعيد تلك الأبواب المغلقة أو المواربة أو

تلك الموشكة، مَرّ بها كلها وهو يودع مدينته القاهرة، يخرج منها وتمضى عنه، لكم استعاد الواجهات والمبانى والمآذن وظلال القباب وتغيرات الضوء وعبير المقاهى ودكاكين الفاكهة والنُّقل الفارسى والزيوت النباتية والشموع مختلفة الأحجام وشسوع الميادين، لكم كد ذهنه وقضّ مضجعه محاولاً استعادة مدخل حارة، أو تفاصيل ممر، فكأن نسيانها عنده يعنى محو العلامات.

فى الضوء الأولىّ طالع المآذن وافدة من الليل الغميق، محفوفة بضباب، أنثوية الحضور، آدمية المثول فى الفراغ، فى الشروع إلى أعلى.

المتاجر لا تزال مغلقة، لكن الحركة تتنمنم، لأمد طويل سوف يستعيد خطوة هذا الرجل الطاعن الذى يدلج صوب قصد مجهول. وصبى ينام مستغرقا أمام بوابة قيسرية، وعربة يجرها حماران، حزينان، مستسلمان، سيذكرهما فيما بعد عندما يدخل حديقة للحيوان فى بلد ناء ويفاجأ بحمار معروض للقوم كأنه أعجوبة!، واجهة سبيل منمنمة الزخارف، لكم مَرّ أمامها ولم يتنبه إلى رقة حوافها، وغنى الأغصان الحديدية، كم من تفاصيل وعاها لأول مرة فى أثناء مغادرته، فكأن انتهاء المدة إيذان ببدء جديد، وتفصيل ذلك يطول.

خلف وراءه ضريح سيدنا ومولانا الحسين، قرأ له الفاتحة، توسل به وإليه، رجاه، بثه همّه واضطرابه، مضى صوب الخليج، الأزهر سامق، مسجد الغورى وقبته، البيوت المستكينة، وذاكرة الحوارى الهاجعة تتململ. أولى المشرق ظهره، عبر القنطرة الخشبية.

جمال مصطفة، باركة مثقلة بأحمال، يتوقف قبل أن يقدم القوافل

لا تنطلق من هنا، الموضع لم يعرف كمحط للتجار، هيئة الركب تعنى التأهب للرحيل، إلى أين؟، توقف متطلعا، مترددا، حائرا، عنده خجل البداية وارتباك الخيار، يبدو أن أحدهم لمحه أو ظهوره استثار فضولهم، ينفصل رجل فارع القامة، فى حضوره سيادة وقوة. يدنو منه . .

ـ على سفر؟

يؤمئ

ـ وجهتك؟؟

يوشك على ذكر عبارة ما خيل إليه أنها أعقبت الهاتف لكنه كتم، لم يفصح تمامًا . .

ـ أسافر مع الشمس . .

تهلل الرجل الذى أحاط نصف وجهه بلثام أزرق، مد يديه مرحبا :

ـ أهلاً بالكريم ابن الكريم . .

يتساءل دهشا :

ـ هل تعرفنى؟

يقول بلهجة غامضة :

ـ لا . . ولكننى أتوقعك . .

قال الرجل الذى بدا مبتهجا إنهم سيتجهون غربا لفترة من الزمن، عندما يحيدون سيطلعونه وله الخيار .

ـ لكنك تبدو وكأنك تعرفنى .

يشير إلى الشرق.

ـ لكل أمر أوان، لكن الآن علينا أن نتحرك قبل ظهور الشمس..

لم يستغرق الأمر زمنا طويلا، عن إطلالة القرص تحرك الركب، متفرقا، متوحدا، وئيدًا، مبتعدًا، مفارقًا، إلى ما قبل ساعة لم يعرف أيًّا منهم، ومنذ الآن يشاركهم القوت والمسافة والمصير باذلاً الخدمة، معتنيا بتلك الحيوانات التي لم يرها من قبل إلا عابرة بمنأى عنه، حرص ألا يمثل عبئا على قوم لم يعدوا لقدومه الأهبة كما تخيل، مال إلى انفراد، إذا رأى اثنين يتحدثان نأى، إذا أفسح الخطى وأوشك على الاقتراب من أحدهم يتجاوزه بسرعة فكأنه يلحق بالوحدة!

تناوبوا الركوب، كان عددهم ضعف الإبل التي قدت ملامحها من مشاق متتابعة. واكتست جفونها نظرة علوية، أبدية، يبدو خطوها وكأنه لم يكف، عندما دعاه أحدهم للركوب أظهر تمنعا، قال إنه لم يشعر بالتعب بعد، تبسم الرجل وكان أعرابيا من حضرموت اليمن، قال إنه لا يجامله ولا يتفضل عليه، لكنه ترتيب متبع، المشى بقدر والركوب بقدر.

لو أمكنه التوارى عنهم لفعل، تحاشى الإثقال عليهم، قال الحضرموتى إنه مدرك ما عنده، هكذا الأمر دائما في البداية خاصة عندما يضطر الإنسان إلى الرحيل ويرغم على رفقة من لا يعرف..

ـ كيف عرفت أننى مضطر؟

تبسم اليمنى، بدا حانيًا، رقيقًا:

ـ لن أستفسر عن دافعك وقصدك، لكن مثل أمرك لا يخفى..

قال إنه من دواعى السلامة ألا يدعهم يغيبون عن بصره، المخاطر جمة، أيسرها الفقد، هجوم الوحش أو الإنس، لا يسهل اقتناص إلا الشاردة، مخاطر الطريق جمة، وما يخلفه سلوكه من حرقة أكثر مما يتركه من مسرة، أما أشد المحاذير كافة فداخل المرء نفسه، إذا جنح إلى انفراد، وأمعن الفكر فيما يستعصى عليه بلوغه، أو تستحيل رؤيته، أو اللقاء به، المفاجآت بلا حصر، المعلوم منها قليل، والمتوقع كثير، وما خفى علمه عند الله!

لم يتوقفوا إلا عند ميل الشمس وصب الأفق، تجاوزوا العمار، القرى الصغيرة. والمبانى المتناثرة، المنفردة وسط الحقول. كثافة النخيل خفت، مجرد شجيرات متباعدة، خط فاصل بين الخضرة والجدب. عند العصر بدأ نزولهم جنوبا بمحاذاة الصحراء، كأنه التهيب قبل البدء، المفروض أن يصلوا إلى نقطة معينة مرتفعة، يمكن منها الإلمام بالأهرام القديمة جميعها عبر طلة واحدة، وإذا صفا الفراغ وراق الجو يمكن رؤية ترقرق النيل عبر الوادى، من تلك النقطة يبدأ توغل سائر القوافل المتجهة غربا إلى دروب الصحراء، المؤكد أن أى عبور من مكان إنما يؤدى إلى التهلكة.

تعاويذ لا بد أن تُتلى، وتمائم تعلق على رقاب الجمال، وأدعية من المستحسن ترديدها، وإجراءات يجب اتباعها منها ورود الإبل عين الماء، آخر نبع على حافة الوادى، يترك كل منها حتى يكتفى بما يفى حاجته ثلاثة أيام، بعدها يبدأ استنفاذ مخزونه، وهذا غير مستحب، لذا خطت الدروب منذ القدم بحيث تتضمن مراحل تتناسب مع قدرة الجمال والبشر.

لزمن طويل سوف يستعيد مرأى الأعناق الممدودة، وصوت عب

الماء، ولحظات انفصالها بعد اكتفائها، في هذه اللحظات استغرق في الآتي قدر استعادته الفائت. وقف عند حد فاصل، خطر له النكوص، ما زال بوسعه أن ينثني، بلوغه داره الليلة إذا شاء. لكن.. الخشية والمثول التام للهاتف جعلا استمراره حتميا، لا مفر..

استعاد بالمخيلة حركة الخلق في الشارع لحظات الغروب، بلوغها الذروة قبل اكتمال الليل والفراغ المفاجئ، لم يدركه خوف من القوم الذين يصحبهم، ليس لديه ما يخشى فقده، بل إنه في البداية لم ينشغل بهم إلا قليلا، حتى إنه لم يسع ولم يتطلع للقاء آمر الركب مرة أخرى، إنه الآن فرد من الجمع، وعندما تنشأ حاجة سيرسل في طلبه. لكن.. لماذا بدا وكأنه يتوقع وصوله؟، تهلل لظهوره لكنه لم يفاجأ، بل إنه لاح عالمًا بما جرى له، كان ملثمًا، ممشوقا، يمتطي جملا نحيفا، نحيل القوائم، مختلفًا لونه عن الآخرين، موقعه يلي الحضرموتي، غطاؤه من صوف أحمر ياقوتي، تتخلله خيوط نحيلة صفراء، خضراء، كان مستغرقا في أمره.

أين ستطلع عليه الشمس التالية؟

أي موضع، أي صحبة، أي رفقة؟

ما يعيه تماما أنه مأمور، ملزم بالاتجاه غربا، بالمضي إلى حيث تختفي الشمس. ما من بديل، بصحبة من سيصل؟. ينظر إليهم، إلى متى.. إلى أي حد سيأكل معهم في الماعون عينه؟. من هم؟ من أين.. إلى أين؟

لاحظ أنهم بعد اطمئنانهم إلى وضع الإبل اقتربوا، تدانت رءوسهم، حوار يجهله. حديث لا يدري عنه شيئا. برغم حرصه

خلال الساعات الماضية على أن يظل بمنأى حتى لا يثقل عليهم، إلا أنه دوهم بالوحدة عند تلك اللحظة، غصّ حلقة بمرارة لم يتوقعها، أدرك وهو على حافة الوادى أن انقطاعه يبدأ عن البلد، عن الحارة، عن الأهل. عن مراقد الأولياء، عن كافة ما عرفه وألفه واقتدى به، صحيح أن انفصاله جرى فور عبور الجسر وانضمامه. لكنه الآن فى قلب عالم مغاير. مع الصحراء يبدأ لجة مختلفة. عندما أقعوا وتماست مناكبهم، عندما فوجئ بنفسه منفرداً منبتا عنهم رغما عنه، تذكر صحبه، وحنو أهله وحدبهم عليه وما بينه وبينهم. وما سيصير إليه من شسوع، رثى لأمره، شقّ عليه حاله، طفرت دموعه. لقى نفسه فجأة فى الوضع عينه الذى يلحق بعض القوم، إذ يخرجون من العمار المأهول إلى الأماكن القصية، الموحشة، يعرف كل منهم بالمطرّق، أى المبتعد عن السكك المأهولة، فى الأغلب يكون مهموماً أو منبوذا، لكنه ليس معتلا وليس معاقبا، إنما هو مأمور، مدفوع، مسوق، مرغم على الرحيل، وإن بدأ عنده تطلع إلى ما سيواجهه.

فوجئ بآمر القافلة أمامه، باسطًا كفه، ملامسًا شعر رأسه، قام حتى واجهه، بدا الملثم هادئا، حانيا، أشار إلى الجدل، الصبر، مشقة الانتقال من حال إلى حال.

ـ لا أريد أن يراك أحدنا دامعا . .

أفسحوا له، ولما رأى وجوههم إليه ناظرة هدأ باله.

قال جمال بن أحمد مدون السيرة إن الغربة مرة. إن الغريب ضعيف مهما قوى. هذا ما سمعته عن أهلى، كل راحل انتهى إلى أوبة، أما أنا فلم أفارق ديار المغرب لأسباب شتى، منها علة أقعدتنى، ولزومى الديوان السلطانى، غير أنى عرفت الانتقال فى عيون الواصلين

والمغادرين، فى تململى، فى انطوائى، عند رحيلى فيما كان منى، فى وصول الأجانب إلى المدينة، تحركهم الحذر، قعودهم بين الجمع منكمشين، تأخرهم عن مد أيديهم على الطعام، حرصهم ألا يزعجوا إذا مضغوا، ألا يتقلبوا إذا رقدوا، ألا يغطوا إذا هجعوا.. تماما كاليتامى!

لكم رغبت فى صحبة ركب الحج، تقت إلى السعى تجاه المشرق لأجاور فى الزيتونة، فى الأزهر، أنتهى إلى مكة وأقف خاشعا عند مرقد سيد الخلق فى المدينة المنورة، الطاهرة برقدته، أسعى حيث سعى، وأولى وجهى إلى الجهات التى تطلع إليها، وأبادل جبل أحد الحب ويبادلنى، ألم يقل: هذا جبل يحبنا ونحبه.

لكن.. شاء ظرفى ألا يكون لى من تلك الجهات إلا القراءة عنها، أو استماع وصفها. وتنسم روائحها، وتقصى أخبار شيوخها، لم أتجه جنوبا حيث الصحراء العظمى، لا بد من عبورها للوصول إلى مناجم الذهب والفضة والعاج وأخشاب الأبنوس، وغرائب، الزنج أما الإبحار غربا فلا أمل فى العودة منه.

لم أفارق، لكنى انخلعت من كونى مرتين، عندما سافر اثنان من دمى، ابنا شقيقى رحمه الله، قضى مبكراً وهما بعد طفلان، تعهدتهما، واستعضت بهما عن الخلفة من صلبى، صرت بمنزلة الأب لهما، خرج الأول حاجا وهو دون العشرين، ومازلت منذ ثلاث وعشرين سنة فى انتظاره. وصحب الثانى رجال البحر، لم يكن يحط الرحال إلا كل عامين أو ثلاثة مرة، يمضى وقت، يحدثنى عن الهند ومملكة الصين والأفيال الكبار ويرسم خطوطا ليوضح لى ما غمض علىّ استيعابه أو فهمه، بغتة يمضى ومنذ سبع شتويات لم أقف له على أثر، مازلت مقيما.. لعل وعسى، أحن وأهفو إليهما مهما امتد الوقت وعسرت

الأحوال، دائما أراهما غضين، صغيرين، كـأنهما مازالا يتعلمان مبادئ النطق ويبذلان الجهد لفك أسرار الحروف، ومعرفة كنه الأرقام.

متى نلتقى وأين؟

هل سيرى كل منا الآخر؟

السؤال عينه تردد عندى، لكنه يعاودنى دائما، أما صاحبنا فألح عليه فى أثناء تأهبه دخول الصحراء، حدقت إليه، لـكم بدا متأثرًا، مترقرقا فكأنه يحيى اللحـظات من العدم، وحتى لا أطيل وأحـيد فأخـل، أنثنى إلى ما دونته نقلا عنه.

الأشقاء الأربعة..

يقول من خبر البرية، وساح فيها، أحمد بن عبد الله إنه يستعيد الآن زمنه الأول، وقت غضاضته، كان يتطلع ولا يلتفت، يترقب ولا يسترجع، ما مضى منه أقل، وما تبقى لا يدرى عنه شيئا، لم يكن مشغولا به، وإن أدرك فيما بعد أن كل آت قريب، وأن كل ماض ناء جدا!.

قبل دخول القافلة صحراء الغرب آنس من أمرها ودا، خفف كربه. دعاه إلى الجلوس بجواره، بدأ بذكر الصحبة، وطيب الرفقة، قال إنها من أهم أركان السفر، الرفيق قبل الطريق، هكذا نصح المجربون، قال إنه سيطلعه على بعض من أخباره وقبس من أحواله، أول ما وعى، أول ما فتح عينيه على الدنيا فى تنيس، مدينة فى جزيرة، والجزيرة فى البحر قرب نقطة التقاء النيل به، عند ذروة الفيضان يغلب الماء العذب على المالح، فيأخذ القوم حاجتهم، عندهم صهاريج كبرى تفى وتكفى لمدة سنة، لهم نظام دقيق لتوزيع الماء، لم يحاول أحد اختراقه أو الشذ عنه، فى أيام المياه العذبة يتغير لون البحر من أزرق غميق إلى أخضر كثيف وتفد أنواع مختلفة من السمك أهمها السردين الذى يصيدونه بوفرة وسهولة ويجففونه ليبقى محفوظا، ويرسلون منه إلى سائر أنحاء مصر، ويتفتح زهر البلسان الذى اختفى من العالم كله ولم يعد باقيا منه

إلا اثنتا عشرة شجرة يتم استخلاص زيوتها فى ليلة اكتمال القمر، ويختص بذلك خمس فتيات عذراوات لم يمسسهن رجل، ولم ينكشفن قط على ذكر، ولو جرى عكس ذلك تجف الشجيرة وتذبل ويستحيل استعادتها لنضرتها، هذا معروف، متبع منذ الزمن القديم، الأمر مجرب، يملأ الزيت المستخلص ست أو سبع قوارير، كل منها فى حجم إبهام اليد، مصنوع من زجاج به غبشة بحيث لا ينفذ منه الضوء فيفسد السائل الثمين، لكن القطرة منه يساوى ثمنها مائة دينار من الذهب البندقى الخالص، يرسل الزيت كله إلى السلطان، حيث يحفظه فى خزائن لا تفتح إلا بمعرفته، منه يهدى ملوك الأرض ويخطب ودهم، للزيت فوائد جمة، وقطرة منه يقال إنها تجدد عمر المرء فكأنه وُلد من جديد، عُد البلسان من فضائل مصر بعد أن بطل زرعه من سائر المعمورة، واعتبرت شجيرات تنيس من ذخائر المملكة ونفائس الديار، وقد وجد ذكرها فى أقصى بلاد الصين، وفى بلاد الصقالبة حيث يطول النهار ستة شهور ويستمر الليل الغميق مثل ذلك، وفى الهند يقولون فى أمثالهم، أندر من بلسان تنيس المصرية.

قال إنه رأى هذه الشجيرات، متناثرة، متباعدة، كل منها محاطة بسياج متين، لا يمكن مرور دابة بمقربة منه، أو عربة، أو إحداث ضجة، الأصوات العالية تؤذيها لهشاشتها ورقتها، وأهل الجزيرة يراعون ذلك ويلقنون أولادهم أصول العناية بها والحرص عليها مع تعاليم البر بالوالدين وإيتاء ذوى القربى، وإقامة الصلاة وتأدية الزكاة، يخشون نبوءة قديمة تقول إنه إذا فنى زهر البلسان من تنيس طغى عليها البحر وغاصت.

عُرفت الجزيرة أيضا بالحرير الذى لا مثيل له فى رقته ونعومته

ونفاسته، بلغ الأمر حد أن المرء إذا اقتنى ثوبا منه عد ذلك إشارة إلى مرتبته، أو ارتقاء حاله، واذا خلع السلطان على أحد خاصته أو أركان الدولة ثوبا أو عباءة أو طيلسانا من حرير تنيس عُد ذلك من النوادر التى يجب أن يذكرها المؤرخون، كان قماطه فى طفولته من ذلك الحرير، ليس عن ثراء، ولكن لمنزلة والده.

لم يأكل السمك إلا مقليا أو مشويا فور صيده من البحر، أما مذاق الأرز ورائحته فلم يلقه فى أى موضع حل به، السماء فوقها أرحب، أصفى زرقة وأقرب، الهواء شفاف، حانى اللمس، وعبير نواصيها لا مثيل له، لكن تنيس ضاقت بهم بعد وفاة والدهم. كانوا أربعة هو ثالثهم. لفَّهم غم عظيم، بدأ عندهم توق إلى المفارقة، فاتفقوا على الخروج إلى مدى.

قال إنه تعلق بأبيه، كان مهيب الجانب، منيع الأمر، عارفا بأخبار القدماء والأولين، لكنه انفرد بعلم نادر أخذه أبا عن جد، اعتبر الحجة والمرجع فيه، وقيل إنه لا يوجد مثيل له فى ديار الإسلام، وتردد أن ثمة شخصا واحدا ليس غير حلم ببعض مما عنده، لكنه مقيم فى بلاد الإفرنج، بجزيرة قبرص، كان الوالد الكريم عالمًا بالطيور المهاجرة، التى يبدأ قدومها إلى بر مصر مع حلول الخريف، أرض الجزيرة أول ما تلامس هذه الطيور بعد رحلة شاسعة المدى عبر البرارى والبحار. كان يمكنه تحديد اللحظة التى سيحط فيها أول الطير، الأسراب دائما تتقدمها فرادى، لم يخب توقعه قط، يعرف مواعيد كل منها، السمان، السلوى، القميح المملوح، والنصطفير، الزرزور، الباز الرومى، الصغرى، الوبسى، البلبل، القمرى، السقاء، الفاختة، النواح، الزريق، النوبى، الزاغ، الهدهد، الحسينى، الجداوى،

الأبلق، الراهب، الخشاف، البزين، السلسة، الدردارى، الشماحى، البصبص، الأخضر، الأبهق، الأزرق، الخضير، أبو الحناء، أبو دينار، واربة الليل، واربة النهار، برقع أم على، برقع أم حبيب، الدورى، الزنجى، الشامى، شقراق والعميان والمناقير.

أكثر من مائتى نوع، يعرف أصواتها جميعا، يجيد تقليدها حتى ليبدو كأنه يحاورها، كثيرا ما رآه عند نوافذ البيت واقفا فى مواجهة هدهد أو بزين أو نصطفير، أعد لكل منها ما يفضله من حبوب قمح أو ذرة أو فاكهة، يصدر أصواتا مماثلة، كأنه يستفسر أو يطمئن، يفحص بعضها، تستكين له، تفرد أجنحتها، يدهن بعض المواضع بمعاجين يمضى أوقاتا فى إعدادها، أو يسيقها من قوارير مختلفة يحتفظ بها فى غرفة نومه، لم يمسك أحدها قسرا قط، بل كان حريصا على حركاته والتفاتاته ودرجات صوته حتى لا تفزع، منذ طفولتهم حذرهم وأوصاهم فالتزموا، لكنهم.. لم يأخذوا عنه.

كان ملما بالبقاع التى جاء كل نوع منها، أراض فسيحة بلا حد مغطاة بالجليد، يصعب على الإنسان قطعها إلا مدثرًا بالفرو، راكبا زحافات تجرها كلاب سلوقية، مطلعًا على توقيتات تجمعها، بدء اتجاهها جنوبا، فى أيام معلومات يقعد فوق السطح ناظرا إلى الأفق، يردد:

«القمرى يستعد الآن..»

«الباز الرومى على وشك الرحيل..»

«الزريق والبلبل والنصطفير تتأهب..»

تطير الأسراب عدة أسابيع بلا انقطاع، ينام قسم منها، يحمله

الآخر، ترتيب عجيب ونظام رائع، أما كيف تسلك الطريق عينه فى فراغات تخلو من أى علامة فهذا ما لم يتحدث عنه، مع أن جميع الدلائل تشير إلى علمه بذلك ولهذا تفصيل يطول.

كان يبحث بعينيه عن طيور معينة يعرفها من كل نوع، لم يضطر إلى لف سيقانها بخيوط من حرير، أو حلقات معدنية دقيقة، فى ذاكرته يستقر كل منها، يعرف من يصل، ويكتشف غياب بعضها رغم تشابه الملامح ولون الريش فى النوع الواحد، بيته أول محط بالنسبة لهذه الطيور التى حفظت مكانه عبر حواسها الخفية، لم تخطئه ولم تضل عنه.

في زمان وصولها تدب فيه حيوية دافقة، يرقب كلا منها، لكل أنغامه، ودرجات صوته، وطرق مشى مختلفة، أو عند الإقلاع، يدون ملاحظاته في أوراق، يرسل بعضها إلى ديوان السلطنة، فى إحدى السنوات جاء قاصد خاص من ملك البلغار، بعد استئذانه أرباب الأمر فى القاهرة ركب إلى تنيس، جاء حاملاً قفصًا على هيئة قبة داخله عصفور غريب، صغير الحجم، منمنم، نحيل الساقين كعودى ريحان، زرقة ريشه غامضة، لم ير مثله فى مصر، ظهر فجأة هناك ولم يعرف من أين جاء، ولماذا؟ ما نوعه؟ ما وجهته الحقيقية؟

رغب ملك البلغار فى الوقوف على أمر هذا الطير لأن ابنته هامت به وأحبت لونه وصوته الشجى الهفهاف، لكنها كلما نجحت فى الإمساك بواحد أو اثنين، لا يمكثان فى القفص أو أى مكان مغلق أكثر من ساعتين، ما السبيل إلى الاحتفاظ به مقيدا وحيا معا؟

تأمل الوالد الكريم الطير المحنط، المتمدد داخل القفص بحنو عظيم، سعى إلى خلوة مقدارها نصف يوم بدأ بعد صلاة الفجر، ثم

خرج ليجيب في رسالة طويلة مكتوبة على ورق بردي، ذكر نوع الطير النادر الماضي إلى انقراض، ومنشأه الأصلي في جبال شاهقة تفصل الهند عن الصين. وسبب هجرته، إذ عاشت أسرابه في منطقة نائية لم يطرقها بشر، لكن كبير رهبان التبت أمر بمد جسر خشبي ليصل حافتي هوة عميقة تعترض طريقًا طويلاً ينتهي عند السور الأعظم، كان لا بد من جز أشجار عتيقة وتمهيد مساحات من الأرض وتحريك صخور هائلة لم تقلقها الزلازل، عندما بدأ تدخل الإنسان في طبيعة المكان، اختل أمر الطير، هجَّ مع الرياح الموسمية، حتى استقر في بلاد البلغار لأسباب غامضة، هذا نوع نادر لا مثيل له في الدنيا، يمكن أن يصير من معالم البلد التي تذكرها كتب الأقدمين، بشرط. . ألا يمسه بشر، وألا يقترب من حركته إنسان، فمن خصائصه أنه يفارق الحياة على الفور إذا لم يستطع الطيران في خط مستقيم، إذا قام في وجهه مانع يصده احتضر فوراً، وهذا نادر غريب، غير معاين في أي مصر أو قطر، قال رسول ملك البلغار إنهم يطلبون منه عملاً يمكن الابنة الغالية من احتجاز الطير، طير واحد فقط، وله أن يطلب ما يخطر على باله.

قال شيخ الطيور رحمه الله إنه لا يمكنه الكذب على أي إنسان، صغير أو كبير، نعم. . إنه قادر على إعداد مثل هذا العمل، لكنه عاهد ربه والتزم ألا يتسبب في تقييد حرية أي مخلوق، خاصة الطيور التي عرف أسرارها بعد أن باحت له بالتفاصيل.

هذا عهد متين، لو خالفه لخان جنس الطير كله، وهذا ما لا يمكنه الإقدام عليه أبدا، أبدا. .

لم تفلح كل الجهود، وساءت الصلات بين مصر وبلاد البلغار، وبطل وصول الجلود البلغارية المشهود لها، التي يصنع منها سروج

الخيول، وأحزمة الأمراء، وحذاء السلطان الشتوى، وتوقف إرسال الصوف المصرى الأصيل وقماش الخيام والسيوف القاهرية المسقية، أثار ذلك استياء ذوى المصلحة.

لكن قاضى القضاة أثنى على الوالد، وبعد صلاة الجمعة دعا له شيخ المقام الأحمدى بطنطا ـ وله عند الصوفية منزلة عظمى ـ وأهاب بالخلق أن يهتدوا به، بالرجل الذى أبى خيانة عهده مع الطير. غير أن الابن الأكبر لم يخف امتعاضا، لو أن الوالد قبل ما عرضه ملك البلغار لترك لأولاده ما يكفيهم مدى أعمارهم ومن بعدهم الأحفاد. بدأت الوحشة بين الأب وابنه البكر، غير أنه لم يتوقف عن إبداء العناية وإعداد الأدوية وتركيبه المواد المعالجة لأوجاع الطير. وفى تلك الأيام كثر الحديث عن صلاته بالطير، من ذلك معرفته أحوال الممالك والديار القصية، كل نوع يخبره، بما يراه هنا وهناك، بل إنه يطلع مسبقا على فيضان النيل القادم، هل سيكون شحيحا أم غزيراً، ثمة طير معين يجىء من الشمال ويواصل رحلته إلى بلاد الحبشة، يبدأ رحلة العودة مع نهاية الشتاء وبداية الربيع ومن خلال سلوكه طبقات الجو العليا يمكنه الوقوف على أجنة الغيوم التى تحمل أمطار الفيضان.

لكن.. أغرب ما تردد زواجه من الطيور، إذ زعم البعض أنه يرسل نقاطا من منيه إلى جهات قصية توجد فيها طيور لا تفارق أصقاعها ذات ملامح آدمية، منها إناث غاية فى الحسن والرقة والحلاوة، يربط قطعاً من الحديد التنيسى إلى سيقان طيور النصطفير التى تحملها لتلقح تلك الطيور الغريبة القابعة على حواف الدنيا، والمؤكد، الموثوق به عبر شواهد شتى أنه أنجب أبناء شتى نصفهم طير ونصفهم آدمى.

كلام عجيب، لم ينفه الوالد ولم يؤكده، كلام لف ودار حتى وصل

أصحاب النهى والأمر فى القاهرة، وتردد أن أميرا كبيرا من المسموح لهم بارتداء فرو الدب القطبى الرمادى نوى إرسال قوة من الجند لإحضاره من تنيس قسرا بهدف استخلاص ما عنده، لكن تصدى له شيخ مشايخ الصوفية، أنذر بوقوع بلاء جسيم لو لحق الأذى هذا الرجل وأجبر على مفارقة تنيس التى لم يخرج منها قط.

غير أن حزنا نزل بالأب، لم يفصح عن سببه، ربما ليقينه أن معارفه الجمة لن تنتقل إلى أحد أبنائه الذين عزفوا عنها، بل أبدى أكبرهم تجاهه قسوة لرفضه عرض ملك البلغار. وبعد رحيله المفاجئ فوق سطح البيت، تردد فى الجزيرة أنه انفطر حزنًا على أنثى طير يعشقها منذ زمن. وتعيش فى النصف الشمالى غير المأهول وأن الهدهد تجرأ، وأفضى إليه بالنبأ بعد تردد النصطفير. وإشفاق الزرزور، وشجن العصافير القشتالية.

قال آمر القافلة إن الطيور توقفت عن الحط فى الجزيرة بعد رحيله، لم يلمسها أى نوع، وعد ذلك نذير شؤم، كانت أسرابها تعبر الفضاء، تبدو كغمامات سابحة بعيدا فى مواسمها المعهودة، ومن الفراغات العلا يسمع صوت جماعى له وقع مهيب.

«السلام عليك ورحمته..».

قال إن الجزيرة ضاقت عليهم بما رحبت، حتى وصلوا إلى لحظة فاصلة اقتنعوا فيها أن المقام صار وعرًا، اتفقوا على الخروج، على السياحة فى الدنيا، أن يقصد كل منهم جهة مغايرة لجهات الآخرين، وأن يلتقوا فى تنيس بعد سبع سنوات، وأن يدون كل منهم ما رآه، ما لقيه، بالفعل رتبوا أمورهم وقضوا حوائجهم وعزموا أمورهم، حددوا

لحظة خروجهم عند طلوع كوكب المشترى فى بيته وطبيعته، رمز السعد، عند الميناء دمعت العيون، تعانقوا، افترقوا.

قال آمر القافلة بصوت يفيض حنانا وتأثرا، إنه ودع عمراً واستقبل طورا مغايرا، غريبا، الأخ الأكبر كان له ولع مبكر بالنساء، أبحر فى جنك قارب قاصداً بلاد الشمال، مستهدفا التنقل بين البلدان، متخذا مهنا شتى، هدفه الوقوف على جمال الوجوه، وتفرد القدود، ومغايرة الأجساد، أن يعرف أقصى ما يمكنه. عنده شوق طال إلى نساء الأرض أجمعين.

الأخ الثانى، كانت عنده دراية بحرفة البناء، وله فى الجزيرة آثار مشهودة، منها قبة ضريح الولى، بيت المحتسب، ودار الضيافة، قال إنه سيمضى إلى البلدان المختلفة ليقيم فى كل منها بناء يبقى على مدى الدهر.

الأخ الثالث، الأصغر، قال إنه سيطوف بأضرحة الأولياء ومراقد الصالحين وأماكن الأحياء منهم، سيجمع أقوالهم، ونصائحهم وما فاه به رجال الله قبل رحيلهم الأبدى من حكم وجمل تفيض بالمعنى، أما هو فرغب فى رؤية البلاد والأقوام، وكانت وسيلته إلى ذلك التجارة، يقوم بنقل بضائع الشمال إلى ديار الجنوب، وما ينتج فى أقصى الشرق إلى آخر حد الغرب.

قال إن الفراق لم يكن سهلاً، أوشكوا على الإحجام والتقاعس، لولا عزم شقيقهم الأكبر، أمضوا حياتهم معًا، لم يأكل واحد منهم وجبة بمفرده، لم يتأخر أحدهم عن العودة الليلية فى توقيت معلوم، لم

يقض أحدهم ليلة واحدة خارج الدار، لكن بعد رحيل الوالد الذى أحبه الناس ولقبوه بشيخ الطيور ضاق البيت بهم. ومال كل منهم إلى انفراد.

قال إنه بدأ خطته، مضى إلى مشروعه، أنشأ تجارة فى البداية صغيرة، شرع فى سفر، منذ أربعة أعوام لم يتوقف، لو أفاض فلن يكف، لكنه بإيجاز يقول إنه أصبح من العارفين، الملمين بطريق الحرير الأعظم الذى يبدأ من الصين وينتهى فى ممالك الإفرنج، ولكنه حمل حرير الصين إلى بلاد لم تعرفه من قبل ناحية حد الغرب، كما أتى بنفائس لا حصر لها من بلاد الزنج، صار سوقها رائجا جدا فى الأمصار الشرقية، حتى أصبح موعد وصوله مما تعد له العدة وتضبط به المواقيت. فور دخوله عاصمة بلاد الصين ينزل بيت الضيافة الإمبراطورى، وتعلق على البوابة ثلاثة قناديل حمراء إشارة إلى رفعة الضيف، وصباح اليوم التالى يدعى إلى تناول الإفطار على مائدة البغبوغ. . هكذا يعرف ملك البلاد، هذا ما يلاقيه أيضا فى الهند، وبلاد العجم، والترك، أما الشام وديار الغرب فيعدها من مواطنه.

بعد أن أطلعه على أصل أمره، وما كان من أشقائه، تبسم قائلا: ـ كنت أتوقعك. .

تطلع إليه صامتا، غير دهش. . قال:

ـ قدرت ذلك. .

قال آمر القافلة:

ـ إنما أنت من علامات الطريق فى سفرى هذه المرة. .

قال إنه عندما وصل إلى مدينة بلخ، استضافه قاضيها عشرة أيام،

ومن عادته إذا أقام أن يستفسر عن الصالحين، والعلماء، وأرباب الفنون والصنائع، ويسعى إلى قبور من خلفوا ذكرا طيبا أو عملاً صالحًا فيقرأ الفاتحة ويأتنس بوجودهم الأبدى الصامت ثم يقصد من يجهلهم، من لم يلتق بهم قط، ولم يتعرف إليهم فى أسفاره السابقة.

فى بلخ أخبروه عن شيخ وصل منذ أربعة شهور، لزم الشجرة. قديمة، نادرة، هائلة الأغصان، غليظة الجذع جدا، لا بد من أربعين رجلا مفرودى الأيد، متشابكى الأصابع ليمكن الإحاطة به دائريا، ثمارها مختلفة. كل غصن يُظهر نوعًا، منها ما يشبه السمسم، وآخر فى حجم البطيخ، ثمة حبات صغار فى حجم اللوبياء، إذا تناول الإنسان واحدة صباح كل يوم على الريق لمدة عامين فلا يمرض أبدا، إذا لحست العاقر لحاءها راكعة فإنها تحمل ولدا ذكراً، وإذا مَرّ بها المسافر وألقى التحية فإنه يعود إلى الموضع نفسه، لهذا حرص على الوقوف وإلقاء السلام على أغصانها وثمارها المدلاة وجذورها التى لا تُرى، تحتها التقى بالشيخ، ضئيل الحجم، هادئ الحضور، بالغ الشفافية حتى ليشف عما وراءه، ولكنه من النظرات، استفسر منه عن أمور شتى، جاوبه بكل ما يعرفه، وكيف يمكنه أن يخفى أمرا فى مواجهة نفاذ نظراته، عندما حان أوان انصرافه أخبره أنه سيلقى ثلاثة عند اتجاهه غربا، وجنوبا، أولهم عند خليج القاهرة، والثانى عجوز لا يُعرف مقدار عمره فى واحة صغيرة نائية، تعداد سكانها لا يزيد ولا ينقص مع مر الأزمنة، وتوالى السنين، والثالث عند جبل تكسوه الثلوج فى بلاد الزنج، الأول سيطلب الرفقة، عليه أن يبدى المعاونة، وألا يتردد لحظة، خاصة إذا ظهر قبل إطلالة قرص الشمس، الثانى سيبدى النصح، وعليه أن يعمل بكل ما يقوله، والثالث سيطلب منه حمل رسالة،

وجب إبلاغها، ثم أفضى العجوز بعلامة، ونطق وصايا، وباح بأسرار شتى . .

قال آمر القافلة :

ـ أنت . . أولهم . .

الحق أن هذا الحديث خفف عنه، بدءا من تلك الجلسة ائتنس، وخف عنده الحرج فأقبل، خاصة بعد توغل القافلة فى الصحراء . .

ذكر الحضرموتي

.. يقول أحمد بن عبدالله إن مشيهم كان ليلاً . مع الكواكب والنجوم التي لم يرها من قبل في مثل هذه الكثافة . ينتظمون في قطار متتابع ، أولهم الدليل ، لن ينساه ، إنه الحضرموتي ، تقلب في البلاد وجاس خلال العالم ، أتقن العلم بالنجوم والميقات ، وعنه أخذ ، لم ير مثله في كل مراحل سفره صوب موضع الشمس الغاربة ، كان قادرا على تحديد الاتجاه بالحس ، إذا تطلع إلى السماء من أي موضع ، متحرك أو ثابت ، يدرك الموقع حتى لو امتلأ الفضاء بالغيوم الثقال . يعرف حركة الظلال في العمار المأهول والخلاء الخرب ، وبالتالي تحديد الوقت بدقة ، مواعيد الصلاة ، اتجاه القبلة .

إنه أهم رجال القافلة ، منزلته أعلى من الحراس الأشداء اللازمين لدفع البلاء غير المنتظر ، والتصدي لعصابات قطع الطرق ، في كل المراحل ، لا يمكن الاستغناء عن الحضرموتي الميقاتي . بدونه يمكن أن يضلوا ، فقدان الاتجاه في البرية هلاك مبين ، عرف ذلك وخبره ، لكم رأى هياكل عظمية لبشر ، لدواب ، هلكوا من ظمأ ، والماء على مرمى حجر ، رأى أحيانا هياكل هائلة الحجم ، ضخمة ، حيوانات غابرة لم تعد تدب . رءوس بعضها تتجاوز العشرين ذراعا .

الحضرموتي نحيل جداً ، طويل كأنه نخلة ، بارز عظام الرسغين ، والساقين ، منذ صباه أبحر عبر المحيط في شتى أنواع القوارب ،

الصغيرة والكبيرة. ما بين شواطئ اليمن والحبشة وموزبيق والهند، أتقن العلامات الثابتة ورياح البحر الموسمية والدائمة والاستثنائية. ومواضع خطره وأماكن شعابه، وانعكاس ضوء النجوم على مناطقه، ثم أوغل فى الصحراء العربية والآسيوية والإفريقية، الغريب أنه أمضى وقتا لم يحدده فى بلاد النوبة، كما لم يذكر سبب توجهه إليها أو ظروفه هناك، ولكنه بدأ متعلقًا بها، حتى إنه حدَّث عنها أكثر من ذكره حضرموت واليمن، عرف مراكب النيل التى تحمل الغلال، والأوانى الفخارية صنع قنا، وأقمشة نقادة، وبلح الواحات، ونسيج أخميم، وصل النوبة فى مركب البريد السلطانى الذى يبحر من أسوان كل ستة شهور مرة محملا برسائل أميرية، وبضائع شتى وحيوانات مقيدة، ومساجين، رأى تزايد الدوامات واكتمال الفيضان، وغرق جزر عامرة، هذا اليم تنتظره الأراضى العطشى الشبقة، لكم أغلق بيوتا كانت عامرة، عندما ينقلب قارب صغير يحمل عائلته بأكملها، وما يأخذه النهر لا يرده. فى النوبة حط طائر دقيق الحجم، نحيل الساقين. أزرق الريش، ناداه باسمه، حدثه الطائر بلسان آدمى، قال إنه رسول من بنى جنسه إليه، إنما جاء ليأمره بملازمة شاب خرج من تنيس. فليدله وليهده فى أسفاره، ولا يفارقه أبدا إلا بالموت وليرع شأنه، ويحرص على أمره، إنه كان صالحًا، محبًا لأبيه مترفقا به.

اختفى الطائر، لم يخلف أثرا، منذ ذلك اليوم انخلع أمره وتقلقل حاله، هل يمضى باحثا عن التنيسى هذا أو ينتظر؟، وفى يوم جنوبى قائظ جثم فيه الصمت وهمد. حتى كان بمكنة اثنين أن يتهامسا عبر ضفتى النهر الفسيح ويسمع كل منهما الآخر بوضوح، وصل مركب

عليه تجارة، قادم من الشمال إلى السودان، وعندما استفسر وأيقن أن صاحبها من الجزيرة التى لم يرها قط، سمع باسمها من العصفور المنمنم، سعى إليه منهيا إقامته النوبية الغامضة، لم يفارقه منذ ذلك اليوم، التزم بما تلقاه، ومن أمره الطير عليه أن يمتثل.

للحضرموتى وقفه مفاجئة، يتجمد وضعه، يقدم ساقا ويؤخر الثانية بينما تلامس أصابعه خصره، يحدث ذلك نادرا، لكنه إذ يطيل التحديق تتعلق بعينيه المقطبتين وفكه المدلى سائر الأنظار والأفئدة، يتطلع الكل نحوه، بإشارة منه تستمر القافلة إلى اتجاه محدد ينأى بها عن هلاك مبين، أو ينكص الجميع، أما إذا اختلط الأمر عليه، فالنجاة مشكوك فيها.

عنه أخذ تلك الوقفة بالترقب والحذر والاستفسار، من البحار الهندية أتقن علم الميقات، ومن الصحارى العربية تمكن من معرفة الجهات، أتم معرفته بالنجوم فى النوبة ويبدو أنه قصدها لهذا السبب لكن لم يثبت ذلك. صار عالما بمواقع المجرات والظواهر الكونية، حفظ خريطة النجوم. ما لمع منها وما خفت، حتى المذنبات كان ملما بمواقيت ظهورها ومساراتها، كان يقدّر الوقت نهارا من لون الظل ودرجة سطوع الضوء، فى الليالى الحوالك يصغى إلى صوت الرياح، من اتجاهاتها يمكنه تعيين الموضع. مع الأسف.. لم يدون معارفه، لم يخطها، كل ما توصل إليه اندثر معه.

أحب الرحيل. قال إنه لم يقم بمكان إلا المدة التى تلزم القافلة، للبيع أو الشراء، للتزود بالمؤن وراحة الدواب، معارفه فى مدن متباعدة قصية، لغاتهم شتى ولهجاتهم متباينة، يستفسرون منه عن ظواهر

شتى يستعصى فهمها. يجيب الحضرموتى من يثق بهم، من يتوسم فيهم الرغبة الحقة فى طلب العلم.

يقول أحمد بن عبد الله إنه كان دائم التبسم له. وإظهار الحنو والإشفاق، مع أنه كثير الصمت ممعن فى العزلة. بل أفضى ذات ليلة برغبته فى رفقته، لولا لزومه قافلة التنيسى، لكنه عزم أن يقدم إليه ما لن ينفد إلا بزواله. ما سيبقى معه مادام حيًا، سيقدم إليه ما ينفعه من معارفه.

كان فريدا فى إحاطته. غزيرا فيما عنده، لا مثيل له فى أدلة البر والبحر، ورواد الطرق والمسالك، إذا سئل عن مدينة دل عليها بموقعها وما تنفرد به، ومن عاش فيها من الصالحين، وإذا حدد مسافة ينصح بحصر المسير ما بين نجم وآخر.

أطلعه على علامات الجدب والنماء، وغور مياه الأرض وكيفية الاستدلال على شحه أو غزارته، وثمار الجهات الأربع ومواعيد زراعتها وظهورها، تفتح أزهارها ونضج ثمارها، واختلافها فى المكان الواحد، ثمة جبال فى اليمن وما وراء النهر تزرع سفوحها بفاكهة الصيف، وفى الوقت عينه تنبت عند قممها فاكهة الشتاء.

دله على علامات السحاب الممطر، والغيوم المُخلفة، والبروق الصادقة التى يعقبها قطر، فى البرية يرقب أهل الخيام السماء، إذا برقت سبعين مرة فإن المطر أكيد، شرح له أنواع الرياح واتجاهاتها ومساراتها عبر أيام السنة، ودرجات الزوال والفجرين والشفقين، واحمرار السماء قبل وبعد ظهور الشمس ومغيبها، علّمه كيفية

تحديد سمت القبلة أثناء الحركة فى العمار، أو القفر الخالى من كل أثر أو علامة دالة.

أقول أنا مدونه جمال بن عبدالله إننى أصغيت إلى تفاصيل جمة تخص هذا العلم أملاها على، ذكرها لى، لكننى خشية الإطالة أوردت بعضا من كل، غير أننى أضمرت النية بعد فراغى من أخبار رحيله أن أطلب منه إطلاعى على ما أتقنه خاصة أن علم الميقات عزيز فى ديار المغرب كافة لا يعرفه إلا أهالى الثغور والموانئ وبحارة السفن. عددهم قليل معرفتهم بدرجات الشروق محدودة. لكنهم يتفوقون على سائر أهالى الأمصار فى معرفتهم بالغروب، منازل انحدار الشمس وتغيرات قرصها حتى تمام غوصه فى المحيط الأعظم، سمعت بالساعات المائية فى الأندلس، خاصة فى غرناطة، لا تزال تعمل رغم انقضاء السنين وانتهاء دولة الإسلام. حدثنى من ارتحل إلى فاس عن المزولة النادرة فى مسجد القرويين، مثلها كثير هنا لكننى لم أر الأصلية لقعودى وصعوبة ترحالى.

يقول أحمد بن عبد الله إن صلته بالحضرموتى توثقت عبر المراحل، رغم جمود ملامحه وجهامة حضوره إلا أنه كان يرق ويصفو إذ يجلس إليه، يجبره ويحنو عليه، يخفف عنه بذكر مارآه من غرائب وأمور عجيبة فى الجهات التى قصدها، كان يبتسم بصفاء نادر لا يبدو إلا عند انفرادهما، ابتسامة وسيمة. طيبة فيها أبوة وتحنان. يقول له: أنا رأيت وأنت سترى. أنا رحلت وأنت سترحل، أنا عانيت وأنت ستشاهد. كان يقول أنا فى النازل وأنت فى الطالع. فيجيبه قائلا: أطال الله عمرك.

يتدفق الحضرموتى فى أويقات صفوه، يخبر بجزر وصلها فيها ثمار

ذات ملامح آدمية. ومواضع غريبة أمضى ليالى فيها. قمم جبال وشواطئ غير عامرة ومعابد بطلت الشعار منها، وغابات نخيل، وأكواخ من بوص. ومبان مكسوة بالمرمر، وممرات تتخلل جبالا، لا يذكر الأجناس الذين عرفهم لكثرتهم. أما الطريق إلى الصين فمن أوعر مسالك الدنيا.

يصغى متسائلا، أى الجسور سيعبر، أى البلاد سيصل؟ فى أى المساجد سيولى الوجه تجاه القبلة؟ هل سيتاح له يوما الجلوس والحديث عن وقفاته ورحلاته والإفضاء بغريب ما جرى له. ينتبه إلى الفرق بينهما. يرحل الحضرموتى من تلقاء ذاته. ملبيا حاجة عنده تلح عليه إذا أوى إلى الدعة واستكان. أما هو فيرحل مضطرا، مأموراً ممن لا يقدر على الإنباء به. لا يقدر على تحديد طبيعته بالضبط، صوت؟ انفجار؟ صدى؟ عرض؟ جوهر؟.

لا يمكنه القطع.

إنه ممتثل، ساع إلى موضع مغيب الشمس، لا يدرى موعد الوصول لكنه فى تلك الحقبة المبكرة من رحيلة، لم يكن واثقا، إنه ليسأل نفسه الآن أحقا مر بها أم أنه سمع من آخرين؟ أحقا هو الشاب الذى خرج أول العمر لحظة بزوغ نهار قصى ليعبر الجسر ويلتقى بالتنيسى، ثم الحضرموتى؟

هل أصغى إليه وأخذ عنه أم قرأ له؟ ألم يبد تجاهه رقة تفوق وتتجاوز خشونته البادية؟ ألم يرصد فى عينيه شجى؟ أصغى إليه وارتبط به، وأحب حضوره وإشارات يده ولم ينس قط تدلى فكه عند توقفه لحظة الحيرة. ألم يبك عندما سمع نبأ رحيله الأبدى فى نقطة

متقدمة من سفره جرى عندها ما جرى وما سنطلع عليه فى حينه؟ هل كان حقيقة أو وهمًا؟ هل أقام عنده أو عبر مع العابرين؟

أقول أنا جمال بن عبد الله إننى كنت أتمهل عند تدوين هذه المواضع، أبطئ حركة القلم وأتطلع، أرى فى ملامحه ما يفوق قوله، وألمح فى عينيه ما يتجاوز وصفه، ترقرقا يعبر ثناياه حنينا تنضح به ملامحه، أسى غريبا لم أطالع مثله فى العيون التى تطلعت إلىّ أو رمقتنى عن بعد أو قرب، أما تلك الدمعة المعلقة، غير المرئية، فتثير عندى أسيانا غامضا، أما صمته فضاج، مضن..

هكذا صمت الحضرموتى، إذا أطرق فجأة فلا يجيب أى نداء، لا ينطق إلا إذا بادر هو. لكن صمته هذا لم يكن صمما أو انغلاقًا، إنما يصغى إلى مسارات الرياح، أو بوادر عاصفة مقبلة لم تلح نذرها بعد، أو سحب ممطرة، موعدة، لم تبد، أو يصغى إلى رجات فى باطن الأرض العميقة، أحيانا يركع فجأة كالمصلى، يلصق أذنه بالأرض. يعتدل ليقرر فى حسم:

ـ هنا صلصلة...

تمضى لحظات أو دقائق أو ساعة ربما وتقع الزلزلة، ترتج الأرض وتميد ميدا، أو تنفجر نيران أزلية، أو تقذف ما فى باطنها من حمم مصهورة، وقذائف كونية. إذا كف تتوقف القافلة كلها، سكونه المباغت يعنى وقوع خلل ما. أو قرب مفاجأة يعرفها لخبرته وطول علمه.

كان معروفا، كثيرا ما ابتسم إذا استفسر أحدهم عن اسمه، يجيب قائلا إن أسماءه عديدة وألقابه بلا حصر، فى كل إقليم مرّ به اتخذ

اســمــا، فى كل بلدة، لكنه إذا أحب إنســانا ودنا منه طلب مناداته بالحضرموتى، مسقط رأسه وملعب صباه، ومصب حنينه وأشواقه، مازال هواؤها ورائحة أرضها عنده رغم تعاقب الأقمار والشموس وانقضاء المدة الإنسانية!

كان يضع حول خنصره خاتمًا يتوسطه فص حجر كريم أصفر، صفرة مشربة بحمرة، ربما عقيق أو ياقوت هندى، فى الحجر صورة عقرب صغير. ما دام بقى مرتديا الخاتم فى يده فإن الأرض المحيطة به لا يقترب منها عقرب لمسافة أميال سبعة من النواحى كافة. يعنى هذا تأمين القافلة ومن يتبعها، ما من شىء يثير الرعب فى الصحارى الموحشة إلا الهواء، من ثعابين طائشة. وحشرات شاردة. ومما قيل عنه إنه يحتفظ بعدة خواتم، منها ما يبطل ثورة الضوارى ويهدئ ثائرة النمر والأسد ويذهل الضبع عما حوله. وآخر يقى الإنسان من الغرق، وثالث يقضى الجوارح الطائرة. هذه الخواتم كلها لا تعمل عملها إلا إذا أحاطت إصبعه ولامست مسام جلده.

قال التنيسى آمر القافلة إنه أهم رجالها. يحسدونه على صحبته. هناك أدلة وميقاتية يعرفون البر وآخرون خبروا البحر، لكنه جمع بين الاثنين وزاد علما بأمور يصعب تحصيلها أو تصديقها. بدونه يمكن أن يضلوا، يضيعوا فى المجرة.

فى عصر توقفوا فيه التماسا للراحة. حدثه التنيسى فقال إن أشد ما يخافه ذهاب الحضرموتى. أو رحيله المفاجئ. إنه يلاحظ المودة المتنامية بينهما وهذا لم يقع لشخص آخر قبله. إنه يعرف عزمه على تلقينه علمه. فاذا جرى الأمر بيسر وأفاد منه. فإنه يمكنه مرافقته مدى الحياة. طالما اتصلت رحلاته، سيأتى معه إلى كل جهة، إلى الصين، إلى

الهند، إلى جزيرة سرنديب، إلى بلاد الزنج، إلى جزر النساء، يخطئ من يظن أنها عالم واحد، إنها عوالم مختلفة، من الحمق الإنسانى أن يمضى المرء مقيما، لهذا لزم الانتقال، القصد الظاهر، التجارة أو تحصيل العلم، ولكنه فى الحقيقة يريد الإلمام بالإنسان هنا وهناك.

يقول أحمد بن عبد الله إنه أصغى إلى ما قاله التنيسى. اشتاقت نفسه إلى الوقوف على أقسام الدنيا، شرقا وجنوبا وشمالا، استفسر عن الصين، وآخر حد العالم أو أوله جهة الشرق، أول شروق على هذا الإقليم، عندما تكون القاهرة فى منتصف الليل تكون الشمس بازغة هناك، يسكت التنيسى قليلا، يبدو فى عينيه تعبير عابث، غامض.

ـ أما النساء فحديثهن يطول..

يطرق خجلا، حتى هذا التلميح وما بعده بمسافة لم يكن عرف إحداهن، إنما أصغى إلى ما يتردد عنهن. ثمة لقاءات عابرة ونظرات متاحة ولمسات لاهثة، لكنه لم يسع إلى بيوت الخطأ التى يقصدها أقرانه، لم تتح له الخلوة وإن دنا منها وأوشك، سأل عن نساء المشرق وهل يختلفن عن المغرب؟

قال التنيسى إن كلا منهن كون خاص، فما البال بمن تعيش فى أقصى الأرض؟

أصغى وعنده حيرة. ما يقوله التنيسى عن نساء الشرق البعيد مغر، موح، مدل على عالم مغاير، ومباهج يتوق إليها من كان فى عمره، لا يدرى ماذا يمكن أن يحل به لو أنه لم يلزم؟

يقـول جمـال بن عبـد الله إنه لا بد من إشـارة هنا، فخـلال حديثـه يتـوقف لحظات، يبدو دهشـا، دهشـة لم أعرفـها فى غـيره، أقـدر على الإحسـاس بها لكننى لا أقدر على توصيفها أو نسبتها إلى نوع معين ربما لما فيها من حزن شفيف وأسينة وتحسر على أمور مجهولة لا أدرى عنها شيئا، أحيانا تلوح على وجهه أصـداء ابتسامة نائية، بعيدة فكأنه يسعى إلى اقتناصها.

قال أحمـد بن عبد الله صاحب الحضرموتى. مكانه يليه مباشرة. عند الراحة يصغى إليه ويأخذ عنه، عند بلوغ الواحات لم يفارقه، فى الطريق رأى كثبان الرمال المتنقلة، تحملها الرياح من مكان إلى آخر أعجب ما رآه عينا ماء متجاورتان فى الواحات الداخلة كما يعرفها أهل مصر، عين باردة ماؤها مثلج عذب، لم يذق مثيلا له، قادم من أغوار بعيدة، مظلل، يتدفق فى قناة حفرها أهالى الواحة ليشرب منه الكافة وفقا لترتيب قديم، ليسقى النخيل وأشجار التين والزيتون والتوت والنبق. والطيور الغريبة المهاجرة، يتعقبها التنيسى بالرؤية والاهتمام والشجى. لم يقرب أحدها قط، بل كان يجلس القرفصاء ويسند وجنتيه إلى راحتى يديه ويمعن، إلى جوار العين العذبة عين أخرى حمئة، ما يفصلها حوالى أربع خطوات. تمضيان متوازيتين. تفترقان بعد حوالى مائة ذراع، القناة الأولى تتجه إلى الأرض المزروعة، الثانية تمضى على حوض كبير من حجر الصوان تتفرع منه قنوات أدق فأدق إلى داخل البيوت.

أخبره الحضرموتى عن رجل جاء هاربا من الوادى. مطلوبا لثأر، استجار بأهالى الواحات فقبلوه، لكنهم اشترطوا عليه أن يقيم بعيدا عن البيوت لأنه أعزب، وألا يستحم فى العين الحارة لأن ماءها يدخل

البيوت وتغتسل به العذارى. تحاشيا لأى مشكل عاش خارج النطاق المعمور، استظل بسقف من جريد النخل العالى، افترش الأرض، تكسب عيشه من الخدمة، فى الأفراح يحمل صوانى الأكل، يرش الماء أمام البيوت، يغسل الأوانى فى المضيفة، فى المآتم يطوف بالقهوة. فى ليالى الذكر أول القادمين وآخر المنصرفين، أمضى ثلاث أو أربع سنوات لا يسمع له حس، ولا يرى له خطو، كأنه لا يسعى بين القوم. إلى أن صحا ذات فجر مبكرا وقد غلبه شوق قديم إلى حمام دافئ، لم يعرف الماء الساخن إلا نادراً. تلفت حوله. استوثق خلو الجهات، خلع ثيابه، نزل الحوض، شيئا فشيئا بدأ يعتاد على الحرارة المرتفعة، تسربت عبر مسامة، إلى عروقه، إلى أقصى شعيراته، إلى مكامن تعبه، تبدل وضع جسده من انكماش إلى تمدد، تباعدت ذراعاه، سرى الدفء إلى روحه، فتح عينيه لكنه لم يستطع منع انغلاق جفونه. انبعاث صور جديدة ورؤية ألوان لم يعهدها من قبل وأصداء مغايرة للأفق النائى. وسن.. وعلى مهل بدأ يغوص فى السخونة الوثيرة، غطى الماء رأسه، نفذ عبر الفتحات السبع فى وجهه، استسلم تماما، انفرط عقده، حمله التيار المتمهل عبر القناة المؤدية حتى انحشر فى حمام بيت مأهول. ومنذ هذا اليوم كفت العذارى عن الاستحمام بمياه النبع خوفا من الحمل، أما المجربات فتغمرهن نشوة إذ تتدفق المياه بين فروج أصابعهن وسيقانهن، خاصة عندما يتذكرن أن رجلا قويا غريبا سبح فيها حتى الموت. يقول الحضرموتى إن النساء العاقرات لديهن اعتقاد قديم هنا أن من تستحم قبل شروق الشمس بالمياه الدافئة تحمل بعد مضاجعتها زوجها بشرط أن يستمر بلل جسدها بماء العين. لم يعد أحد يذكر الغريب.

لم تطل إقامة القافلة فى الواحة. آخر نقطة عامرة قبل التوغل فى الصحراء العظمى. من هنا يبدأ طريقان، الأول قديم مهدته الأقدام منذ

عصور بعيدة يتجه جنوبا إلى بلاد الزنج والثانى يمضى غربا، يصعد شمالا ثم يمضى غربا يقال إن أول من شقه الإسكندر الأكبر بعد أن بلغ واحة آمون والمعروفة الآن بين أهالى الصحراء بسيوة، الطريقان يتصلان فى أكثر من نقطة بممرات فرعية. بعد مفارقة الواحات تعلقت الأنظار كلها بالحضرموتى، أى خطأ ولو يسير يؤدى إلى التهلكة.

أمامهم مسيرة أربعين يوما، لن يمروا خلالها على عامر، عشرون منها يجب أن تقطع نهاراً، وعشرون ليلاً. ولذلك صلة بحركة الرياح وانتقال الكثبان وتبدل المعالم. يتقدم الحضرموتى القافلة. يتطلع ممدود الفك حتى إذا رصد عاصفة قادمة يشير بيده فتكف الحركة يأمر بإناخة كافة الجمال. يمر بها واحداً واحداً، يربت أعناقها بإيقاع مخصوص، تمد رءوسها إلى أسفل، يقبع الجميع بجوار أجسادها، لاينقضى وقت طويل إلا ويبدأ سفى الرمال.

يقول أحمد بن عبد الله إنه ما من مرحلة اكتملت فيها غربته منذ خروجه مثل تلك الأيام الأربعين، إذ يستعيدها يخشى، كأن مجرد احتمال عودتها بالخاطر مما يخيفه، ما من علامات بادية. عند حد معين من الوقت والمكان لا بد أن تعلو أصوات القوم بغناء رتيب يحاكى خطو الجمال، الغرض منه كما يقول الحضرموتى إسماع الإبل صوت البشر، لكن الأهم أن يصغى كل إنسان إلى أصوات الآخرين، الامتداد اللانهائى والصمت الكونى وغموض النجوم فى الليل، والاحتمالات الخبيئة المفاجئة، جميع هذه العوامل جالبة للذهول، عندئذ ربما يضل الإنسان، يتوه عن نفسه، وهذا من عوارض السفر الطويل. ولولا الشمس لاختلطت المشارق بالمغارب، وتداخلت الجهات.

ازداد قربا من الحضرموتى، تعلق به، تبعه كظله. وبدا التنيسى سعيدا بذلك. كان يتأثر بلفتاته نحوه غير المتوقعة، إذ تطل ابتسامة رقيقة عبر وجهه الجامد الذى قد من صخر خلو من أى تعبير، لسنوات طويلة تلت كان إذا مرت به أيام عجاف أو عرف ظروفا قاسية فإنه يستعيد حنو الحضرمى عليه فيحن ويهفو، لكم ود القيام بخدمته، لم يتح له فرصة قط، كان آخر من ينام وأول من يستيقظ، لم يره إلا ماشيا أو راكبا أو محملقا فى النجوم أو متطلعا صوب الأفق المبين، أو مطرقا إلى الأرض ناكثا الرمال بعصاه النحيلة الطويلة، أو بطرف أصبعه، أو منشدا لأنغام غامضة، لم يفهمها لكنه أضمر سؤاله عنها فيما بعد، مع كل خطوة ازداد وعيه وحسه بأنه جزء قديم من القافلة، ائتنس بهم. قويت رغبته فى الوقوف على أقسام العالم المختلفة وعبور طريق الحرير الوصول إلى الصين، الوقوف على عجائبها، قص عليه التنيسى أموراً عجيبة حركت رغباته، وفضوله.

يقول أحمد بن عبد الله إنه بعد انقضاء هذه المراحل، خاصة الأربعين يومًا الشاقة توقفوا، الرمال أخشن.. لكنهم تمددوا، لا بد من الراحة حرصًا على الإبل التى فقدت أجزاء غير هينة من أوزانها. بدأ الحضرمى تطلعه إلى السماء، قال إن هذا موضع من الصحراء يمكن منه رؤية نجوم يصعب مشاهدتها من بقاع أخرى. قال إن ما يبدو هنا لامعًا يراه الراصدون هناك باهتًا، أطال التحديق انتظارا لبزوغ نجم معين أخبر عنه لكنه لم يفصل. إنه يتابعه منذ إتقانه علم النجوم، أوصاه معلمه به. أطلعه على أمر غريب، ولد هذا الرجل وعاش فى بلدة أخميم شرق النيل، أخذ علمه بالوراثة، أبا عن جد. أوصاه والده بالانتباه إلى هذا النجم بالتحديد، موقعه إلى الغرب، إذا ظهر فلا بد

من رصده على الفور، قال الحضرموتى إن معلمه أفضى إليه بتلك الوصية التى تلقاها عن جدوده الأقدمين، منذ أن ودعه عند جسر أخميم صار رصد هذا النجم أحد همومه الكبرى، تعيين موضعه، مواعيده، ميله، لمعانه، تقول وصية الأجداد إن ثمة تغيرا معينا سوف يطرأ عليه. إذا لاح فإنه ينذر بتطورات مهمة فى الكون الأعظم.

الحضرموتى حفظ الوصية، لم يصرح بها إلا إليه، قال فى لحظة وهن إنسانى نادرًا ما تبدو عليه إنه خشى المنية بدون أن يوصى إلى من يضع فيه ثقته، ويعطيه مفاتيح علمه، قال إنه لم ينجب، إنه شجرة بلا ثمر، أشار إلى الرجال، إلى الجمال، قال إن لكل من هؤلاء امراة وأبناء ينتظرون فى مكان ما، وإن بعضهم متزوج فى عدة بلدان ومن هؤلاء آمر القافلة المحب للنساء، أما هو فلن يقص عمن ارتبط بها زمنا جميلا غير مستعاد، لكن الظرف غير المواتى باعد بينهما، إنه يرى فيه ما كان ممكنا أن يراه فى ابنه الذى يخرج من صلبه. بعد أن سمع منه صمت متأثرا، أغفى وعنده حنين غامض إلى منحنى يتخلل الشارع الكبير فى قلب القاهرة، قبة تحتها ضريح ولى مشهور فى مواجهتها ثلاثة مداخل لثلاثة مساجد كبرى، كل منها مختلف عن الآخر، يكاد يرى تفاصيل النقوش والزخارف، مآذن مرتفعة، نحيلة رشيقة، يتداخل الحنين بتوق إلى وجه أنثوى جميل، يتطلع إليه مبهورا، يعنى طفل، من؟ لا يمكنه التحديد. كان عمره عندما تعلق به، ربما خمس أو ست سنوات، طبعت رؤيته، صار القياس والمرجع الأصلى الذى يعود إليه بدون أن يدرى أو يعى.

ما بين اليقظة والنوم رآها. قاعدا فى مواجهتها، شاخصا إليها، يتغير الضوء، تكتمل ملامح الحضرمى. يتأهب لإشهار نيته للتصريح

بعزمه أنه سيتبعه، سيقتفى أثره، يعلمه ما تبقى، ينطق بما لم يقله بعد، لن يفارقه.

هنا أوشك على الوصول إلى لحيظات يصعب تحديدها، إذ تتحول الأفكار إلى صور لا رابط بينها، تبدو متسقة فى البداية لكنها سرعان ما يفلت عقالها، تتضاءل، تتحول إلى مساحات معتمة، متصلة، تتخللها رؤى تتلاشى مع اليقظة، عند قرب تجاوزه تلك اللحيظات برق الصوت مجهول الجوهر والمصدر.

ـ ارحل . .

ما بين يقظته المفاجئة وانفراجة عينيه، وانتظاره انجلاء الأمر، وظهور الغوامض، تهدج قلبه، أصغى إلى دفق نبضه فى سمعه كأنه يسمع قلبا مغايرا، غريبا عنه.

قال جمال بن عبد الله إنه تطلع إلى محدثه عند هذه النقطة لما وقع بصوته من تغير فهاله ما رأى من كدر ملم بوجهه، كأن مجرد ذكر الحظة النائية كاف لجلب كدوراتها رغم شسوع المسافة، واتساع البون، بدا مرجوفا حتى إننى طلبت منه ذكر اسم الله، وشرب كوب ماء، تطلع إلىّ عندما مددت يدى بالماء المعطر، قال إن هذا عين ما أقدم عليه الحضرموتى عندما رأى فزعه ورجفته.

يقول أحمد بن عبدالله إنه لم يقدر على المقارنة. هل هو الصوت الذى سمعه أول مرة وبدأ بعده هجاجه؟

ينظر إليه الحضرموتى، عيناه حانيتان، مترقرقتان فيهما سلام مقيم ومس من عتاب، وحزن عقيم تجرى محاولة لستره.

ـ رافقتك السلامة فى سفرك هذا . .

هل يعرف؟ أهو مطلع على باعث خروجه، ودافع رحيله؟ لم يفض بنبأ الهاتف إلى أى إنسان، لماذا يبدو وكأنه عالم بما جرى، لم يستفسر، لم يبد فضولاً، لم يذكر شيئا عن أمير القافلة. بل بدا حاضا له على الرحيل. كان الهاتف ملمّا به من جميع الجهات مندلعا من داخلة. بدا الحضرموتى نائيا، ثبوتى النظرة، مشيرا بيده جهة سفر الشمس. لم يكن بوسعه إلا إقصاء نفسه، تهدئة للزلزلة المدومة داخلة.

مد الحضرمى يده بكتاب مجلد برق الغزال، طلب منه حفظه مهما تغيرت الأحوال وتقلبت به الظروف، وضعه فى المخلاة. لم يكن قادراً على أن يمنع طفرة دمعة وثابة خرجت فى الليل الصحراوى الغميق. دفع إليه دفعًا وهو مجرد من كل عون . .

الرضاع فى البرية..

حدث العبد الفقير إلى ربه، أحمد بن عبد الله، المهاجر إلى موضع المغيب، أن كل مرحلة فاقت الأخرى فى صعوبتها، كل الشدائد تهون إذا تلقاها الإنسان بين جمع، لكنها تعظم إذا قابلها منفرداً، من هنا عرف الحكام القساة قلوبهم، الغليظة أفئدتهم، ما يعنيه حبس المرء منعزلاً، ممنوعًا من الحوار حتى مع نفسه، عندئذ تسهل الإحاطة به.

ما البال إذن عندما يجد الإنسان نفسه وحيداً، مبتوتًا عن كل عون، فى مواجهة الكون الخاوى. حتى الآن، رغم انقضاء مسافات ومراحل وتقلبه فى البلاد، ومروره بأطوار شتى، فإنه لينتابه كدر، ويدركه نصب إذا تذكر لحيظات من الفترة التالية على مفارقته قافلة التنيسى، ابتعاده عن الحضرموتى، ما شرس عليه وشق مفارقة الصحبة، الوحشة بعد الألفة، خاصة.. ابن حضرموت، هو بالتحديد.

عندما تطلع إليه متسائلاً بصمته عما إذا كانا سيلتقيان؟ قال: لا تعلل نفسك بلقاء فى هذا العام، أو الذى يليه، فالأمد طويل، وعلمه عند الله.

بعد الكتاب مد إليه إناءً صغيراً، قُدَّ من مادة تشبه ثمرة جوز الهند، غريبة الملمس، قال إنه احتفظ به زمنًا، أنقذه من صعوبات جمة، والآن يعطيه لمن يحتاج إليه بحق.

هذا الوعاء أعانه وأمده، في الصحراء الموحشة التي قطعها بمفرده، إذا ما أدركه الظمأ يرفعه إلى شفتيه فيذوق الماء بدون قطر، يبل ريقه ويهدئ عطشه، إذا جاع يشعر بلبن دسم، طيب الرائحة، لكن ما من سائل يمكن رؤيته أو مسه، لم يطلع أى انسان على أمره. حتى الذين اتنس بهم، وصفت أيامه معهم، مع أن الحضرمى لم يطلب منه كتمان الأمر، لكنه اعتبر ذلك من خصوصياته التى يجب ألا يشهرها إذا ظهرت إشارة، لكنه بعد وصوله بلاد المغرب وقوفه على حافة المحيط الأعظم، بعد لقائه الشيخ الأكبر، وامتثاله له، وتسليمه كتبه إليه، وبدء التدوين، لا يرى بأسًا فى ذكر الأسباب، خاصة أنه تلقى العلامة أثناء خلوتهما فى المسجد الجامع.

عندما أخبر القوم فى الواحة أنه قطع المفازة بمفرده، بدأ الشك فى عيونهم والحذر، ظنوا أنه جاسوس من الفسطاط، أما من أحسن الظن فرأى أنه من جنس مغاير، منتسب إلى البشر بالشكل، ولولا أن قصاص الأثر استضافه وقربه لما صدقه أحدهم، عندما استقبل الفراغ الأبدى، والشسوع اللانهائى، لم يدر كم سيقطع؟ ماذا ينتظره؟ بعد أى مرحلة سيتوقف؟. لم يكن أمامه إلا هوّ مكانى، وأفق كلما دنا منه ابتعد عنه، لكن الحضرمى كان ماثلاً أمامَه، مستعيداً تحديقه، حديثه عن النجوم، الظلال، الرياح، كان إذا تطلع إلى الأفق اتخذ الوضع نفسه، إذا تكلم يفاجأ أنه يشير بيديه مثله، أو يتوقف أثناء حديثه، مومئًا كما كان يفعل.

أعاد على ذاكرته كل ما تلقاه عنه، هكذا حافظ على اتجاهه غربًا، خاصة ليلاً، ما أقضه أن يحيد عنه، الهاتف لا يدله لكن يأمره فقط.

لو أن إنسانًا أخبره فى إقامته ونشأته القاهرية عن مدته الصحراوية

تلك لعده من المجانين، أو المهرفين، مجرد الاحتمال كان منعدمًا، ما الذى يدفع به إلى الصحراء. سعيه كله فى المدينة، فى دروبها، فى حواريها، فى ساحاتها، مقاهيها، كان متدثراً بها فمن أين يجىء الاحتمال يومًا بولوجه الصحراء والأقفار؟

يقول أحمد بن عبد الله إن من يتأمل المسارات، خاصة النهايات فلن يجد ثمة علاقة بينها وبين البدايات، مع أن كليهما طرفا دائرة واحدة تنغلق إذا اتصلا، وتكتمل إن تماسا.

قال مدونه: بدا محدثى راغبًا فى اختصار حديثه عن انفراده، كرر أكثر من مرة أنه لا يريد الإطالة، لو أفضى بكل ما عنده لما وفى فالوقت ضيق.

سألته: أى وقت يعنى؟

تطلع إلىّ صامتًا، متعجبًا، لم أدرك ما يعنيه إلا فيما تلا ذلك، لكن.. لا بأس من إشارة. إذا صحبت منذ سنوات محاربًا شجاعًا، سيفًا من سيوف الملة الإسلامية، عرف بشجاعته وإقدامه على خوض المخاطر، كُلفْتُ من سلطان البلاد وحامى الديار أطال الله عمره بتدوين أخباره أثناء مرضه الأخير، كان مقيداً، كنت مقعداً، لكنه أفاض وكتبت، لم يكف عن ترديد ما قاله خالد بن الوليد: ما من موضع يخلو فى جسدى من ضربة سيف أو طعنة رمح، وها أنذا أموت كالبعير، ألا فلا نامت أعين الجبناء. كثيراً ما قال لى إنه ميت بالفعل عدة مرات منذ حقب بعيدة، إذ كان مؤكدا موته يوم اشتباكه مع قراصنة البحر، ونجاته من طعنة رمح أصابت زميله لأنه مال بجسده إلى الامام قليلاً، ويوم قصف المدافع الكبيرة وتطاير الشظايا الساخنة، إحداها نفذت إلى قلب ضابط كان يقف مكانه ثم انتقل عنه قبل ثوان، مثل هذا كثير، قال إنه فى

البداية هاب الموت لكن بعد مواجهته خفت الحدة، وهانت المدة، لذلك اعتبر كل ما تلا ذلك وقتا إضافيًا، وعمراً ثانيا ..

أقول أنا جمال بن عبد الله إننى سمعت تلك العبارة عينها من أحمد بن عبد الله نقلاً عن الحضرموتى، لـهذا تهون جميع الأخطار أمام من واجه الهلاك المبين.

قال أحمد إنه كان جاهلاً بعلامات الطريق، بتضاريسه، بما يخفيه هذا المرتفع أو ذاك، أو . . ماذا سيبدو عند الأفق؟ كل ما ترسخ عنده، الاتجاه غربًا، ما أسهل ذلك نهارًا، وما أصعبة ليلاً، عليها تدقيق النجوم، والاهتداء بأوضاعها، مستنفراً كل ما تلقاه، لو أنه لم يأخذ عن الحضرمى، لو أنه لم يتقن على يديه علم الميقات، لاستحال عليه المضى ليلاً، وأمور أخرى جمة . . لا . . ليس ذلك فقط، ثمة أشياء لا تندرج تحت علم، ولا يمكن تحديدها بمسمى، لم ولن ينس تأكيد الحضرمى على لا محدودية القدرة الإنسانية، المهم . . كيفية إظهارها أو بذلها؟ وعلى قدر الغاية تكون الطاقة، وعلى قدر السفر تكون المئونة وللنية فى الأمور سلطان عظيم كما قال العارفون، إذا قدر المرء مشى ساعة ربما يدركه التعب قبل بلوغ تمامها. لكنه إذا أضمر النية على قطع مسافة مقدارها عشر ساعات فربما لا يشعر بالنصب قبل انقضاء سبع أو ثمان، قال الحضرموتى إن الجسد يتكيف بما أضمره صاحبه وعزم عليه، وعن ثقة وتجربة يؤكد أنه لا حد لذلك!

أقول أنا جمال بن عبد الله إننى سمعت فى صدر فتوتى بنبأ يؤكد ذلك، إذ حدث أن رجلاً وامرأة وطفلاً رضيعًا من قبائل الجبل الكبير ضلوا طريقهم وهم يتجهون جنوبًا عبر الصحراء لسبب لم يوضحه أحد، ثقل عليهم الأمد وظهرت وعورة الطريق، لم تحتمل المرأة فماتت،

حمـل زوجها طفـلها لمدة ثلاثة أيام، لـم يكف خـلالها عن البكـاء، كان يسكت لثـوان عندمـا يحمله أبوه فـى الوضع عينه الذى اعـتـاد فيـه أن يقـرب الثدى، وسرعـان ما يكتـشف بعده عـن الحلمة المشـتهاة، مـا من رائحـة لصـدر الأم، يعلو صـراخـه أوعـر وأنكى، لـم ينفع مـعـه هز أو هدهدة، قرب منـتصف اليوم الثـالث خفت عـياطه، تقطع، بدا نحـيلاً، متسلخًا، ذاهبًـا، تتسرب روحه على مرأى ومسـمع من أبيه، شغله حال ابنه عن ظرفه هو فأوشك أن ينسى جوعه وظمأه، لـم يكن لديه إلا ركوة بها قليل من الماء اجتهد فى الحفاظ عليه، قطرات للطفل، أخرى له، بين الحين والآخـر يلتفت إلـى اللاجهـة، يُقـال إنه صوت الأم يهـيب به أن يفعل شيـئًا، أن يقدم عونًا ما إلى وليـدها، لكن.. كيف؟ قواه تهن، زاده ينفذ، الأمر محدق، لـم تلح بادرة خـروج من تلك المتاهة، وعندما أقعى منحنيًا مستندًا برأسه على يديه وعيناه تحتوى ابنه الذاوى فوجئ بهسيس خـافت يسـرى داخل عـروق صـدره، كـأنه طابور نمل دقـيق مـتـتـابع، قشـعريرة مغايرة، لـم يـعرفها من قـبل، سرسوب نحـيل يخرج منه، من ثدييه انبـثق حليب صاف نادر، عـلا صراخ الوليد مـتنسمًـا رائحة اللبن الطازج البشرى، أقعى الأب مستعـيدًا الوضع الذى كانت تتخذه امرأته جالسة عند الإرضاع.

أقـول إن هذا خبـر متناقل، مـعـروف، ولهذا الطفل عـقب الآن فى قبائل الأطلس.

كم طالت المدة؟

يقول أحمد بن عبد الله إن انفراده دام ثمانية أسابيع، لو قص ما مر عليه لحكى عجبًا، لكنه أضمر العزم على مواصلة الخطو، كان واثقًا أن ثمة نقطة ينتهى عندها انفراده الكونى هذا، لم يكن بوسعه الكف حتى

لو غلبه نصبه، التوقف يعنى الفناء المؤكد. قال الحضرموتى إن أخطر ما يمكن أن يواجهه المسافر بحراً أو براً هو التوقف، الكف، قال إن ركب سفينة كبيرة قاصداً بر الهند من بر عمان، كان غضًا فتيًا، وخلال الرحلة، واجه العاصفة لأول مرة، رأى الموج كالجبال حقيقة وليس تشبيهًا، وفى لحظة ارتفعت فيها مقدمة السفينة ثم هوت، انحنى مرجوفًا محاولاً الإمساك بالحافة، زعق بحار من فقراء الهنود:

ـ«لا تخف مادام المركب يسير..»

فيما بعد قال له إن الخشية كلها عند توقف السفينة عن الاندفاع إلى الأمام. لم ينس ما سمعه، كما ترسخ عنده أنه لكل عاصفة حداً تنتهى عنده، ولكل شدة لحظة زوال.

لن يغيب عنه أبداً وقت رؤيته النخيل فوق المرتفع، توقف فى المدى المترامى، محاطًا برمال ناعمة كالدقيق، لم يصدق فى البداية، فلكم رأى بحيرات عذبة مترقرقة فى ذروة الهجير، وطرقا ممهدة عند الأفق، وقوافل تمضى، وأسراب طيور، وقطعان غزلان، وظلال أناس لا يدرى مقصدهم تمامًا.

توقف..

لم يندفع، لم يجر، بل انتظر، مر عليه نهار كامل بتقلب ظلاله، وتغير درجات ضوئه، مما أتقنه أثناء عبوره المفازة أن لكل لحظة قوامها ومحتواها، لم يخبره الحضرموتى بذلك، لكن.. لولا تلقيه علم حركة الظلال عنه لهلك.

لم يهرع، بل نزلت عليه سكينة، استوقف ذاته حتى يمكنه تفسير ما

بزغ له، سعف، جذوع نخيل، شجيرات، ذاك طريق مؤد.

إنه فى مواجهة واحة..

قبل الغروب بساعة تقدم متمهلاً، متأنيًا، عنده استكانة، كأنه راجع إلى موضع خرج منه، توقف لحيظات قبل ارتقائه المرتفع الرابى، أخرج الإناء من المخلاة، رفعه إلى شفتيه، لكن.. ما من قطرة ماء أو لبن، مع أنه استمد منه ما مكنه عبور هجيره الوعر أدرك أنه قاب قوسين..

أم الصغير..

.. يقول إنه ارتقى بخطى متمهلة، راسخ الداخل مع أنه لم يعرف ما ينتظره أو ما سيلقاه، خاصة عندما رأى الواقفين بانتظاره، رجالا، نساء، أطفالا، هم كل سكان الواحة عدا اثنين لزما أماكنهما فى المرقب الرئيسى لمتابعة ما يجرى فى الفسطاط، هذا ما عرفه فيما بعد، كل البشر هنا مائة وأربعون لا يزيدون ولا ينقصون، تُعرف الواحة بين أهلها بأم الصغير، حتى ذلك الحين كانت مجهولة لسائر الأقطار القريبة والبعيدة، حتى عتاة الأدلة فى الصحراء لا يعرفون بوجودها، عندما دنا من نهاية المرتفع، حفت به رائحة النخيل، وبسوق الخضرة، هسيس السعف، رائحة التين البرى، لسنوات طويلة تالية ظلت رائحة التين من مثيرات كوامنه، أما النخيل فاكتسب عنده منزلة خاصة وهوى!

وقف الرجال فى ناحية، والنساء والأطفال فى ناحية، الجمعان متساويان، أوضاعهم متماثلة، قاماتهم مفرودة، رءوسهم منحنية إلى الأمام، كلهم سافرو الوجوه، فى البداية اتجه بالبصر إلى الرجال، وعندما حانت منه لفتة إلى النساء لقى منهن جرأة وتطلعًا، نظر متمهلاً، كلهن فارعات، مشرفات على الوجود من عل، لم يتوقف عند واحدة بالذات، لكن علقت بذهنه ملامح متناسقة، أهم ما فيها الوضوح الجلى، ثمة رعشة رفت، لن ينساها أبدًا، كأن ماء الحياة

اندفق عبره من حيث لا يدرى، انبعثت عنده همة غير منتظرة، توق وشوق ليس إلى امرأة بعينها، ولكن. . إلى جنس! توقف، لا يدرى ما سيقول، ما يجب التفوه به، نطق بالسلام فانحنوا، جاء صوتهم جماعيًا، ارتاح عندما سمعهم يردون عليه، ينطقون العربية بإيقاع سريع، واتكاء على مخارج الحروف ونهاياتها، فى البداية لاقى صعوبة، فيما بعد أمكنه المتابعة والإصغاء، فوجئ بتقدم امرأة أربعينية، على جبهتها وشم وعلى ذقنها آخر مثلث، تحمل وعاءً من فخار، عندما جلست القرفصاء أمامه تحددت معالم أردافها العريضة القوية، ضاق الثوب بها، ولولا ارتفاع ياقة الثوب لرأى منبت النهدين الخصبين، المشرعين، كانت قوية المعالم، فياضة التضاريس، أشارت إلى حذائه المصنوع من جلد الإبل، خلعه، وضع قدميه فى الماء الدافئ الحنون، وعندما لامست أصابعها جلده أوشك أن ينحل إلى عناصره الأولى، فى الوقت نفسه بدأ إدراكه لمدى تعبه، ألم يؤجل إرهاقه؟

تقدم رجل صوبه، أشار إلى المخلاة التى حوت كتابه والإناء، هز رأسه، لن يتخلى عنها أبدًا، ويبدو أن الرجل أدرك مدى تعلقه بحاجاته فلم يكرر المحاولة، ولكنه أومأ ثلاث إيماءات غامضة.

يقول أحمد بن عبد الله إنهم لم يستقبلوا ضيفًا منذ سبعة أجيال، لم يصل إليهم أى مخلوق من البر، عبر هذه المدة الطويلة، هذا ما تحفظه ذاكرة مؤرخهم العجوز، لكنهم يتوارثون تقاليد خاصة بهم، تنتقل من طور إلى طور، ومن ذاكرة إلى أخرى، حتى وإن استمرت العزلة قرونًا طويلة.

عند ظهور الضيف الغريب، وبعد التأكد من أنه لا ينوى الأذى، يخرج الجميع لمقابلته، لبث الطمأنينة عنده، لا يصل إليهم إلا ضال أو

رسـول قـادم من بلاد الصـين، لا يعـرف الواحـة إلا ملك هذه البـلاد، ولذلك سـبب سـيتـضح فـيمـا بعد، آخر رسـول وفد إليـهم من الصين جاءهم منذ ثلاثمائة ربيع، عاشوا بمفردهم تمامًا، نائين عن كل غريب، حتى ظهر الفسطاط جهة الشرق.

المهم أن يلقى الغريب كل عناية، خاصة إذا كان بمفرده، أول خطوة لبث الطمأنينة أن تقوم امرأة كريمة السلالة بغسل قدميه، إذا كان راجلاً، وتقديم الكلأ لراحلته إذا كان راكبًا، الماء أندر الموجودات هنا، والعين الوحيدة فى الواحة لا مثيل لها فى أنحاء المعمورة المعروفة حتى الآن، لمياهها قدرة على شفاء أمراض شتى، ولأن درجة حرارتها تتغير ثلاث مرات يوميًا، فهى فاترة فى الصباح، دافئة فى العصر ساخنة حتى الفجر، وهذا غريب!، توزيعه يتم وفقًا لطقوس وتراتيب صارمة، بعد أن أمضى عدة أيام عرف قيمة هذا الإناء الذى حملته المرأة وغسلت قدميه بما حواه من ماء.

أقول أنا جمال كاتب عموم بلاد المغرب، إننى عانيت مثل ذلك ولكن فى غير هذا المقام، إذ ألمت بى محنة أول فتوتى، دفعت بى إلى السجن السلطانى فى اليوم الأول لتقييدى وضعونى عند المدخل المؤدى إلى غرف الحبس المعتمة، رأيت رجلاً عجوزًا، نحيلاً، منحنى الظهر، رأيته فى طفولتى يجوب شوارع المدينة مناديًا على قماش مصرى الصنع كان يحمل لفائفه فوق كتفه اليمنى، لطالما شاهدته عندما صحبت أبى لزيارة مراقد الصالحين ملتمسًا شفائى وصلاح أمرى، كنت أعده من معالم طفولتى، كان معروفًا بدقته وحنكته فى جلب الأقمشة النادرة، من أخميم، من حلب، من أنطاكية. كيف.. لا أحد يدرى، صار من موردى الملابس إلى القصر، لكنه كف فجأة عن حمل اللفائف الطويلة،

المغطاة بعناية، صـار يظهر أمام المتـاجر مشـعثًا، هائش الشـعر، منكوش الثياب، اسـتقر أمره ناحـية الحد الغربى للمسـجد الكبير، يغـيب أحيانًا بالأسابيع، فلا ينتبه أحد، وربما سـأل أحدهم ولكن ما من إجابة لهذا لم أدهش عندما لاقـيته فى السـجن، تطلع إلىّ.. نادانى باسمى، تعـجبت، كيف بدا للقـوم تائهًا، شاردًا خـلال السنوات الأخيـرة؟، المهم أنه تقدم منى، تلفت حوله، أخرج من جيبه قطعـة خبز طرية، مقدار ربع رغيف، ألقى بها تجـاهى، قلبتـها بين أصابـعى، تشممـتها، دهشـت عندما بدت هلعة قـصوى على مـلاحه، أشـار كى أخفيها، ابتـعد مـجرجراً الـثقل الحديدى المربـوط إلى ساقه، جـميع المحـابيس يلزمون أماكـنهم عداه.. ينتقل فـى الساحة الصـغيرة المسـتطيلة أو عند المدخل، اسـتعدت فـزعه تساءلت مستنكراً: من أجل قطعة خبز؟

عندما خبرت الطعام خلال الأيام التـالية، خاصة الخبز القديم العطن الجاف، أدركت مـاذا تعنى تلك القطعة الطرية الطازجـة التى ألقاها عند دخولى، كان ذلك تحنانًا منه علىّ، وتطمنًا لـروحى ومؤازرة لعجزى فى لحظات ولوجى الأولى هذا العالم المقيد.

يقول أحمد بن عبد الله إنهم قدموا إليه المرق واللحم عند الغروب، هذا موعد الوجبة الرئيسة، مع ميل الشمس يتصاعد دخان الأفران، رائحة الخبيز، والشواء، وخصوبة ما، وتقارب سعف النخيل، لم يسألوه عن اسمه، ولا الجهة القادم منها، أو الغرض من ظهوره بينهم، تلك تقاليدهم القديمة فى الضيافة، ثلاثة أيام كاملة لم يزعجه أحدهم بسؤال، أبدوا العناية القصوى، نوعوا له الطعام وقدموا إليه أعشابا مغلية ذكية الرائحة، فى صباح اليوم الثالث يستدعيه كبير الواحة ليسأله:

ـ من أين، وإلى أين؟

خلال أيام الضيافة كان مضجعه تحت سقيفة مظللة بخوص النخيل، مفروشة بحشائش خضراء، على حدها الأيمن حجاب مثلث به كتابة ومواد تمنع اقتراب القوارض والزواحف الضارة

التقاليد توارثها القوم، قاموا على حفظها، لكنهم لم يطبقوها منذ سبعة أجيال، منذ نزول آخر غريب على الواحة، وكان يمتطي دابة غريبة وسطا بين الجمل والحصان، عدت من الأعاجيب التى وردت عليهم لم يكن ضالاً، أو فاقداً لطريقه، بل كان رسولاً يحمل رسالة من ملك بالمغرب إلى ملك بالمشرق، كان هادئًا، حزينًا، لكنه داعب الأولاد وأعطاهم حلوى غريبة، قطعا صغيرة صلبة تستحلب على مهل ملفوفة فى رقائق ذهبية ولكنها ليست من الذهب، علمهم لعبة لا تزال متوارثة حتى الآن، إذ خط مربعات متساوية فوق التراب، فى كل منها قطع صغيرة ملونة من الحجارة، من هنا عرف الأهالى لعبة السيجة، يتقنونها ويمضون أوقاتًا طويلة فى ممارستها، لم يفصح عن الطريقة التى وصل بها إلى أم الصغير، هل أتبع خطاً معينا؟ هل عرف بوجودها مقدمًا؟

على أى حال لم يبد أنه مفاجأ بوصوله إليها، تساءل البعض بعد مائتين وثلاثين سنة: هل كان طليعة مبكرة للفسطاط؟، غير أن العقلاء استبعدوا ذلك، لم يظهر الفسطاط إلا منذ سبعين سنة لم يحدث أن اقترب أحدهم من الواحة، لم يقع أى تماس أو حوار بين جنده والأهالى، كل ما يعرفونه توصلوا إليه بالرصد والملاحظة.

أقول إننى راجعت جميع السجلات المغربية، لم أقف على خروج

رســول من ديارنا إلى بلاد الشرق خـلال تلك الحقـبة، كـما لـم أعـرف حيـوانًا يشبه الموصـوف، حيرنى أمـره، رجعت إلى مؤلفـات الأقدمين، الجاحظ، الدميرى، لكن.. عبثًا حاولت التوصل إليه.

حدث أحمد بن عبد الله فقال إنه مَثُل صباح اليوم الثالث عند كبير الواحة، لـم يكن هرمًا، أو متـقـدمًا فى العـمر، دون الخـمسين، رائق الوجه، صافى التعابير، على رأسه طاقية خضراء إشارة إلى انحداره من نسل الرسول الكريم، عنده لفـافه من رق الغزال خط عليها سطورا تحوى نسبه. بعد أن سأله عن جهة البدء ومقصده. قال إنه يرجو البقاء مدة لا يدرى مقـدارها، ربما يرحل بعد ساعـة، أو يومين، أو سنة، لا يمكنه القطع.

لم يذكر شيئًا عن الهاتف، لم يصرح أو يلمح باتجاهه غربًا، قال إنه سـائح فى البرية، يتبع مـسـار الشـمس بغـرض الفـرجة على البلدان، ومعاينة أحوال العباد.

أصاخوا السمع وهم جمود.

مشكلة!

هذا وضع لم يعرفوه منذ أمد بعيد لم يتغير عدد السكان، لم يحدث فى أى وقت أن نقص العـدد أو زاد. مائة وأربعون، إذا مـات أحـدهم وُلد طفل على الفور، لا يتأخر وصـوله أكثر من أسبـوع. إذا حملت امرأة فهذا نذير برحيل أحدهم، لا يثير ذلك جزعًا، يُخفى كل منهم ما عنده، لا ترتبط الوفـاة عندهم بمرض أو طعن فى السـن، إنما قـد يرحل الصحيح المعافى وينجو العليل.

إذا مكث سيزاد عددهم واحدًا، لكنه غريب، إذن. . هل يتوقعون رحيل أحدهم؟ أو يحيد عن الناموس القديم، ماذا سيجرى؟ الأمر ليس

سهلاً، أول ما تعلموه فى صغرهم نقلاً عن الأجداد، ألا يردوا غريبًا عبر الصحراء، خاصة إذا كان أعزل، لا يضمر أذى، ساعيًا إلى العون.

بعدأخذ رأى ونقاش شارك فيه جميع البالغين وتابعه القُصّر صامتين، انتهوا إلى اعتباره ضيفًا عابرًا، ألم يؤكد أنه راحل مهما طالت المدة؟ سأله كبيرهم عما إذا كان يعرف أحكام الإسلام وشرائعه؟ أومأ مجيبًا، سأله عن علمه بجهة الكعبة؟ أكد إتقانه لعلم الميقات وتحديد الأوضاع والجهات فى الخلاء والمعمور.

أبدى استحسانًا ورضا، قال إنه سيعمل نهارًا بجوار الضريح المجاور للمسجد الوحيد المطل على عين الماء. سيلقن الكبار والصغار أحكام الصلاة، يقرأ عليهم ما تيسر من القرآن الكريم، لكن.. قبل أى شىء يجب أن يحدد القبلة، فالناس يجهلونها بالضبط، أما المحاذير المطلوب تجنبها فسيطلع على كل فى حينه.

قال إن القوم عرفوا الإسلام منذ أمد غير بعيد، أربعة عشر جيلاً، من قبل عبدوا دورتى الشمس والقمر، ظهورهما، اختفاءهما، يقولون، ما يهلكنا وما يشقينا وما يسعدنا إلا تلك الحركة، وما يترتب عليها من مرور وقت.

من حكاياتهم المتوارثة أن أحد عقلائهم شرع فى تدبير يبطئ به حركة الفلك تمهيداً لوقفها عند حد معين، وبالتالى تحقيق الأزلية لسائر الموجودات. أعد أحجبة مثلثة وأخرى مربعة، ودفن فى الرمال أوانى صغيرة ضمت أجزاء من أجسام حيوانات وخصلات شعر إناث لم يمسسهن ذكور، تلا تعاويذ وتمائم، ولم يكن هذا كله إلا مقدمة لعمل كبير لم يفصح عنه يؤدى إلى ما عزم عليه.

اتخذ مقرًا له عند الحافة الجنوبية، وقتئذ.. كان السهل خاليًا، لم يظهر أى أثر للفسطاط أو أى شىء آخر، أمضى أوقاتًا طويلة محدقًا إلى الكواكب، متلقيًا إشارات لا يدركها غيره، ناطقًا تعبيرات بلغات شتى. يؤكد القوم أنه أوشك، كان قاب قوسين أو أدنى، لكن وقع أمر ما، شىء لا يدرى كنهه أدى به إلى صمت دائم وتحديق إلى اللاجهة والكف عما بدأه، إلى هذا يُرجع الأهالى اضطراب الفصول عندهم وشذوذ الأوقات.

هنا تنقسم السنة إلى فصلين شتاء وصيف، ما من فترة محددة لكل منهما، أحيانًا يجىء الشتاء أثناء انتظارهم أيام الدفء والقيظ، أو.. يحل الصيف فى شهور البرد.

الليل ينزل بغتة، ربما تبدأ العتمة فى ذروة الضوء، عند الظهر تلمع النجوم، لا يعرفون الضحى والأصائل، أو الشفق، الحدود قاطعة ومتداخله أيضًا، إذ ربما يبدأ الغسق عقب الفجر مباشرة، أو يستمر النهار بضع دقائق، ما من ترتيب كونى يتبعونه فى أمور زراعتهم أو إعداد محاصيلهم لضبط مثل تلك الأمور، خاصة زمن الحمل اللازم لتوقع وصول المواليد، يختلف من امرأة إلى أخرى، فثمة من تنجب بعد تسعة شهور، وأخرى بعد أحد عشر، أوعشرة، لكن لم يحدث أن قلت المدة عن أربعة شهور وهذه مدة نادرة تعاقبت خلالها الفصول فى الشهر الواحد مرتين، وتمددت بعض الليالى حيث أيس القوم من طلوع النهار، وقصرت أيام أخرى، حتى إن الشروق والغروب كانا يتلاحقان، لا يفصلهما ما يكفى لشرب كوب ماء.

يعرف كل منهم بمدة حمله، فيقال: «هذا ابن سبعة» أو «ابن

خمسة» أو «ابن عشرين»، وتذكر الروايات المتناقلة أمًا بقى جنينها خمس سنوات، ونزل مكتمل الأسنان، وعُدّ من الخوارق الغريبة لأنه مشى على الفور وقبل ضريح الشيخ، وفى اليوم نفسه ماتت طفلة جميلة فى السابعة من عمرها، كانت خضراء العينين، ذهبية الشعر صامته دائمًا، أحاطها والداها برعاية ويقظة لأن قصاص الأثر تنبأ لها بعمر قصير، وسماها «ابنة الموت»، لم يتوقع إنسان أن تذهب بدلاً عن المولود الذى طال حمله، وجدها والداها نائمة، مسبلة الجفنين، كأنها نائمة، غير صفرة خفيفة تغشى حضورها، لم يكن بجسدها أى أثر لقرصة حشرة أو عضة حيوان، الغريب أن ابن خمسة بكاها طويلاً وكثيراً ما امتنع عن حليب الناقة معلنًا حزنه كأنه كان يعرف، وأكسبه هذا رهبة لزمته طويلاً.

يقول أحمد بن عبد الله، إن رسول ملك المغرب إلى ملك المشرق لم يتم رحلته، إنما أقام، هل طاب المقام له؟ أم أن رؤيا عرضت له؟ أو مكث بسبب امرأة، فالمقطوع به أنه ما من سبب يبدل المصير ويحيد بالنوايا مثل ظهور امرأة فى الأفق.

المهم.. أنه هداهم إلى الإسلام، علمهم الصلاة، وتلا عليهم صحفًا قرآنية، فبدأت هداية القوم، لم يفارق الواحة حتى دنو أجله، وانقضاء أمره، دفن قرب عين المياه، مساحة مشرفة، مرتفعة، بحيث يمكن للواقف عند أى زاوية من ضفاف العين رؤية الضريح، يعلوه بناء أسطوانى، صاعد إلى أعلى، لم يستطع أحدهم محاكاة القباب التى وصفها لهم وحكى عنها.

إنه الضريح الوحيد هنا، الكل يسعى إليه، المرأة عند زواجها

لا بد أن تأتى مع أقرب صاحباتها وتشرب أولاً ثم تستحم عند مدخل الضريح، ترتدى ملابسها وتدخل منفردة للتلو الشهادتين. كل ما يتقنهما الأهالى، بعضهم يحفظ الفاتحة، ولكن.. كل بصيغ مختلفة، سمع عن أمر غريب، اتجاه العذراوات منهن بعد البلوغ إلى الضريح، والبقاء بعض الوقت حتى يزيل الشيخ بكارتهن بنفسه فتقع البركة! ويؤكد الجميع أنه فى حالات معينة وظروف خاصة يجيب على من يناديه، أو يمد يده خارج التربة المرتفعة حوالى متر عن الأرض ليصافح المستجير به، أو القادم لأمر ما.

يؤكد أحمد بن عبد الله أنه رأى سحابة تظلل الضريح، وينزل منا ما يشبه خيوط الحرير، يصعد عليها شخص لم يتحقق من هويته، وفور اكتمال طلوعه ارتفعت الغمامة، ومضت بعيداً، هذا ما عاينه بنفسه.

بعد يوم واحد من انتهاء فترة الضيافة جاءه شيخ الجماعة، اختار له مكان إقامته، لا يقيم شخص واحد بمفرده، ليس بسبب أمور أخلاقية، فللرجال والنساء أحوال عجيبة، ولكنهم يعتبرون كل من ينفرد أو ينزوى بعيداً مريضًا يجب معالجته بوسائل شتى.

صحبه كبير الواحة إلى الحد الجنوبى، فى موضع يشرف على السهل، ويمكن رؤية الفسطاط منه، توقف أمام ثلاث نخلات تحت أوسطها كومة لم يتبين الملامح الآدمية فيها، إلا بعد حركة واهنة وصدور صوت لم يسمع مثله من قبل.

قصاص الأثر..

. . لم ولن يرى هَرِمًا مثله، ملامحه تبدلت عبر أزمنة شتى، عيناه أطلتا على أماكن قصيّة، حاجباه كثيفان، أسنانه مثلثة، دقيقة، متلاصقة، كأسنان الحنش، مثلها ينبت لمن تجاوز المائة، لكن أهالى الواحة يقولون إنها غريبة، لم يعرفوا مثلها حتى عند المعمرين.

يتكلم فتصدر عنه همهمات، لا يفسرها إلا عجوز من نسله، حفيدة لأحفاده.

عندما رآها قدر تجاوزها المائة بكثير، كم يبلغ عمر الشيخ إذن؟ هذا ما حار فى معرفته، يرددون محاربته تحت لواء الصحابى أبو لبابة الأنصارى عند زحفه غربًا، بل إنه عاش زمن الرسول الكريم سمع عنه مباشرة.

إليه سعى فى القرون التالية البخارى ومسلم وابن حنبل والدارقطنى وأبى زرعة، وأبو إسحق الجورجانى، والنسائى، وابن خزيمة والجامى، والعطار وغيرهم. بل إن أبا هريرة نفسه سأله واستوثق منه، أما البخارى فسافر من سمرقند على مرسية فى بلاد الأندلس حيث أقام مدة لا يعرفها أحد. جاء من أقصى المشرق إلى المغرب ليستفسر عن صحة حديثين منسوبين إلى الرسول، اختلف الرواة حول موضع لفظين فيهما، قدمهما البعض وأخرهما ثقاة.

حارب في بلاد ما وراء النهر، قاد جمعًا من الصوفية اندفعوا لقتال التتار، وهم ينشدون ذاكرين اسم الله، بينهم الشيخ نجم الدين كُبرى الذى اشتهر أمره، وقتل فى هذه المعركة ودُفن فى الصحراء الآسيوية وقبره قائم حتى الآن يُزار .

يؤكد آخرون أنه كان آخر المنسحبين من غرناطة قبل تسليمها إلى ملك قشتالة، كاد يلقى حتفه فى مرج دابق شمال حلب، لكن لم يعرف موقعه، إلى جانب سليم العثمانى أو قنصوة الغورى؟

حتى زمن قريب كان يحدث عما شاهده ورآه عبر قرون عديدة، من عاصرهم وحاورهم وحضر مجالسهم، خلفاء وفقهاء وأرباب جاه ودراويش جوالة، وبناة عمائر ومزخرفو مساجد، بنايات، جال طويلاً قل استقراره فى الواحة .

كيف جاء؟

كيف استقر؟

هذا ما لم يطلع على سره أحد، ما لم يتكلم فيه مخلوق، إنه وافد من زمن قديم، أكبر المعمرين منهم ينقل عن جده لأمه قوله إنه عندما كان طفلاً رآه على الهيئة ذاتها التى يبدو عليها الآن .

المؤكد أنه وافد، ليس من أهالى الواحة الأصليين، لكنه منسوب إليهم لقدمه، معدود منهم لطول عهده، إذا لاح ميلاد طفل، يشمله التفكير كالآخرين، ولكن معظمهم يخشون رحيله الأبدى، عند زمن بعيد نشأ معتقد يقول إنه من حفظة الواحة، وجوده يضمن تدفق الماء من العين، ويدرأ عنها الأخطار المجهولة القادمة من الصحراء، كثبانا رملية كانت أو قطاع طرق، أو جيوشا مجهولة الهوية .

منذ ظهور الفسطاط تغير محل إقامته، هل بادر هو أم اقترح عليه الأهالى؟، لا أحد يدرى فالعهد بذلك بعيد، ولكنه راض، قابل، كأنه خلق من طين هذا الموضع النائى عن بيوت القوم، الواقع إلى جوار نخلتين صنوان، عند بداية المنحدر المؤدى إلى السهل، حيث الفسطاط، على مدى الرؤية من « المرقب » الذى يرصد الأهالى منه ما يجرى بالتناوب.

يقول أحمد بن عبد الله إنه مهد مكان إقامته على مقربة منهما، يمكن لكل منهم رؤية الآخر، فى البداية حار فيما يمكن أن يتحدث عنه معهما، لكنه سرعان ما أنس إلى الرجل القادم من عصور مجهولة، لا يعرف عنها شيئًا.

لم يكن يقبل مساعدة أثناء حركته البطيئة، المتعرجة، ينفر من أى يد تمتد نحوه، يمكنه الانتصاب على قدميه إذا استند إلى عصا من شجرة زيتون يخفيها فى متاعه. ولا يظهرها إلا فى أحوال معينة، وأيقن البعض أنها عصا موسى التى انقلبت حية تسعى، وصلت إليه بتدبير خفى.

لا يتحرك إلا بعد توافد جميع نجوم السماء، عندئذ يستدير راجعًا إلى مأواه، تحت النخلتين التوأم، لا يأكل إلا البلح، واحدة فى الصباح وأخرى عند الغروب، كل مدة غير معينة يرضع النخلة القبلية، وحيدة، مستقيمة الجذع، يمضى إليها ويلصق شفتيه بحراشيفها، يمدها بينما تحيط يداه بها، بعد لحظات يبدو كأنه جزء مكمل لها.

يقول من رأى الغرائب إنه شاهده يرضع النخلة، لا يُسمع له صوت، إذ يفرغ يبدو على شفتيه المبلولتين ما يشبه الحليب المخفف بالماء، هذا أغرب ما عاينه منه.

كثيراً ما تطلع إليه أثناء همودِه، خاصة عند الأصائل، لا يحرك عضواً من جسمه، يتطلع إلى جهة واحدة، يبتسم فجأة، أو يضحك، مهتزاً، حتى لتتبدل ملامحه، أو يطيل الإصغاء، يشير بأصابعه إلى طرف خفى لا يبدو.

فى الصباح يتفرغ تمامًا لغزل الصوف، يمسك طرفى المغزل بيديه، يلفه بسرعة محدقًا فى الخيط الدقيق المتين، بعضهم يجيئه بصوف الغنم المجزوز، آخرون يأتونه بأنواع شتى من البلح، منه الأصفر المستطيل، حلاوته كالعسل، وآخر صغير مستدير مريح المذاق، أصناف أخرى شتى، يأخذ ما يصله، لا يأكله، بل يسلمه إلى حفيدته، لم يطعم إلا ثمر هذه النخلة التى كان يستند إليها ويرضع رحيقها.

برغم ما تردد بين الجماعة حول محاربته تحت لواء الرسول، وخروجه غازيًا فى الجيش الذى فتح المغرب، لكن لم تحطه تلك الهالة التى لزمت المغربى الغائب، ولكن هناك جماعة فى الواحة تؤمن سراً أنهما شخص واحد، وأن العجوز، الضارب فى العمر ما هو إلا رسول ملك بلاد المغرب إلى ملك الشرق، وأن الضريح القائم على البحيرة خاو، مجرد رمز، وأن هذا جرى فى زمن بعينه لتدبير خفى يتعلق بسلامة الواحة واستقرار أمورها.

قال أحمد بن عبد الله إنه سعى إلى مقابلة أحد أفراد هذه الجماعة لكنه لم يتعرف إلى أى منهم، المؤكد أنه جلس إلى بعضهم، إن لم يكن معظمهم، عدد الأهالى محدود، لكن الجماعة أوتيت قدرة على إخفاء أمورها، معتقدهم ناشز عن الجمع.

النساء عامة يتبركن به، يسعين إليه، خاصة العاقرات، الآملات فى الإنجاب، أو يعانين من مشاكل مع رجالهن. الطريف أن حيوية تسرى

عنده فور اقترابهن منه، يستقيم أمره، ويحاورهن ضاحكًا متقربًا منهن، باذلاً جهده لتوضيح ملامح ألفاظه ومخارج حروفه، أما إذا كانت المرأة شابة، فواحة، فإنه يزداد اقترابًا، يمد يده أو أصابعه ملامسًا جسدها فى مواضع مختلفة بينما ترقبه حفيدته صامته.

ثمة يقين عند الكثيرين أنه قادر على الإنجاب إذا ضاجع امرأة، لكن.. ربما يعوقه الوهن، وما جرى منذ ستة أجيال منقرضة كما يذكر الرواة، إذ ظهرت غمامات طائرة، أسراب من حشرات صغيرة، دقيقة، لم يعهدها أحد، ما من سابقة مماثلة، احتاط القوم لأنفسهم بعد ظهور قروحات عديدة على أجسامهم.. يبدو أن حشرة تسللت تحت ثيابه، قرصته فى مقدمة أيره، قيل إنه تضخم مما سبب له ألمًا شديداً مدة خمسين سنة متصلة، اختفى الألم لكن بقى الحجم الهائل لهذا لا يُرى إلا منفرج الساقين، حتى عند قعاده، هذا ما يمنعه من مجامعة النساء، وهذا أيضًا ما أجج فضولهن تجاهه، وشبقهن أيضًا.

المؤكد.. أنه غريب، هذا ما يقطع به حافظ الأنساب الذى يتوارث مهمته أبًا عن جد، إذا سُئل عن نسب أحدهم يتلوه بسرعة كأنه يقرأ من صفحات لا يراها غيره.

من أنجب من؟ من تزوج بمن؟ متى مات هذا؟ متى مرض ذلك؟ لكن عندما تجيء سيرة العجوز لا يقول إلا: قصاص الأثر، ثم يبدأ ذكر ما يتردد حوله من أقاويل، أكثرها تواتراً أنه قديم جداً، أطول عمراً من أى تقدير، وعندما حارب فى بدر وأُحد لم يكن غضًا أو فى مقتبل العمر، إنما كان مكتملاً، قادراً، يبدو أنه شهد عام الفيل، ونام ليلتين فى قصر غمدان، كما رأى العمال يضعون أساس الخورنق.

يعرف بين القوم بقصاص الأثر.

هو الذى أنشأ هذا الفن، وسار الناس من بعده، لم يجددوا ولم يضيفوا إلى سننه وأساليبه، وله فى هذا الباب تفانين غريبة .

كان باستطاعته التعرف على آثار الأقدام فى الصخر أو الرمل، فى الأرض اليابسة أو اللينة بعد مرور ثلاثة شهور على حدوثها، حتى مع هبوب الرياح العاتية التى تنقل ذرات الرمل وكثبانها من موضع إلى آخر، كان قادرًا على رؤية آثار الحشرات والهوام والزواحف ومعرفة أنواعها واتجاهاتها، لكن اهتمامه بالبشر أكثر، يستخدم حواسه كافة، النظر، اللمس، الإصغاء، يتعرف إلى الجنس السابق مروره، هذا رجل، هذه امرأة، هذا أسمر، هذا أبيض، هذا قصير، هذه بدينة، هذا أعرج، هذه عذراء، هذا قادم من مسافة ثلاثة أيام، هذا من أربعة، هذا مسرع، هذا مبطئ، هذا صحيح، هذا متعب .

يعرف الحالة المزاجية من فرح وأسى، من بهجة وحزن، من خلال المسافة الفاصلة بين القدمين واتجاه أصابعهما وانفراجاتهما .

أمره عجيب، لكنه منذ قعوده وكفه عن التجول لم يعد يقص الأثر، كما أن الواحة لم تعرف حادثًا يقتضى الاستعانة به، غير أنه بحاسة سمعه كان ينذر بالعاصفة قبل وقوعها، ويحذر من رياح الهبوب قبل وصولها، ويحدد أشد الأيام حرارة، وليالى الصقيع غير المتوقعة، وأحيانًا تنطلق حفيدته فى أنحاء الواحة، تأمر الجميع بالكف فيلزمون الصمت .

ثمة ما يجب أن يصغى إليه فى الفسطاط، لا ينطق صغيرهم أو كبيرهم إلا بعد إشارة من الحفيدة، لكنه لا يخبرهم ولا يطلعهم، ربما تصدر عنه إشارات فيما بعد، يثق القوم من قدرته على العلم بما يجرى هناك، لكنه لا يكشف .

مسافات غامضة تنأى به عن القوم، عن كل ما يحيط به، ربما لخوفهم منه باعتباره نائيًا عن كل مألوف بعد عبوره تلك الأزمنة كلها، وصوله إلى ذلك الوقت مثخنًا بآثار خفية غيرت هيئته وملامحه، جعله هذا كله متفردًا عن سائر الخلق.

لحفيدته رواية تختلف عن سائر ما يقصه الآخرون، تؤكد أنه اختص بقص الأثر في جيش عقبة بن نافع، وعند حد معين في الصحراء ضل ثلاثة فتية من خيار الجند، أوغل مقتفيًا وجهتهم، لكن الغريب أنه لم يرجع بهم، ولم يعد هو أيضًا.

هل هبت عاصفة مباغته؟

هل ظهرت علامات لا يمكنه مخالفتها؟

ما من إجابة محددة، لم يفض بما يشفي الغليل، المهم.. أنه وصل على الموضع، لم يكن هناك شيء على الإطلاق، المرتفع فقط، أما الرمال فتمتد إلى الآفاق المدركة، من لونها، من تموجاتها، من علامات يعرفها هو أيقن بوجود الماء، بدأ الحفر بعد سماعه أصواتًا من وراء الغمام تقول:

ـ لا تخف نحن معك..

أنجز في ساعة واحدة حفر عمق لا يقدر مائة رجل على بلوغه في المدة نفسها، وهكذا تفجرت عذارى. أول نخلة زرعها من نواة بلحة حجازية تزود بها قوتًا للصحراء، تعهدها ورعاها حتى أينعت فرعين، أحدهما أنثى والآخر ذكر، إنها المجاورة لمأواه الآن. إليها ينتمي سائر نخيل الواحة.

كيف جاء القوم؟، من أتى بهم؟ لا أحد يعي وما من مرجع يذكر،

عددهم ثابت بتأثير طلسم خفى مدفون فى موضع ما، تؤكد الحفيدة أنه حفر القنوات ورتب الفروع بحيث تتدفق المياه الباردة فى فرع، والساخنة إلى قناة أخرى، كما حدد مواقيت البذر والحصاد عبر تقلب الطقس وتعاقب الفصول المفاجئ.

يبدى القوم احترامًا مشوبًا بخوف غامض ناحيته، صلاتهم به ليست فى مستوى ما يرددونه عنه، غير أن شعورهم تجاه ضريح المغربى فجلل، كل منهم لا بدأن يتوقف مرة يوميًا ويتلو الفاتحة التى لا يعرفون غيرها من القرآن الكريم ترحمًا عليه، ولكن الجماعة المؤمنة بأن ساكن الضريح وقاص الأثر شخص واحد، تؤكد أن تلاوة فاتحة الكتاب إنما مقصود به هو لا غيره!

يقول أحمد بن عبد الله إنه سأله عن أمور عديدة، لاحظ مرحه ورغبته فى المهارشة، كان يجيب عبر حفيدته.

أجيبك فى مقابل أى شئ؟

يقول:

ـ سألبى ما تأمر به . .

يضحك كاشفًا أسنانه الدقيقة، ولسانه الصغير، الأبيض تمامًا، تنطق ملامحه كافة بالسخرية، أخبره عن رجال قدامى سعوا فى الواحة، لم يقترب منه إلا الأطفال، يسمح لهم بالاقتراب، بمداعبته، يبدى صبراً جميلاً تجاههم، عامة . . يعتبر الأهالى وجوده علامة وضمانة، صار مثلاً، يقولون: أعطنى عمراً كقصاص الأثر وارمنى فى الصحراء بلا علامة!

حفيدته تقوم على خدمته. تدرك لفتاته، والمقادير التى يمكثها

بمفرده. تلبى ما يرغبه دون الإصغاء إلى نداء، لكنه إذا أبدى الجفوة أو النفاد، تميل عليه، تقول..

ـ «وحياة إسحق عندك..»

عندئذ يرق حاله، تلين جفونه، يلبى.

من إسحق؟

لا يدرى، لكنه ما إن يصغى إلى الاسم حتى يلين، هل يعيش إسحق فى مكان ما؟ أو أنه يمت إلى زمن بعيد؟ هل كان من سكان الواحة، أو يمت إلى مدينة أو محلة قصية، ما أفضت به حفيدته يسير جداً، كان إسحق متخصصًا فى العطور والأعشاب زكية الرائحة، جمع غريبها واستخلص جوهرها، يبدو أن بعضها أفاده، إن رائحته الطيبة التى يُدرك بها من مسيرة ساعة نتاج عطر غريب تطيب به منذ ثلاثمائة عام، ولم يفن عبيره بعد، أحيانًا يجهد حتى يرفع رأسه، يصيح مهمهمًا، مغمغمًا:

ـ إسحق.. أين أيام إسحق؟

لو سأله أحد عنه يكف على الفور، يلزم السكون مرة أخرى، لكن تغييراً لا يخفى كان يلحق صوته، وهيئته إذ يرد اسم إسحق هذا!!

يقول أحمد بن عبد الله إنه لزمه.. جلس إليه أوقاتًا طويلة، والغريب أنه لم يكن مفاجأ به، إنما تعامل معه وكأنه نما على مقربة منه منذ مولده، أتقن عاداته، بل إنه فك طلسمات همهماته، وحروفه المدغمة، لم يفارقه حتى ليلاً، حفيدته تغيب عنه أحيانًا، تمضى إلى دروب الواحة وممراتها، تساعد فى خبز الأرغفة، أو إعداد أقراص الوفود من روث البهائم، وتملأ أوعية الماء من عذارى لهذا البيت أو

ذاك، أو تساعد فى تخزين البلح للشتاء الذى قد يحل فجأة، ترجع إلى مأواها بخرج ربما يحوى كسر خبز، حذاء قديما من ليف النخل، بلحات جافة، قطعة قماش من الكتان، النبات الوحيد فى الواحة الصالح لاستخلاص الثياب منه، يزرع حول عذارى، تقعد وتصف أمامها بعناية ما رجعت به، ترتبه بعناية، أحيانًا يتطلع إليها بعينين مغمضتين. أيام عديدة تمضى، لا يطل عليه أحد، كان ماثلاً بوجوده المادى بينهم، لكنهم خارج الزمان، لا يطل عليه أحد، المألوف الإنسانى، حضوره قائم بذاته، فلا يقارن به أحد، ولا يقاس بعمره زمن أو ظاهرة نادرة الحدوث، أو ميلاد طفل أو موت عزيز. عمومًا لدى الجماعة يقين أن وجوده يقى الواحة ثلاثة أخطار.. أولها نضوب عذارى وجفافها، ثانيا، ضمان عمل طلسم خفى يحميها من سفى الرمال المتحركة، كم من مدن، ومضارب ثابته، وقوافل هلكت تحت هذه الكثبان التى لا تثبت على حال، ثالثا أنه يقى الواحة المخاطر الطارئة، وأهمها خلال العقود الأخيرة ذلك الفسطاط، طالما بقى بينهم فإن رجال الفسطاط يلزمون أماكنهم، لا يقدرون على اجتياح الواحة أو إلحاق الأذى بها، هكذا أنباهم عرّافهم، صحيح أنه ما من صلة ما من همزة وسط بين الواحة فوق المرتفع، والفسطاط فى السهل، لكن عبر ثلاثة أجيال من المواجهة، من الحذر، من الترقب، من الرصد المتبادل، تراكمت معلومات لدى كل جانب، لا يمكن إرجاعها على مصدر بعينه، أو لحظة محددة انجلت فيها الغوامض، ولأن أمر الفسطاط غريب، لم يسمع بمثله، فإنه يستدعى وقفة..

ذكر الفسـطاط..

.. يقول مدونه جمال بن عبد الله إن بلاد المغرب آخـر حد دار الإسلام جـهة الغـرب، يحدها المحـيط الأعظم، لذلك عـرفت الأربطة والزوايا، فالخطـر يجيء من أفق البحـر، عزم المجـاهدون، الصابرون، الغـيورون على دين أمـة محـمد أن يـنقطعوا بصـفة دائمـة عند الأمـاكن والثغـور المتوقـع وقوع المفاجـآت منها، جـاءوا من أقصى الشـرق، من بلخ، من سمرقند ومرو ونيسابور، والقاهرة، ورشيد وقوص وتعـز وحضرموت وساحل عمان وحلب، وقونية، والكوفة، وسائر الأمصار، انقطعوا تمامًا فى الأربطة المزودة بالعتاد والمؤن، فارقوا ملذات الدنيا الفـانية ومباهجها العابرة، نذروا أنفسهم لمواجهـة الخطر وصده، لا يغمض لهم جفن، ولا يهن لهم نبض مهما طالت سنوات الدعة.

أمـضيت قـدرًا من عـمـرى فى الرباط الكبـير، نظمت أمـوره ضـبطت أحواله، كنت الواسطة بين رجاله وسلطان البـلاد. عندما بدأ حديثه عن الفسطاط ظننته شبيهًا للرباط، لكنني أدركت خطئى، لهذا تفصيل أورده لأنى لم أسمع بمثله من قبل.

يقول أحمد بن عبد الله إن كل فرد تحاشى ذكر الفسطاط على الرغم من وقوعه فى دائرة البصر، مثوله داخل كل منهم أيضًا. لكن الاقتراب منه مكروه، الذين مضـوا تجاهه لم يرجعوا، ولـم يأت عـوضًا عنهم أى

مولود، حدث ذلك منذ جيلين، وما زال القوم يذكرون الشابين المغرر بهما اللذين استيقظا فى بداية نهار ومشيا مع صوبه غير مصغين إلى أى نداء أو رجاء، كلما سألوا قصاص الأثر عنهما أشار إلى الفسطاط، كبير الواحة يتدارس أمره فى مجلسه الذى يحضره سبعة من عقلاء القوم، يبحثون بصبر وعلى مهل كل التفاصيل التى أفضى بها الأربعة عشر المكلفون برصده، والتحقق مما يجرى فيه من خلال مرقبين، متقدمين، مموهين بسعف النخيل، عبرهما يتم النظر إلى التحركات والصفوف التى تتراص ثم تتفرق، أو الخيام التى تنصب وتُزال على مدى الأوقات المتعاقبة كافة، لا بد أن حصيلة متوارثة خصبة، تجمعت عندهم، لكن لم يتح له الوقوف عليها، التدوين لم يُعرف هنا، أبعد الأمور وأدقها محفوظ فى الذاكرة، تنتقل شفاهة من جيل إلى آخر، تمامًا كالأنساب والألقاب، والظواهر العجيبة، سماوية أو أرضية، فى البداية عندما أصغى فى الليل إلى صيحات حراس الليل انكمش مترقبًا وقوع أمر جلل ظنًا أنها إشارات هجوم، تأهب لوقوع المكاره، منذ خروجه من القاهرة لم يصغ إلى أصوات كهذه، فيها الحضور البشرى لكنها ممتزجة بأبعاد غريبة لم يعهدها، الفراغ غير المحدود، الأصداء المصحوبة بصلصلة معدنية، تصادف اتصال تلك الليلة بالليلة التالية لها. لم يطلع النهار الفاصل إلا لعشر ثوان، مجرد لمحة، ثقل عليه الأمر، واشتد به التوقع، وتكأكأت عليه غربته!

فى البداية ظنها أصواتا غير بشرية، آتية من الفضاءات البعيدة، أو الآفاق السحيقة التى يقصدها. تبدأ من قريب، قوية، نافرة، حادة، خاطفة، كأنها نابعة من داخله، ولكنها سرعان ما تستقل بوجودها فتأتيه من نواح يمكن تحديدها وهذا خلاف الهاتف، مع تمعنه وطول إصغائه اكتشف تلونها وتدرجها، بقدر ما تحويه من إنذار وتحد بقدر ما تشي بحذر، كأن مُطلقها يرمى إلى بث الخوف وهو متوجس، هياب.

يتردد مرة أخرى من مسافة أبعد، أمكنه الليلة الأولى إحصاء سبعة عشر تدرجًا، من وضوح إلى خفوت، مجرد ترددات واهنة، فى الليلة التالية رصد ثلاثة وثلاثين، آخرها إشارة باهتة، بعد التلاشى فى المدى ينبثق من جديد.

يطيل الإصغاء، يكتشف المزيد، كما يحدث عند التطلع، كلما أطال التحديق تكشف له ما لم يره، من طرقات هندسية متقاطعة، صفوف خيام أخرى، بل فى بعض الأحيان، عندما يترقرق الضوء وتنكسر حدته يمكنه رؤية بعض ما يخطر بباله فى الفسطاط، فإذا استدعى على وعيه قنوات مائية فإنه يراها مترقرقة، سيالة، إذا حن إلى أشجار طالعها يومًا وأصغى إلى وشيش أوراقها إذ تتخللها الرياح أو النسمات الهينة فإنها تنبثق للتو، تغرسها الخاطرة، مظللة الخيام المثلثة والمربعة والمستديرة.

عندما بدا الضوء الصباحى فجأة إثر ليلتين متصلتين تقريبًا، استفسر، استقصى وعنده شجن، ما أصغى إليه غامض، والأرض المحيطة نائية، هذا ما لم يتصوره يومًا أثناء إقامته القاهرية.

قالت الحفيدة إنهم حراس الفسطاط ينادون بعضهم ليلا، إما تأنيسًا لأنفهسم، أو لبث الرهبة، أيضًا. لإحصاء عددهم خشية اختفاء بعضهم وقد جرى ذلك..

فى الليالى المتعاقبة أطال السمع، كان ترديد الصيحات القصيرة، المركزة، الباترة، الحذرة، يعنى أن ثمة حياة على مقربة، دانية لكنها قصية، ثمة وجود ما، الصحراء ليست قفرًا. يبث الحذر عند الأهالى منذ زمن لا يمكن تعيينه.

بعد انقضاء وقت أدرك أن النداءات ليست عشوائية، إنما تنطلق بترتيب بين، أما تدرج الأصوات من العلو إلى الانخفاض فلوقوف الحراس متباعدين، متساوين، خطوط مستقيمة يتوزعون عليها تبدأ ناحية الواحة وتمتد إلى حيث لا يمكنه التحديد، طال إصغاؤه على النداءات، بل أصبح يتوقعها، ينتظرها، يفتقدها بعد أن كان يخشاها، تختلف الأصوات، فتية أحيانًا، مرات تبدو دانية من الهرم فى معظم الأحيان رجولية مكتملة.

نداءات متغيرة، فالأصوات هذه الليلة غيرها بالأمس، بل إن ما يسمعه أول العتمة مختلف عما يصله آخر الليل مع ثبات المصدر، يعنى هذا تبديل الأشخاص، لغة مدغومة، حروف لا تفصح عن نفسها، لأنه لم يستطع تفسيرها، لم يطلعه أحد على طبيعتها، بدأ يفسرها كما يشاء، يسمع منها ما يوده، ما يدركه، مرة يصغى..

« انتباه»

«الأول.. تمام»

«الثانى.. تمام»

الشطرة الأولى ثابتة، متشابه نطقها، الثانية ممدودة، متغيرة، منغمة، بعد عدة ليال أدرك صوتًا معدنيًا يتردد ثلاث أو أربع مرات ربما جرس، أو مطرقة تقع على درع نحاسى، مكان ثابت، لا يتغير ولا يتبدل، لا يدرى لماذا كان موقنًا من صدوره عن مكان دائرى؟

لا يفصح الضوء النهارى عن مصادر النداءات، دائمًا ثمة ضباب خفى المصدر، يموه وأحيانًا يحجب. النظر إلى الفسطاط ليس محظوراً على أهالى الواحة لكنه مكروه عند الكافة عدا المكلفين بالمراقبة،

عددهم لا يزيد ولا ينقص، تربطهم قرابة، لبصرهم حدة ولسمعهم رهافة، ينبئون بما يرونه بدقة إلى كبير الواحة، أو أحد عقلاء مجلسه، لكنهم متأهبون للصياح محذرون من أى تحرك مفاجئ تجاه الواحة، المتوارث عند القوم أن الفسطاط لن يبقى على حاله هكذا، فى لحظة معينة ستنزل البيارق، وتطوى الخيام، وتنتشر أعلام أخرى مطوية الآن، وتنتظم صفوف لا حصر لها، تتقدم صوب الواحة، بعد ذلك لن يبقى شيء على حاله.

لم يفصح قصاص الأثر له عما يمكن أن يشفى غليله، مع أن القوم يؤكدون قدرته على اقتفاء أصداء الأصوات وردها إلى أصولها، من أين صدورها؟، عمر أصحابها، أحوالهم عند الحديث أو الصراخ، بل يمكنه تحديد أمور تتعلق بصاحب النداء، جنوبى أو شمال هو؟ مولده فى صحراء أو حضر؟، كان قادراً على تعقب الأصوات والأصداء حتى بعد اختفائها، إلى جيلين اثنين فقط كان يخبر عما يراه، لكنه يلزم الصمت الآن مع ثقة الكافة بسلامة سمعه وإبصاره وشمه.

يقول أحمد بن عبد الله إن موضوع الفسطاط هذا من الأمور التى شغلته وأخذت من فكره مقداراً غير هين، فى لحظة سكون اختلط فيها النهار بالليل مال على قصاص الأثر ورجاه بحياة إسحق أن يخبره بما يعرفه عن موضوع الفسطاط.

رفت عيناه، اختلجت ملامحه، لم ينطق كلمة، لم يفه حرفًا، مع أنه شهد ظهوره. وتابع نموه وامتداده، وألم بتطوراته، يتبارك القوم بضريح المغربى، يثقون بوجود صلة بينهما.

كانوا فى شك من الأمر، ما المغربى وهذا العجوز الذى تجاوز الأزمنة إلا شخص واحد، لكن معظمهم لم يجهر بذلك خشية احتسابه من هذه الفرقة المارقة.

وصف الفسطاط..

.. يمتد الفسطاط حتى أقصى ما يمكن للبصر القوى أن يدركه، بالمواجهة ثمة ما يشبه السور، يحد الأرض، يقيم فاصلاً، لم يعرف من الذين أمضوا زمنًا فى الرصد والمراقبة من أى مادة يتكون تتخلله فتحتان، واحدة فى الشرق وأخرى فى الغرب، لكن لم ير إنسان خلالهما، إلى الوراء على مسافة تقدر حوالى ثلاثين خطوة تبدأ الخيام الهرمية، تليها المربعة، فى المنتصف خيمة كبيرة مثمنة الشكل من أسفل، ثم تكتمل فى شكل أقرب إلى الدائرى، حولها مجموعة أصغر حجمًا، تبدو أحيانًا سبعا وفى أيام أخرى ثمانيا، وهذا من الأمور المحيرة.

إلى الشرق تتراص صفوف متعاقبة يصعب حصرها، إلى الغرب وعلى المسافة نفسها تنتظم مجموعات أخرى، بالقرب من السور بناء مستطيل، شيد من مادة تختلف عن الخيام، لا تتماوج عند هبوب العواصف، أو الهواء الصحراوى العنيف، ، من يدخله يكون معصوب العينين، مقيد اليدين، مدفوعًا بحارسين، لأن مثل ذلك لم يعرف الواحة فلم يدرك أحد وظيفة المبنى إلا بعد اطلاعه. الحفيدة أخبرت النساء وشاع الأمر فتعجب القوم من ذلك!

دائمًا يقف اثنان حوله، يطوفان باستمرار، أحيانًا يقتربان من

جدرانه، ينحنيان، يبدو أنهما يقومان باختبارات ما، في أوقات معينة يصطف كثيرون، يقف ثلاثة فى مواجهتهم، يليهم اثنان، بعدهما يقف عظيم مهاب، ما يؤديه من حركات يقلدها الجميع، من رفع اليد اليمنى وملامسة الجبهة بأطراف أصابع اليد، أو ضرب القدم بشدة مرات متعاقبة بالأرض. يقول بعض الأهالى إن هذا ليس كبيرهم، إنه داخل الفسطاط الرئيسى، لا يفارقه، هناك من يحل محله، يماثله فى الهيئة والقوام، لكن تختلف الأزياء، بالطبع من العصب تبين ذلك على هذه المسافة، إنما يظل الأمر كله مجرد تخمينات وظنون تصل إلى حد اليقين ويطالها الشك. .

مما حيره أيضًا عدم وجود أى اتصال بين الفسطاط والواحة، لمس الحدود الفاصلة عندما اشترطوا عليه ألا يقترب جهته وألا يقصده أبدًا، وألا يتجاوز حد المقربين، فليتطلع كما يشاء، فى أى وقت، تمامًا كأى إنسان هنا، لكن إذا خطا خطوة واحدة أبعد مما هو مسموح به، فالواحة كلها فى حل من أمره.

لم يحدث قط أن بلغ أحدهم الفسطاط، ولم يقع فى أى وقت وصول أحد من هناك، ثمة إشارات غامضة إلى تجاوزات، لكن ما من تفصيل، يبدو ذلك مكروهًا، غير مستحب ذكره.

مواجهة غريبة، صعبة فى هذا القفر، مثل التقاء اثنين فى الصحراء بعد سفرهما زمنًا طويلاً كل بمفرده، حتى إذا بدا أحدهما للآخر مضى بدون كلمة، بدون تحية أو سلام. . معقول هذا؟

الكافة يؤكدون أن مكانه كان رمالاً ناعمة جدًا ممتدة يصعب السير عبرها. أما تلك الشجيرات المتناثرة هنا أو هناك بين الخيام فهم الذين أتوا بها وغرسوها.

كيف، بأى الوسائل؟

ما من إجابة وافية، شافية.

من أى نبع يستمدون حاجاتهم؟

المؤكد أنه ما من عيون عذبة على مسيرة شهور، بل إن بعض الأهالى لا يثقون بوجود عين أخرى فى العالم غير عذارى، كان ذلك الاعتقاد فيما مضى، تغير بعد ظهور الفسطاط، يؤكد كبير الواحة أنهم يحتفظون بحاجتهم من الماء والغذاء وسائر أصناف المئونة فى خيام خاصة لا تبدو للناظرين من هنا، عندهم إمداد متجدد يصلهم بوسائل شتى من الجهة التى قدموا منها، من أين ؟، لا أحد يدرى.

برغم الحد الفاصل، وتحريم الاتصال، فإن مؤثرات جرت وتراكمت لا يمكن تجاهلها، بعد وقوع الصدمة الأولى بدأ الترقب، هذا خطر مباغت لم يعدوا له العدة، لم يتوقعوه ولم يخطر لهم ببال، كل ما يعرفونه من سلاح لا يتعدى عصيا متخذة من جريد النخل لطرد أى وحش ضال ربما يظهر فجأة فى هذه الناحية من الصحراء، أو لقتل الحيات الصغيرة ذات القرنين التى تختفى تحت الرمال متكورة وتنطلق فجأة صوب فريستها لتشيع سمًا فتاكًا عبر لدغة خاطفة، لا نجاة منه إلا بربط العضو المصاب فوراً وعزله عن بقية الجسد حتى يضمر ويسقط منفصلاً. أو يبتر فوراً ومثل هذا صعب لعدم وجود قواطع حادة فى الواحة، عدا سكاكين حجرية عتيقة تذبح بها الجمال التى خارات قواها، والماعز التى يضحون بها قربانًا للمغربى ولعين الماء، وفى هاتين المناسبتين يأكلون اللحم، ولم تجرب قط فى الجسد الآدمى.

حتى لو توافر لديهم السلاح الصقيل، فماذا بوسعهم أن يفعلوا

وهم عدد ضئيل إزاء هذا الجيش الجرار، يمكن حشرهم فى عدد قليل من تلك الخيام المتراصة إلى نهاية المدى . .

لا تسجل الذاكرة الجماعية صراعات حادة، ولم تنشب معارك فيما بينهم، وأى مشكلة لم تستمر، بل حلت ولم تخلف أثراً، ثمة حساسيات غير منظورة، غير ماثلة فى الحياة اليومية، مثل التمايز بين القاطنين غرب عذارى والمقيمين شرقها، أهالى الغرب يقولون إنهم أنقى دمًا، وإنهم ينتمون مباشرة إلى قصاص الأثر الذى حارب تحت لواء النبى، فهم من نسله جميعًا، أما أهالى الشرق فدماؤهم ليست خالصة، ذلك أنه منذ زمن بعيد لا يمكن تحديده ظهر قادم من الجنوب، غامق البشرة، طويل القامة، نحيلها، بارز العظام، غليظ الشفتين، قال إنه من بلد مطل على الماء الأعظم الذى لا يحده حد، أرضه مغطاة بالأشجار، يتخللها نهر عظيم عذب المياه، خرج منه وحيداً، منفرداً لأمر لم يفصح عنه قاصداً الحج والوصول إلى مكة بعد أربع سنوات، لا يدرى كيف وصل إلى الواحة، لم يخبره أحد بوجودها، لم يتوقعها فى طريقه، لأسباب شتى لم يتم رحلته، استقر هنا، ارتبط بشابة جميلة عظيمة العجيزة يبدو أنها موافقة تمامًا له!

أحبها وعشقته، أنجب منها، وعند ميلاد أول أطفالهما مات شاب فجأة، فاعتبر الغريب من الأهالى، بدأت إقامته وتناسلت ذريته فى المكان الذى أقاما فيه شرق عذارى.

هل أدى ذلك إلى اعتبار الشرقيين أقل مرتبة؟

نعم . . بيوت الغربيين أفسح، النخيل أكثر عندهم، محصوله أكثف، بلحه أجود، لكن الأحوال عمومًا متقاربة، عدا أن سقوف بيوتهم من جذوع النخيل، وفى الشرق من الجريد، أما الزيجات بين

الضفتين فعادية غير محرمة. لكنها غير مستحبة، ربما يرجع ذلك إلى وضع المرأة المتميز، الغريب، هى من تختار وتقرر، تقوم بكل ما يؤديه الرجل، وفى الملمات والمشاكل لها الكلمة المسموعة والرأى النافذ. كلهن سافرات، جمالهن نادر، لا مثيل له، لم ير شبهًا لهن فى القاهرة أو البلاد التى مرّ بها وتقلب فى أرجائها. تعدادهن اثنتان وسبعون، لا يزدن ولا ينقصن، يسرى عليهن هذا الوضع الغريب، الثلث فى طور الطفولة، والثلث شابات، أما الباقيات فعجائز هرمات، أنهن المختصات بالولادة، وعلاج الأمراض، وصحن الأعشاب وخلط مقاديرها وتحديد جرعاتها، والصلح بين الأزواج، ومراعاة الصبية، والعجيب أنهم يحضن حتى التسعين وبعضهن ينجبن فى هذا السن، لكن لا تضع أى منهن أكثر من مرتين مدى عمرها كله.

الرجال يرهبن النساء ويقدسوهن، فمن الأرحام تخرج الحياة وفيها تتكون، وفور الولادة يبدأ الرحيل صوب الموت، لهذا يقبلون الفروج قبل الجماع.

يعود أحمد بن عبد الله إلى ذكر الفسطاط فيقول إنه مع انقضاء الأوقات أصبح جزءًا من حياتهم اليومية، أى تغيير فيه ينعكس بالخوف أو التوق أو الدهشة أو الهلع، كما حدث ذلك منذ جيلين عندما ارتفعت رايات صفراء فوق كل الخيام، ورفرف بيرق أحمر كبير فوق الخيمة الكبرى، ولم يتوقف قرع الطبل نهارا بأكمله، ظنوا أن هذه العلامات نذير بالأذى لأنهم لم يعهدوها فيما لاحظوه ورصدوه من عادات متغيرة أو ثابته، لكن توقف قرع الطبل، وبقيت الأعلام مدة ثم اختفت، خمن البعض بموت أو مولد عظيم عندهم، أو وقوع حدث جلل، أو فرح لكن لم يجزم أحد بشىء.

مواعيد الطعام معروفة هناك حتى إن الأهالى ضبطوا حركتهم عليها، خاصة العشاء الذى يبدأ فور اتضاح المجرة فى السماء، رتبوا أحوالهم بحيث يتناولون وجباتهم فى التوقيت نفسه، ومن قبل لم يعرفوا إلا الإفطار والعشاء، كأن انشغالهم بالطعام يعوقهم عن إبداء الأذى، وعدم وقوع الهجوم المباغت الذى يؤمن كل فرد هنا أنه واقع لا محالة يومًا، وأن مداه لا يمكن تقديره أو التكهن به، تمامًا مثل الأهداف الغامضة التى أتت بهم إلى هنا، والمرابطة فى مواجهة الواحة بدون التقدم ناحيتها. أصبحوا على علم بأيامهم، ومناسباتهم، قادرين على التمييز بينها، وصف فروقها بدقة، بل والمشاركة فيها بشكل غير مباشر، إذ يخرج الرجال والنساء والأطفال عدا قصاص الأثر، ويصطفون وراء المرقبين، وأحيانًا تستغرقهم الفرجة حتى ليبدوا وكأنهم هم المشاركون، بل إن الأطفال ينتظرون والكبار أيضًا، تعنى هذه المظاهر عندهم الاطلاع على الغريب، وكسر المألوف، وتغير الإيقاع الرتيب، فكأن التضاد يولد الاتحاد، وهذا عجيب!

أقول أنا جمال بن عبد الله إن ما أملاه عليَّ بخصوص ذلك لم يثر عجبى، يبدو أنه لم يمض مدة طويلة فى برج مشيد أو رباط حصين. لذلك لم يعرف جوهر المواجهة بين فريقين متحاربين، ضدين، حدث أن عرفت بلادنا خطر الحرب عندما حمل علينا ملك البحر الإفرنجى وتمكن من ثغور شمالية، ودامت المواجهة ثمانى سنوات لم يهدأ فيها التربص يومًا، واشتعل القتال دومًا، معارك كبرى حصدت فيها الأرواح حصدًا، ومناوشات فيها كر وفر، استهدف كل جانب الوقوف على دخائل الآخر، والإحاطة بما يتعلق به، عاداته، أمزجته، أسلوبه فى الدفاع والهجوم، أوقات الاعتكاف هنا وفترات الحميمية هناك، لغة الخطاب

المباشر. وأساليب المناظرة، كيفية صدور الأمر ومساره. كل طرف يهجع وفى الذهن شئون الآخر، يستدعى بالذاكرة ما جرى، ويتأمل بالمخيلة ما يمكن أن يقع، شيئًا فشيئًا، ومرة بعد أخرى أخذ كل جانب من الآخر، حتى قطع القوم الفاحصون بانتقال خصال من هنا إلى هناك، وعادات من هناك إلى هنا، فكأن المواقع يتم تبادلها بغير حركة.

يقول الثقاة، ما تخاصم قومان إلا وجرى امتزاج بينهما، وفى وقت معين ربما يستكين المغلوب للغالب حتى ليعجب بخصاله فيسعى إلى تقليدها والتمثل بها، ولذلك شواهد شتى يمكننى إيرادها وتفصيلها، ولكننى أخشى أن يفيض ذلك على ما كُلِفت به، تدوين مشاهدات أحمد بن عبد الله، وما جرى له من وقعائعَ غريبة لم يُسمع بمثلها، مع انتقاله من موضع إلى آخر. ومن بلد إلى بلد، ومن أفق إلى آخر، ومن زمن إلى زمن، مدفوعًا بما لا يمكن رده، مسوقًا بما لا يجدى الحوار معه أو التوسل إليه، أو بسط الشرح له، ذلك الهاتف الخفى، والذى غاب عنه حتى الآن، حتى ذلك الحد من إقامته فى واحة أم الصغير كما سماها، تلك التى لم نسمع بها، ولم ترد فى ذكر من رحلوا إلى الشرق وسلكوا دروب الحج والطرق المعروفة، الحق.. أن ما أفضى به مثير، خاصة عندما لمحت فى عينيه لمعة، واتقدت فى ملاحمه أصداء جذوة.. هذا ما يصاحب ظهور المرأة فى الحاصل المعتاد.

بدء زمنها..

يقول أحمد بن عبد الله إن الوقت توزع ما بين قصاص الأثر الذى بدأ يفضى إليه فى لحظات إشراق مباغتة بما أتقنه وبهر به القوم، وما أخذه عنه أتقنه، ولزمه، حتى صارت قدرته على قص الأثر متفردة، باهرة لمن يعاينها أو يقف عليها. شغل أيضًا بالفسطاط وما يجرى فيه. لكن.. عندما ظهرت اختلف الأمر وأعيدت صياغة كل ما رآه، وما سمعه، وما خبره، فكأنها مفهوم جديد.

ظهورها لم يكن مصادفة قط كما أطلع منها فيما بعد، لا يذكر أنه رأى ملامحها، ولا يعنى أنه التقى بها ولو مصادفة، فى الواحة أربع وعشرون شابة مقاربات لعمرها، وقفن كلهن يوم وصوله، كأنه يراها أول مرة، فهى إضافة وتجديد، متفردة كأنها لم تكن متوحدة فكأنها لم تجتمع بمخلوق، متميزة فلا شبيه، وما من حضور يقارب حضورها.

يمكنه تحديد الموضع، بالضبط.. قرب عين عذارى.

الوقت نهار متقد، إذ تعاقب نهاران طويلان لم يفصلهما إلا ليل قصير حتى إن الشمس أشرقت فى لحظة غروبها كما بدا للبعض. كان يقف قرب الماء الذى بدا صافيًا، شفافًا كالأفكار الناصعة، الجلية، تابع سمكة وحيدة تمامًا، زرقتها مغيرة لرمادية الماء، محفوفة بلون أصفر يبدو كهالة ضوئية، وجوده غير مادى، تسبح فى كبرياء عجيبة، حتى

إذا وصلت نقطة معينة يصعب تحديدها انثنت فى خيلاء أملودى، لماذا رجعت عند هذا الحد؟، لكن الأهم أنه لم يتوقع رؤية مثلها فى تلك العين الصحراوية، من أين؟ إلى أين؟، عندما اختفت شك فيما رآه، انحنى محدقًا حتى أوشك على السقوط فى الماء.

تلك اللحظة غمره وجودها قبل أن تدخل دائرة بصره، شمله طنين غير مسموع، غير مدرك، التفت.

أصل، ليست صورة..

مصدر، لم تكن ظلا قط..

هكذا تبدو له حتى الآن إذ يستعيدها.

فارهة، منبثقة، ماضية إلى علو، صعب إدراكها باستمرار، غير مؤطرة، فى ثباتها تمضى من شرق إلى غرب، ومن شمال الواحة إلى جنوبها، تسرى إلى كل صوب، تسعى إلى كل اتجاه فى اللحظة ذاتها، تلوح ولا تُدرك، تعبر دائمًا فهى غير مقيمة، هى هنا وهناك، غطت ما عداها بملامحها الدقيقة، المحددة، المراوغة، عيناها المطلتان على عالمين مغايرين، الأول خارجها حيث المحسوسات المنظورة، والآخر داخلها حيث المكونات الخفية، فهى مبصرة، مبصرة.

هى عرض ديمومى، مستمر، لا يكف ولا حد له، مشع دائمًا بالأنوثة الفياضة، بقدر انبثاقها يشرع صدرها، ينفلت إسارها، أما عيناها فلهما خاصية مغايرة.

تلك الفورة، المتدفقة، أتسعى فى هذا القفر المجهول؟

حقًا.. جل من سوى وأوجد.

استمراريتها سارية، قدرتها على التوصيل بغير لفظ ناصعة.

عند اقترابها منه نفذت إليه، تخللته، امتزجت به من سائر جهاته، رست فى أقصى أغواره، شملته رعدة، خاصة. . عندما تطلعت! ترتدى ثوبًا شفافًا، غامقًا، مسدلاً على كنوزها، ينبئ بإيجاز، يشير ولا يعين، فيما بعد عرف أن هذا النوع الذى لم يقف على مصدره لا ترتديه المرأة إلا فى حالة سعيها إلى لقاء رجل وقع عليه اختيارها. رأى أعمدتها، بهوها، ارتواء فخذيها الخصبتين، تمكن منهما بالنظر حتى رأى الانفراجة الضئيلة، الفاصلة الواصلة، لكل منهما مطلع ومُرتقى، ألم بانبساط بطنها ومركزها، وهن من نفور ثدييها وشروعهما، مضى مع عنقها صعداً.

تجاوزته، التفتت، اكتمل تأهبه للملاقاة مع أن إعياء أدركه وكأنه قطع شوطًا طويلاً فى ثباته. استدار ليتابعها، اطلع على تكوينها الخلفى فكاد يشهق، انبساط ظهرها، واستادرتهما المكتملتين، الصلبتين، المومئتين، الداعيتين.

عندما غابت كانت مستقرة عنده فى مكان مكين، فى المساء اقتربت منه حفيدة قصاص الأثر، ابتسمت مرحة، غامزة، تطلع إليها خائفًا يترقب، لكنه فوجئ بها وكأنها كانت بصحبتها. الحق أنه لولاها لما فهم أمورا عديدة، مثل ارتداء البنية ثوبها الشفاف المصرح بعالمها الحسى، ليست المرة الأولى التى رأته خلالها، ظهورها مختتم المراحل بعد أن وقع اختيارها واكتمل قرارها وأفضت به إلى ذويها، وفيما بعد علم أن مشكلة ثارت لأنه غريب، والغرباء رغم ندرتهم فى زمن الواحة المنقضى إلا أنهم أثاروا القلاقل بدخولهم العالم المحدود المستقر. ويبدو أن الأمر نوقش فى مجلس العقلاء وإزاء إصرارها اضطروا إلى القبول، خيار المرأة لا يُرد، لها أن تسعى، وأن تبدأ المحاولة فإذا تم الأمر، لا يحق لها الالتفات إلى رجل آخر إلا بعد وقوع الفرقة التامة.

البداية والنهاية مرتبطتان بعذارى، على ضفتيها يتم العرض فإذا طقت الشرارة واتقدت الجمرة،، يبدأ وقوف كل منهما على خبايا الآخر، هنا قرب الماء أصل كل حى ومنشأ الواحة.

عادة تمضى الأنثى بصحبة أغنامها فإذا رجع القطيع بمفرده إلى بيت الأهل يخرج الأب أو الأم أو الأخ أو كلهم معًا، يجلسون القرفصاء متطلعين جهة عذارى، هناك تجرى بداية الاتحاد تمهيدًا لقدوم مخلوق جديد، أيضًا. . لغياب أحد الساعين فى الواحة.

غير أن صاحبتنا سعت بمفردها، بلا قطيع، وهذا نادر، غريب، مخلوقاتها الأليفة والمتوحشة داخلها هى.

كيف علم الأهل بتمام الاقتران؟

الحقيقة أن الواحة أدركت فى اللحظة عينها، بل زعم البعض أن صرختها بلغت الفسطاط، وإلا . . فماذا تعنى هذه الطبول التى تردد صداها فى اللحظة عينها، وكأنها مشاركة غير مرئية.

صباح ذلك اليوم قطع الطريق مبكرًا، متمهلاً، خافقًا بالرجاءات، متطلعًا إلى ما سيكون، مزودًا بما أفضت إليه الحفيدة العجوز، شرحت له العادات والأصول، وعندما بدأت الحديث عن اللقاء الحسى تمهلت وفاضت فى صراحة تامة، رغم خجله ومحاولته مداراة نظراته فلم يفته ارتعاش صوتها، وكأن العجوز تجدد رغبتها إذ تتحدث عما سيجرى، أكدت أنه بعد شربه ثلاث جرعات من حليب النوق الطازج يسهل عليه قطف ما يشاء من ثمارها . .

غير أن ما جرى جاء مخالفًا لكل توقع سمعه، أو تصور جال بمخيلته.

أقول أنا جمال بن عبد الله إنه عند هذا الحد هام محدثى فيما لا يمكن رؤيته أو وقوع النظر عليه، بدا مستسلمًا لرعدات تسرى، فترجفه إذ يستعيد ما كان متمهلاً، مدققًا، وعندما لج لسانه وكف، كان أول نطقه..

«أعطنى قرطاسًا ودواة.. فهذا ما يجب أن أخطه بنفسى».

امتثلت، وفيما يلى ما خطه بيده، ورغم اهتزاز حروفه لإعياء بأصابعه ورجفة، إلا أننى لمحت آثار تمكن قديم من فن أمضيت عمرى فى إتقانه، وحفظ صنوفه وأشكاله.

تدوين الخصوصية..

أقول أنا أحمد بن عبد الله إن هذا أول عهدى بالمرأة، أول إيقاظ حسي، وسعيى تجاه أفقى الذى لم ألم به، ورغم إدراكى المبكر لعالم الأنثى ومنزلتها من الوجود، وتوقى إليها، وسعيى، ولكن ما عرفته منها قبل بزوغ الهاتف، وخروجى من ديارى، وبدء ترحالى، كان تعسًا، مخيبًا، ولا أريد أن أفصل حتى لا أحيد، ولكن أقول إن ما مررت به فى الواحة لم يكن البداية فحسب، ولكنه صار القياس والمرجع فى كل ما عرفته بعد ذلك، رغم التنوع وإحاطتى بما لم يخطر لى على بال، كما سأذكر كلا فى موضعه.

أما تلك فأمر آخر!

كأن برودة هذا الصباح لا تزال سارية، بل أكاد أرى حمرة الفجر المتلاشية، ترقرق مياه عذارى فى مطلع الضوء، ورائحة النخيل الراسخة، أما تطلعى إلى الجهة التى اعتادت المجيء منها فلهفتى المصاحبة له باقية وما عداها نفد، دائمًا كانت تجيء من المشرق، لكنها هذا الصباح جاءت من الغرب، لخطوها حفيف همسى، عبرت أمامى متجاوزة بثلاث خطوات، بدا تكوينها متصلاً، منفصلاً، ضاجًا، يحمل إلىّ رؤى عجيبة، كذا فراهتها، بسوقها، تطلعها إلى الكون من علٍ، انسدال شعرها، أسود فلفلى، ناعم، حريرى، يتجاوز مفرق

ردفيها المتضرمين بوقيد الرغبة وتأجج القدرة، لم ألق إلا وصفا اكتمل لحظتها وكان لا بد من نطقه وإلا تمكن منى العَتَه.

«مهرة سماوية»

كأنها أدركت ترديدى القصى، استدارت متمهلة، مؤطرة بالنعيم، بين يديها وعاء فخارى ممتلئ إلى الحافة بلبن لم يفقد حرارة الضرع الحلوم بعد، تناولته، رفعته متمهلاً كما أوصت الحفيدة.

نظراتها فى هذه اللحظات مصوبة، حاضة، محرضة، راغبة، قدمت إليها الإناء فارغًا، خطت فتبعتها، متأودة، متأملدة، كوامنها مستنفرة، خبيئتها مشهرة، تعرف مواقع خطوها، انتهت إلى دغل كثيف تحيطه نخلات متوسطة الطول وشجرتا تين عسلى، منه يمكن رؤية مياه عذارى.

لسنوات طوال استعدت طلعها الفائر. استحضرته عند خفوت الرغبة لحظة مضاجعة، إذا رغبت فى إنعاش روحى أتخيلها فأنشطر إلى جزأين متنافرين، مخيلة معها وجسد مغترب عنها.

لا أدرى كيف خطت نحوى، دفعتنى فى صدرى بقبضة يدها استدارت تواجهنى بنظرة جانبية حادة، يمتزج فيها التحدى بالدعوة وكأنها بادرة العراك وإشارة الالتحام.

الحق أننى فوجئت، دفعتنى مرة ثانية أشد وأقسى، بسرعة تخلصت من نصائح الحفيدة الهرمة، بدأت أستجيب من تلقاء ذاتى أتخلص مسرعًا من وجلى وحذرى، وعدم درايتى، قل أن تطالنى قبضتها للمرة الثالثة، أمسكت معصمها، لويت ذراعها، ثنيته بحيث اضطرت إلى الانحناء، إلى الدوران حول نفسها، أولتنى ظهرها منحنية ولقربها لامس ردفاها المقبيان جسمى فدبت القشعريرة وتأجج عمود النار،

تأوهت متألمة لشدة مسكى ولوضع ذراعها المتثنية، ومن هنا جاء اقتران آهة الألم بتأوه المتعة عندى، أحطت بها وتمكنت منها، انتفض نفارها لكننى حرصت ألا تفلت خاصة بعد خمشها صدرى، وغوص أظافرها فى جلدى الذى كان آسنا، راكداً حتى هذه اللحظة عند حد معين بدأ همودها، ولين حركتها، واجهته بعينين فسيحتين، راغبتين، متلهفتين، حتى الآن لا أعى كيف ولجت دفأها، ولكننى أذكر مفاجأتى بصرختها الداوية، أو شهقتها النابعة، رميت أحمالى فأمعنت!

توهجت الشمس، سرت الحرارة، بدأ دبيب الموجودات، ولم يقع انفصالنا، فض أقفالها ليس بالهين، كانت فوارة، ضاجة، كينونة من الرغبة، دارت بى حتى واجهت كل الاتجاهات، مرة رأسها باتجاه العين، صوب الفسطاط، مرة تواجهه، وأخرى تتنحى بنظراتها فلا تزداد إلا قربا، لحظة تنأى بنفسها حتى ليبدأ محاولة اللحاق بها، سرعان ما تعقبها لحظة اتحاد صارم. تام، حتى لا يدرك الفاصل الرقيق اللامرئى بين وجوده وكينونتها المادية.

كيف تغيب عنى لحظات بلوغها الأوج، تهيؤها لإطلاق زفراتها وشهقاتها الجمرية، عندها يكتمل اتصالها بالأرض وذرات التراب ورائحة النبات الغض، وعبير عذارى الغامض، ومثول ضريح المغربى الغامض، بقدر تأججها واتقادها بدا همودها ثقيلاً، حتى إننى جزعت فسعيت إلى تقبيل جيدها لأستثير رد فعلها، ألمت بحساسية موقعه عندها بعد تحريضها لى على مداعبته.

انفرجت جفونها، كيف أنسى صفاء نظرتها وارتواءها، تطلعت إلىّ ممتنة، راضية، مرضية، تفاهمنا بالصمت، منذ هذه اللحظة حقت لى وصرت لها..».

اكتمال الدائرة..

فرغ أحمد بن عبد الله من خط السطور التى مازلت أحتفظ بها، لم يفه حرفًا ولكنه لزم الصمت، نأى عنى فاحترمت انفراده بما كان منه، أطرقت، مرَّ حوالى الساعة، كدت أغفو، رحلت إلى الحد الفاصل بين اليقظة والوسن، انتبهت إلى تطلعه إلىّ، بدا مبتسمًا مستكينًا، راغبًا فى استمرار الحديث عنها وعنه، حدثنى فقال إنه انتقل من موقعه عند قصاص الأثر إليها، تعيش شرق العين فهى ممن يجرى فى عروقهم دماء الجنوبى، والدها خفيف المعشر، لطيف الحضور، تام المودة. يداوى العلل، يشذب الشعر، يسوى اللحى، يداوى الجروح، يغطى بعضها بذرات تراب منخول، أو نسيج عنكبوت، أو أنواع من أعشاب تنمو فى الواحة أو الصحراء القريبة، يعالج آلام الأسنان، وعدم القدرة على الانتصاب وارتخاء الأعصاب، يخط كلمات غامضة بمداد أحمر، يلصقها على الجباه تخفيفًا للصداع، أو على البطون ليوقف الإسهال أو ليفك عسراً، كان طويل القامة، منه أخذت بسوقها، كذا شقيقها المتخصص فى تقليم النخل وتلقيحه، أما والدتها فلا تذكر ملامحها إلا غائمة، ماتت شابة، رحلت فجأة بدون سابق علة وهى ترتب مخزون البلح.

يمتلك أبوها آلة موسيقية غريبة الشكل، صندوقا مستطيلا عتيقا،

عليه أوتار، داخله أوتار، يطرقها بعصاتين صغيرتين لكل منهما مقدمة مستديرة، ورثها أبًا عن جد، يقال إنها كانت مع المغربى، وأنه أوصى بها لمن لزمه وأدى أصول الخدمة، هكذا جاءت الآلة إلى الواحة، قادر على إصدار أنغام شجية، مطربة، عند العزف تتبدل ملامحه، تتغير، حتى ليحلو للبعض الفرجة على انفعالاته وطرق إبدائها.

يومًا بعد يوم أوغلت روح كل منهما عبر الآخر، حتى لينسب بعض لوازمه الآن إليها، مثل إيماءاته المختصرة عند الإصغاء، والتفاتاته المفاجئة. وهز رأسه المستمر عند الحديث، هذا كله مصدره هى، بالتأكيد.. أودعها ما لا يدرى، وما لم تتح له الفرصة لتبينه أو الوقوف عليه.

أول من أدرك حملها منه حفيدة قصاص الأثر التى لم تتوقف عن التردد عليهما، وإحضار ما تيسر من خبز أو لبن أو فطائر تعدها لهما، كانت توده وتحنو عليه وتجد فيه عوضًا عن أبنائها الذين رحلوا فى عمر واحد، عندما بلغ كل منهم أربعة عشر عامًا، خمسة مضوا بعدهم زوجها، منذ زمن طويل أصبحت أرملة يخشاها القوم، تفرغت تمامًا لرعاية جدها القديم، ما زال قادرًا على المجادلة الشفهية إذا رغب، الحنين إلى إسحق صاحبه الذى لم يعرف أحد الزمن الذى عاش فيه بالضبط. هى التى دفعته إلى تلقينه خبايا قص الأثر.

كان العيش طيبًا، والحياة تمضى ميسرة حتى وهنت نوبات حنينه إلى أيامه القاهرية، وإن لم يفارقه الأمل فى بلوغها يومًا بصحبة امرأته وطفله القادم، لم يقلقه منها إلا سرحاتها وإيماءاتها الغامضة المفاجئة، خاصة انشغالها بالفسطاط وتطلعها جهته لحظات انفرادها وقولها الموجز..

«إن ما يجرى هنا لمقلق . . »

هل كانت مطلعة على أمر ما؟

ربما .

هل ألمت بأشياء لم تفصح عنها؟ أم إنه شأن الأهالى كلهم لكنه لم يلحظه إلا مع اكتمال العشرة ودوام الصحبة؟ . لم يفته أنها صارت أهدأ بعد تأكد حملها ، وبدء تنفيذها إلى ما تشير به الحفيدة ، تجنب حمل الأثقال ، والتمدد فترات ، والأكل كفاية ، إن طعامها يخص الآن مخلوقًا آخر هى مسئولة عنه ، كما جرت العادة أفضى بنبأ حملها إلى مجلس العقلاء ، ذاع الأمر ، سر أبوها وجلس يتلقى الأمنيات من القوم ، عزف ليلة بأكملها سهر فيها حتى الأطفال الصغار ، ويبدو أن الأنغام استنفرت جند الفسطاط فسُمعت هذه الليلة نداءات طويلة ، وعند الفجر تردد قرع طبل .

بقدر سرور والدها ، وسعى النساء إليها لإبداء العناية ، إذ إنها يتيمة الأم ، خيم ظل غير مرئى ، قرب ميلاد طفل يعنى رحيل أحد أفراد الواحة ، رجل أو امرأة أو طفل ، هذا ناموس قديم أزلى ، لا يجىء واحد إلا ويرحل آخر ، إما قبله بأيام معدودات أو بعده ، هكذا احتفظت الواحدة بعدد لا يزيد أو ينقص . إن جواً متناقض المشاعر يسرى ، فيه سرور وحذر ، أمل وخشية ، يصبح المرضى أشد توجسًا وأكثر حيطة ، يزداد قلق من اعتادوا الاستسلام للوهم . لكن العقلاء يقطعون بحدوث النقصان فى الجانب الآمن ، كم من صحيح معتل همد فجأة ، كم من عاقل متزن شط به الحال على غير توقع .

وقوع حمل يصحبه حذر وخشية ، مع الأيام يتراوح القلق ما بين

الشدة والخفض، لكنه يتزايد مع اقتراب الوضع، تتأهب الواحة كلها، لا يدرى أحد أين سيقع النقصان بالضبط، إذ يتم الأمر تسرى راحة، يسود هدوء داخلى حتى عند أقارب الراحل، يعنى ذلك أن ثنائية الحياة والموت قد اكتملت وأن باب الاحتمالات أغلق.

يعتبرونه الآن واحداً منهم، يسرى عليه ما يعرفونه وينظمون أمورهم فى إطاره، ألم يقترن بإحدى نسائهم الأربع والعشرين؟ ألم يقم بينهم ويمارس كل ما يفعلونه، بدءاً من المرور أمام قصاص الأثر، بل زاد عليهم فى هذه النقطة جلوسه إليه وإصغاءه وتعلمه منه، ألا يزور المغربى ويقف عند الضريح. ويطل على عذارى فى أوقات معلومة، ويتطلع بخشية إلى جهة الفسطاط؟

يقول أحمد بن عبد الله إنه سئل كثيراً فى أطواره التى مر بها عن أحب مراحل رحلته، وأكثرها إثارة للحنين عنده، لا يتردد فى القول.. «أيامى فى الواحة..».

كانت تمضى هادئة، ميسرة، اعتاد امرأته واعتادته، لا ينام إلا متوسداً ذراعها، مستنشقًا عبيرها، حل داخله رسو، ونزل عندها، عرف كل منهما رحيق الآخر. وإن ظل اتحادهما قادراً على تجدد باهر حتى لتفاجئه بما لم يتوقعه من رد فعل، أو نظرة مغايرة، أو لفتة لم يعهدها، دائمًا توقع منها ما لم يعرفه، وما لم يسمع به.

عند الشهر السابع من حملها، اشتدت هموم القوم، وبدا إطراقهم، زادوا من التطلع إلى الفسطاط، لم يعد الوقوف فى المرقبين مقصورا على المكلفين، الكثيرون يمضون لمتابعة ما يجرى من طى خيام ونشر أخرى، وارتفاع بيارق لم يعهدوها، واصطفاف جند فى صفوف تتغير بتبدل خطوهم، ويبدأ قرع طبول أضخم حجمًا وآلات أخرى،

أصواتها تثير الانقباض والحيرة، حيرة تقول إمرأته إنها لم تحدث منذ اختفاء الفسطاط يومًا عن أهالى الواحة، كأنه لم يكن مع استمرار سماعهم النداءات، جرى ذلك منذ جيل كامل، وبلغ الخوف أن الرجال مضوا قبل النساء للاعتصام بضريح المغربى مع التوسل لقصاص الأثر.

لم يتبق إلا شهران على الوضع، لن ينسى أبدًا ما أحاطه من حذر وخوف متعدد المصادر، من الميلاد المرتقب، والاختفاء الموازى له، من أحوال الفسطاط المستجدة، من الصمت التام لقصاص الأثر، حتى إنه لم يعد يصغى إلى أى نداء، ولا يسفر عن أى انفعال حتى لو زعقوا باسم إسحق على مقربة من أذنيه. بدا ملمومًا، مضمومًا، أما ما أثار الخشية أكثر فبكم حفيدته وكفها عن التنقل وجمود نظراتها وتوقفها عن السعى مع أنها أقسمت دائمًا إنها ستتلقى المولود على يديها وتبسط له غطاء من أوراق التين فوق الأرض، فى هذه الليلة تمدد إلى جوارها بعد أن أصغى بيده إلى رفسات الجنين لجدار الرحم، أغفت، ولكم بدا وجها كمثرى التكوين طليًا، منذ وقت قصير كف قرع الطبول الفسطاطية، أصغى إلى أنفاسها الهادئة، لو أنهما فى القاهرة، لو أنهما فى مصر الآن، لمضيا معًا إلى أضرحة آل البيت والأولياء الصالحين.

شاء الله يا سيدنا، شاء الله ياست، يا إمام، يا سيدى زين العابدين، أغمض عينيه مستدعيًا أماكنهم، وعبير مداخلهم، وحلاوة الطواف بهم، كلا.. لم ينس.. لم تمح التفاصيل بعد، لكم تبدو مصر نائيه عنه، لو أنه بدأ الآن، فمتى يصلها، لو أن ابنه خرج إلى الدنيا هناك!، أى أمان، أى دثار؟

فى هذه اللحظة والليل ساج غميق، انتفض جالسًا فى البداية..

ـ قُمْ.. وارْحَلْ..

التصريح بالحلول...

.. حدث جمال بن عبد الله فقال: حرك حديث صاحبنا عن امرأته عندي رغبة، وأرسل في مسرى عروقي نشوة، فأقدمت على إخباره بمواقعتي لبنية عبرت ديارنا يومًا، ولم يعد مقامها بيننا. لكنها أودعتني ما طغى على ما عداها. حتى إنني لا أقدر على القيام بالفعل تجاه أي أنثى إلا بعد استحضارها بالمخيلة بعد أن صارت بمنأى.

رغبت في ذلك أيضًا لإطلاعه على بعض دقائقي، ونفيا لظنه عجزي بسبب قعادي، وملازمتي السكون بعد أن لحقني المرض الغريب، ويوما كنت مثله، أمشي وأركض، أركب وأترجل، لم يهن أمري إلا بعد تجاوزي الثلاثين، هنا وجب التنبيه إلى أنني أماثله عمرًا، خاصة بعد أن استفسرت منه واستوثقت، لم يقدر على تحديد ميلاده بدقة صائبة، نقل عن والديه أنه جاء إلى الدنيا قبل عام الزلزلة التي رجت القاهرة وقصفت عددا من مآذنها وقضى فيها عدد من المغاربة ورد إلى ديارنا خبرهم، وسجل ذلك الناصري في مؤلفه الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى.

هكذا حددت السنة، سنتي أيضًا، كنت موقنا أننا ولدنا في شهر واحد، ربما في أسبوع واحد، أو .. اليوم نفسه، هذا حدسي وتخميني، أما عن تعيين ميلادي فميسور، ما من مولود يفد إلا ويكتب اسمه في

سجل، ومثل ذلك متبع فى واحة أم الصغير. لكن شفاهة. حيث يقوم كبيرها بذكر الميلاد والموت، أى.. من رحل مع ميلاد من؟ يتتبع تطورات الأفراد وتغير أحوالهم من طور إلى طور، كذا تواريخ الاقتران والانفصال، لهذا كان من ألقابه «الحافظ».

أخبرنى محدثى أن مثل ذلك متبع فى القاهرة، عاصمة الدنيا وبستان الكون كما يصفها، لكن.. سادها وهن واضطراب وعمت قلاقل بسبب تولى أمور البلاد سلطان ضعيف، شاحب التجربة، واهن العزيمة، مال إلى مصاحبة الفساق، وتدخين الحشيشة فى القوارب النيلية، أولع بتربية الحمام، انشغل بأبراجه وأنواعه وأفراخه عن تدبير المملكة، وبلغ من هوسه أنه منع المؤذنين من رفع أصواتهم حتى لا يزعجوا الأسراب فى أثناء طيرانها. فى زمنه سرى الانحلال فى البر ودبت الفوضى فى البحر، أهمل الناس ما اعتادوه ودرجوا عليه، ومن ذلك تدوين المواليد والوفيات عند نواب المحتسب وشيوخ الحارات. قال إن بلاده قديمة الأركان، راسخة الأعمدة، بديعة الترتيب، لكنها تدور حول الفرد المتمكن وتستمد منه صيغ الوقت، فإذا كان قويا ذا إرادة وشكيمة، انتعشت الأحوال وراجت أمور الخلق، وهابها القاصى والدانى، أما إذا تولاها من ليس أهلا لها، فسرعان ما تشحب أيامها، ويختلط أمرها، وتهوى فى قرار سحيق، إذا صح الراعى سلم الوقت، وإذا خاب ماعت الفترة ودنا كل بلاء. هذا بعض مما أفضى به إلىّ ــ وهو كثير ــ خارج التدوين. وإنى مورد شذر منه كلما سنحت فرصة، ولكننى أبادر فأنثنى إلى ما بدأته، إفضائى وتصريحى بما جرى مع تلك البنية الهندية.

ذلك أن أحد ملوك الهند ــ وهم كثر ــ أرسل بعثة إلى ديارنا، لا نعرف حتى الآن الغرض الحقيقى منها، ثمة قائل إنهم جاءوا لتبادل

المنافع، وآخر يؤكد أنهم أضمروا معاينة المحيط بغرض الوصول إلى طرق لم تُسلك بعد، لهذا تعددت مرات خروجهم إلى شواطئه وتوقفهم عند نقاط عديدة، معاينتهم للصخور والمغارات، ومراقبة غياب الشمس فى الماء الأعظم، وتنوع درجات الشفق، وحتى الآن يتوجس عقلاء قومنا، ويخشون أن تسفر الأيام القادمة عن أمور لم يتوقعها أحد منا.

بعض الناس يؤرخون بقدومهم فيقولون، قبل مجيء الهنود أو فى أثناء إقامتهم أو.. بعد رحيلهم، يتحدثون عن هداياهم، عرضت لمدة ثلاثة شهور فى ساحة القصر السلطانى، عدا الفيلة التى تظهر فى ديارنا أول مرة وخصص لها مكان فسيح فى الحدائق السامية أربعة ضخام الحجم، لكل منها غطاء من حرير شاهانى، وعليها مظلات من خشب الصندل الفواح بعطر قوى، بين الهدايا صناديق عاج عليها تصاوير لمجالس أنس وطرب، وأشجار، وأنهار جارية وساعة مائية، وسروج مطهمة، وقوارير صغيرة بها عطور فواحة، وسبع جوار أبكار،مقيمات بيننا، ولهن ذرية من أبناء السلطان.

بعد وصولهم، كنت واحداً ممن كلفهم مولانا بملازمتهم، ونقل أحوالهم، ذلك أننى ملم باللسان الفارسى، واللسان الأوردى، وقادر على فهم السنسكريتى، نصحنى سيدنا بمداومة الحوار معهم لتمتين لغتى وإتقانها، وبالفعل أكثرت من الاستفسار عما يغمض عليّ، وتدوين ما لم ألم به.

بعد تسليم الهدية بما فيها من الجوارى الحسان، لم يتبق مع الجماعة إلا بنية هيفاء، نادرة التكوين، لا أستعيدها إلا ذكرت عصفوراً رهيفا دقيقا، تظهر أسرابه فى خريفنا وشتائنا، لا يتجاوز حجمه راحة اليد،

لكنه مجمع لألوان الطيف والمروج وزمن تفتح الأزهار فسبحان من سوى!

هى ابنة الشاعر والكاتب المكلف بتلاوة الرسائل وتدوين ما يراه، طالعت وجهها فقدرت زمنها الطفولى بثلاث عشرة أو بدايات الرابعة عشرة، لكنى عندما رأيت قوامها تجاوز تقديرى العشرين، ثوبها الهندى المحكم، يكشف البطن، وينسق الأرداف مع مطلع النهدين، عندما مشت فى السوق كادت تقوم فتنة فمثله غير مألوف عندنا.

لم أرها مرة واحدة، إنما كنت أكتشفها متمهلا، شيئا فشيئا خاصة بعد مفارقتها مدى بصرى، كنت أسترجعها بطيئا فأدرك ما لم أطلع عليه بالمواجهة، وأقف على ما لم ألحظه عند تبادل النظر.

مصاحبة لأبيها دائما، قريبة منه، عدا الأويقات التى يمضى خلالها لمقابلة كبير من أصحاب الأمر، أو شيخ جليل ذائع الصيت، لزمتها بعينى، وإذ أنثنى مبتعدا لا تفارقنى ملامحها، أقضى الليل مستعيدا حضورها، أنز بالرغبة الولهى، مبهوتا بما أثارته عندى مع أننى خبرت النساء وعرفتهن قبلها.

لكنها لاحت مغايرة لكل أنثى سعت أو ستجىء، قدومها من بعيد زادها تفردا، عندما خرجت من ديارها كانت فى الثانية عشرة، وصلت ديارنا بعد عام من السفر، نضجت فى الرحيل، فى أثناء الانتقال من بر إلى بر ومن بحر إلى بحر.

إذا حضرنا فى جمع، فى أثناء حفل، أو اجتماع، أو حول مأدبة، سددت البصر الشره باحثا، منبها، راغبا، عند حد معين انتبهت، وقعت الخصوصية، جاوبتنى، فى البدء دهشة، متسائلة، لم أحد ولم أنثن،

أزداد إمعانا، أملس بعينى على عنقها، أنحدر إلى جيدها، صدرها إلى أخمص بطنها، حتى إذا استويت مقيما بالبصر على فخذيها، على تكوينها الأمثل بدا منها تململ.

لسان من لهب يصلنى بها، مجرد مثولها يؤججنى، حتى خشيت أحيانا انكشاف أمرى، لم أدر.. هل توقى موجه إلى شخصها بالذات، أو أننى أتطلع عبرها إلى ما لا أقدر الوقوف عليه!

صباحا مبكراً لمحتها تمشى فى حديقة القصر، إلى جوار والدها، عند حد معين ستنفصل عنه، فى ساعة معينة سيتجه إلى مقابلة الوزير، لم يكن أمامها إلا البقاء فى الفناء المبلط بالحجر، تتوسطه نافورة قديمة من مرمر، ترسل الماء عبر الفراغ بارتفاع قامتى رجلين ليلا ونهاراً، وفى السكون يسمع صوت سقوط القطرات واصطدامها بعضها ببعض من بعيد. أبطأت خطوى، عندما أصبحت بمفردها تقدمت غير مبال بأى مراسم أو أعراف، متأهبا لبلوغ نهاية المدى.

فوجئت بنظراتها.

حذرة النظرات، جانبية التطلع، اختلاسة أنثوية، أسفار مستتر، تواطؤ متوهج، استقرت فوق مقعد حجرى محمول على أسدين من صوان أسود، يتطلعان بمآقيهما الفارغة صوب الحديقة الفسيحة الممتدة بأسفله، لا بدمن نزول درج مؤد إليها.

لم أمض إلى الداخل، أضمرت إبداء العذر فيما بعد، يمكنهم الاعتماد على المترجم القادم معهم، يعرف العربية جيدا، بدأ يتقن لهجة بلادنا.

عندما عبرت الساحة المكشوفة المرصعة بالفسيفساء الإفرنجى الملون،

كـانت تدير ظهـرها إلى الكـافـة، على الجـانبين اصطف حـراس طوال القامـة، من بلاد الزنج، قساة المظهـر، لا يعرفـون الحوار مع من يدنو من المقار الشريفة، حرابهم مشهرة، لا يلتفت كل منهم إلا بقدر.

لم أتطلع إليـها، إنما سددت البـصر تجاه الحـديقة، كثـيفة الأشـجار، تنبـثق من أرضهـا أشجـارنا المغربيـة، وأخرى إفـريقيـة، ونخيل الجـوز الصينى، والجميز المصـرى، والبلوط العثمانى، والأرز الشامى،والصنوبر الإفـرنجى، زهور نادرة بعضـهـا لا ينمو إلا فى بلاد الصـقـيع، تتخللهـا ممرات مغطاة بحشـائش قصيرة، ناعـمة، تتسع أحيانا وتضـيق فى معظم المسافات، فور التـوغل بضعة أمتار يختفى الإنسـان عن كل بصر مسدد فكأنها نسقت ونمت لتفى بغرضى وتتستر على مرامى.

حاذيتها مبتسما، مستنشـقا رائحتها القصوى التى نفذت عبرى لأول مرة، عطر أنوثة مخملى، مصدره الشعر؟ ربما. الزيوت العطرية؟ ممكن. ثناياها الخفية؟ يجوز.. غير أنها شملتنى.

أبديت الحنو، جـاوبتنى مـبتـسـمـة، انحنيت باسـاطا يدى صـوب الأشجار والزهور، لم أكن أشير لها بقدر ما كنت حريصا على صورتى وكيف تـبدو فى عينى أى بـصاص لئيم، مـبرزا عنايتى بصـبيـة صغـيرة أكبرها على الأقل بعشرين وربما أكثر، أما وضـعى كمترجم فخير مبرر، وأسمى جواز!

شبّت فبدت أسمق مما توقعت، هدأت ملامحى، واستكانت سماتها وأجهدت نفسى لأخـفى انفعالات تتوالى، ألم أخط الخطوة الأولى، لم يبق إلا اكتمال الانفراد، الخلوة.. وتندلع نيرانى.

عند حـد مـعين أيقنت خـروجنا عن دائرة المبـصرين لطـول خبـرتى

ومعـاينتى المكان، لم أشأ فـقدان لحظة، شـرعت فورا، أحطت خـصرها على الفور، لم تبد النفار، إنما دنت، مشت متمهلة، راضية بل اختصرت ما بينى وبينها بمبادرة منها.

استكانت..

أوينا إلى مكان مظلل، مطوى، توقفنا، تتطلع إلىّ بعينين فـسيحتين، بقدر مـا فيهمـا من خجل وخشيـة، تحويان جرأة ورغبـة طازجة، تلفت يمينى، شمالى، أمامى، خلفى، فوقى، استوثقت خلو السماء ذاتها.

تقدمت ..

دفعت بهـا حتى لامست جذع الشـجرة، تسارعت أنفـاسى، اتقدت مراجلى، ها هى دانيـة، أحطتها فـتدفق منها رخـصها ولدونتهـا ورحيق أمدنى بما لا يفنى واستمر حتى الآن، ضممتها وكأنى أريد تثبيتها داخلى إلى أبد أبيد، أمطرنى عبيرها فسعيت مباشرة إلى مصادره، لم أقبلها إنما كنت أستنشقها، أتنسمها، تدفع كينونتها تجاهى، كنت راغبا فى تسريب بهائهـا إلى أدق خلاياى، أضاء ملامـحها فرح، اكـتشاف قدر مـا تحويه الدنيا من مـتعة لا عـهد بها من قبل، أمـا شفتـاها فبللهمـا ندى البداية، هكذا يؤكدون عندنا، أول قبلة تحرك الأنثى، تفـرز ريقا عسليا لا يتكرر. بكارة الشـفتين تنمـحى على مـهل، حوطت بفـمى على فمـها، دفـعت لسانى كله ليجول فى حُقها الصغير المندى.

ربتت كتفى.

أفـقت، انتبـهت، تشيـر إلى ما حـولنا، دفـعتنى قليـلا، أدركت أننى مغمور بعطرها، حل بى ولـم يبهت بعد، هزت رأسها.

«لا.. ليس هنا»

هل تعرف المكان؟

تتقدمنى عبر ممراته وتلافيفه، كدت أسألها: هل جاءت من قبل؟ خشيت أن يفسد ذلك ما بيننا، استمرت باتجاه شجيرات متكاثقة، تجاوزت شجيرات القنب الهندى، والريحان الفارسى، افترشت مساحة مستوية من شقائق النعمان، نوع نادر، عجيب، لا ينمو إلا فى ممر جبلى هائل، يصعب عبوره، مؤد إلى موطنها، به بين جداول وشلالات هادرة، وصخور مغطاة بالحشائش، وبحيرات قرب القمم، واحتمالات انهيارات مفاجئة، حمى المضيق الهائل ديارها من هجمات الغزاة، اقتفت رائحة الزهور، تلك نبوءة عرافتها.

«لن تفض بكارتك إلا قرب مغيب الشمس، وعلى فراش من الشقائق».

هكذا.. واجهتنى سافرة، حسرت ثوبها عن منحنى كتفيها، المتساوين، لاكتمال عريهما عندى رعدة، أصخت السمع إلى فورة تفتحها، هدير التقلب والاكتمال، رفرفة القربى، شب عندى حريق، لم يحدث قبلها ولم يتكرر بعدها اندلاع رغبتى وتوقى إلى الاندماج كهذه اللحظات، بل صار كل ما تلاها كأنه ترديد لها، أو أصداء ساعية عبر أخريات للبحث عن الأصل المكين.

جرى توحدنا حتى صرت لا أدرى أطرافى من أطرافها، لا يبين جسمى من جسدها، عبيرها من عبيرى، امتزج ظلانا، استحال التفريق والتمييز. كانت مكتملة النسق، عطر أنوثتها يجب أريج الزهر، وفواح الأرض، وشذا النسيم، أحاول لملمتها خشية انفراطها، لشهقاتها،

وفرفرتها، وتقلبهـا فى الوقت. تقبل فتتوحد وفجأة تنثنى راكـضة فأقفو أثرها سعيا ولا أدرك حـتى لأجثو مقبلا حدود دنياها الحـسية، وبواباتها المؤدية، ساعيا إلى كافة مشتملاتها والإمساك بكافة مضمونها، إذ تلتفت صوبى، تكفى إشارتها لنشورى فأنثنى مقدما وكأننى للتو ابدأ.

احتسيتـها وتنسمـتنى، أدركت فيهـا البعد والقـرب، المشرق النائى والمغـرب الدانى، المسـافة القـصيـة والركن القـريب، البحـار الفـاصلة والجبال المعيقة.

« يا هندية.. يا هندية ».

كأنى أريد المجاوبة لتحقق التأكد من مـثولها بين ضفتى، هى القادمة من الأقاصى لتـزول بكارتها على وسادة من شقـائق النعمان، تمامـا كما قضت النبوءة.

مرات سبعا ضاجعتها، مرغت وجنتى على صدرها، أطلقت زفرات حرى غيـر عابئ بافتضـاح أمرى، سعيـا إلى التأكد، إلى الاستـيثاق من قـربها، من تداخلهـا بى، كنت أعى مـغادرتهـا، ذهابها، تأوهت عندمـا ضغطتها مـحاولا إلصاقها بالأرض، مستـميتا كى تدع أثراً لا يمحى، أو تخلف بذوراً لعلها تنبت مثلها، لعل وعسى!

حـاولت التزود منـها بكل مـا أستعين به على خـواء أيامى المقـبلة، ولكم استعذبتهـا، ولكم حاولت خلقها من عدم المخيـلة، خاصة بعد أن شطت وانثنت راجعة إلى موطنها، وبعد أن أدركتنى العلة، حتى لأطلب حملـى أحيانا إلى تلـك المساحة المغطـاة بالزهور الدقيـقة، ذات الألوان الحمراء الياقوتية، الشفقية، والصـفرة الشمسية، أخلو إلى نفسى، راجيا كل من يقدم إلى مساعدة أن يعيننى على الخلوة، التوحد، فور مغادرتهم

أسـدد حواسى كـافة إلى الكوكب لعلـى آت منها بقـبس، ورغم البعـد السحيق أكاد أشم رائحتها.. هكذا.. أصـبح ذلك الوقت القصير الممتد، عـلامة عـمرى، وصـارت هذه اللحيظات مـقصـدى وملجئى، أمـضى صوبها فى تعبى، مستجيراً بها إذ تهن همتى ويثقل أمرى، وأحيانا أصير توقا خالصًا فأتلظى رغم انقضاء المدة وبعد الشقة.

سألت مـيقـاتى مولانا عن جهـة الهند، أشار إلى نقطة قـرب مطلع الشمس، صارت وجهتى أخرج إلى الخلاء، قال إن الشمس تطلع هناك قبل ظهـورها فى أفقنا بعشـر ساعات، أضبـط لحظاتى على زمنها، أرى توهجها فى ليلنا الساجى، تشرق فى أفقى الخاص.

أقول لنفـسى، لا بد أنها تستيـقظ الآن فلا أهجع، إنما أبقى شاخـصا أترقب، أمضى بجـوارها خطوة إثر خطوة، أراها متثائبـة تتمطى، وسنى لا تزال، أرقبها ساعية، برغم كر الأعوام ألمحها فى صورتها التى عرفتها ودونت منها، مع إمـعانى أوشك على استنشـاق رائحتهـا، إذ أدرك عدم يقينى من بقـائها حية تسعى، من شـسوع المسافة، وعـجزى عن اللحاق أنوح معولاً كالنساء!

هذا مـجـمل أمرى مع الصـبـيـة الهندية، إنما رويتـه تخـفيـفـا على صاحبى، وترديدا لما قصه علىّ وتعزية لنفسى، فللمرة الأولى أشرك آخر من بنى جنسى، لم أفض قط بما جرى لمخلوق.

أصـغى أحمـد بن عـبد الله مـتوهجـا، مـستـزيدا، مـستـفسـرا عن التفاصيل، مدققا، مجـريا المقارنة بمرجعه الأنثوى، من أرغم على فراقها بغـتة، أجـرى حسـاباته وقاس الظل وارتفـاع المدى ليحـقق الجهـة التى

أتطلع إليها، استنفر معارفه التى تلقاها عن الحضرموتى، أكد الوجهة بما يختلف نصف درجة عما حدده ميقاتى ديارنا. أعدت النظر، أمعنت الفكر، وعندما طال صمتى خشيت الانشغال والتقصير، أبدى ترفقا، وتفهما، لكننى طلبت الاسترسال فبدأ، ولكم ظننت أن ما جرى له مع القافلة، وفى الواحة غريب، لكن ما قدر لى تدوينه فيما بعد أعجب!

الخروج من التدبير..

. . يقول أحمد بن عبد الله إن الأمر له من قبل ومن بعد، إليه تصير البدايات، ويرجع الأمر كله، له التدبير، فهو على كل شيء قدير.

لم يكن قادراً على البقاء، أو العصيان، إذا عزم فمن سيواجه؟ من سيتحدى؟ ضد من سوف يشهر المنازلة؟ إذا كان أمره لا يرى، ولا يمكن تحديده أو تعيينه أو إدراكه.

ليس أمامه إلا الامتثال، ما من مفر، هكذا خرج من الواحة إلى الخلاء قبل استيقاظ امرأته الحبلى، وانتباه القوم، لم يحمل إلا ثلاثة كتب وقربة صغيرة من الجلد وركوة، أما الكتاب الأول فخرج به من القاهرة، والثاني تسلمه من الحضرموتي، أقرب إلى الكراسة، خال من الكتابة، لكن الرجل نصحه بإمعان البصر فيه يوما فسيجد ما يطلع عليه. الثالث أخذه من قصاص الأثر بعد يوم اختفى فيه الفسطاط تماما ولم يعد ممكنا رؤيته بالبصر مع استمرار سماع النفير وقرع الطبول وصيحات الحراس، غلافه من الجلد، يلفه شريط أحمر، مكتوب بلسان غريب، قالت الحفيدة إنه سيدركه يوما، كل شيء بقدر وأوان.

ملأ القربة بماء عذارى، أما الركوة فخبر أمرها من قبل بعد أن أعطاها له صاحب القافلة، الشاب التنيسي، ابن عاشق الطير.

لم يدر المقصد، أو المسافة التى سيقطعها بمفرده، كل ما ألم به، ما صدر عن الهاتف، ما اطمئن إلى اتباعه، الامتثال له، أن يسعى حثيثا فى اتجاه واحد، إلى موضع مغيب الشمس.

هكذا.. عين جهة خروجه من الواحة، الفسطاط جهة المشرق، سلك المدق الترابى شبه الدائرى المؤدى إلى الصحراء من الجهة الأخرى، عند موضع معين يمكنه رؤية الفسطاط، والجانب الأيسر منه. يصطف الرجال فى هيئة لم يعهدها، فى المواجهة يقف رجال فرادى متباعدون، أغطية رءوسهم معدنية ذات بريق، لم يقدر على التأمل، أو التمعن فيما يجرى، يجب أن يبتعد قبل بزوغ الشمس فى الأفق، لا يعرف المحط الآتى.

لكم يبدو الفراق القسرى وعراً، صعبا، بل إنه سعى وعنده إدراك بظلم خفى حاق به، لم يرتو بعد، لم ير قدوم ابنه من المجهول، هل سيقابله يوما؟

وهل لحق بشىء مما فاته؟، ليس أمامه إلا السعى واستقبال ما هو مغاير لما عهده وخبره، وإذا قاده الطريق إلى الواحة، كيف سيرى امرأته؟ هل سيعرفه ابنه؟، هل سيقابله مصادفة يوما؟ هل يحن الفرع إلى الأصل؟، أم يستعصى ذلك، فالأبوة معايشة، والبنوة محصلة كر الأيام وتواليها، لو أنها صحبته، لكن.. كيف؟ الهاتف جلى، الأمر قاطع والقضاء نافذ. الرحيل دائما وبمفرده، لأنه أودع قدرا غير هين من روحه وأيامه فى الواحة، بذل جهدا وعناية بتثبيت كافة العلامات التى يمكن أن تعينه على العودة، موقعها بالنسبة لطلوع الشمس، حاول استعادة مواقع النجوم فى السماء، بالنسبة للنخيل، للبيوت، لضريح الشيخ المغربى، لمأوى قصاص الأثر، لعذارى، الفسطاط، للمرقبين

المتقدمين، استعاد لحظات عديدة وحاول تثبيت العلامات بعد استنفاد كافة ما لقنه الحضرموتي من دقائق علم الميقات وتعيين الجهات، على أمل وقوع اللقاء يوما بمن أنجب ومن أحب.

متى يمكن أن يقع هذا؟

وإذا جرى.. كيف سيلتقي بهما؟، هل ستفهم، هل ستغفر له اختفاءه المفاجيء؟، ذهابه سيظل حديث الواحة لسنوات قادمة، ربما أصبح حكاية تروى، يضاف إليها ما لا يخطر بباله الآن.

يتخيل ملامحها إذ تستيقظ فلا تلقاه. عندما تهرع باحثة عنه. شيئا فشيئا تكتشف خلو الواحة منه، ستلجأ إلى ضريح المغربي، إلى قصاص الأثر، ترتجى منهما العون رغم غيبتهما. هذا بالموت وذلك بالحياة.

كيف ستواجه الخلق؟ ماذا سيقولون عنها؟، بعضهم ستدركه راحة، فميلاد طفلها لن يصحبه نقصان أحدهم. ذهاب الأب مقابل ميلاد الابن، ربما تكون تلك المعادلة الأولى بالغياب، ما من مولود إلا سبقت أو أعقبته وفاة، هكذا يبقى العدد ثابتا.

سيتحدثون عنه، يستدعون صورته، يحاولون تفسير ما صدر عنه، كافة ما لفظه على مساعمعهم، ربما نسبه بعضهم إلى الفسطاط. يقلقه ما رآه عند خروجه. هذا الاصطفاف، هيئة التأهب. لو جرى مكروه ربما نسبوه إليه.

يقول إنه لم يدر كم قطع، لكن النهار لم يكتمل، عندما تطلع إلى الشمس بدت نائية جدا، أشد بعدا مما تبدو عليه فى الواحة، تبدو الرمال مستوية، ممتدة، ناعمة، لكنه مجهد، كأنه لم يكف عن ارتقاء

كئيب، لاحظ ذلك الوهن الذى بدأ يسرى عنده، مع بذل مجهود كان يقدم عليه من قبل بيسر.

كم استمر سيره؟

لا يمكنه القطع، مع أن الليل لم يقبل بعد فكأنه أمضى زمنا طويلا يسعى، هل طال النهار من أجله؟، هل توالت ليال لم يلحظها لقصرها الشديد، هل اتصلت النهارات ببعضها؟، بدا له الوقت غريبًا لم يعهده، لا يمكنه قياسه، يستعصى على كافة ما لقنه الحضرموتى من علم الميقات.

ليس بوسعه إلا الإمعان فى الابتعاد، لم يدركه بعد وهن يجبره على التوقف، لكن ثمة تغيرا محسوسا، مدركا، وإن صعب عليه تحديده، الضوء أوهن، والهواء أبرد، كان تواقا للوصول إلى حد، إلى علامة، إلى نقطة فارقة، مرتفع، شجيرة، نبات صحراوى، داخله تنمو قوة دافعة، لو توقف لتزايد الضور.

قال الحضرموتى إنه ركب سفينة يوما تنقل البضائع والمؤن من البصرة إلى الهند، اشتدت الرياح فى بحر العرب، علت الأمواج، خرج مع ثلاثة حديثى العهد باليم، عليهم ذعر، وعندهم خوف، لاقاهم الربان فوق السطح، تتطاير حوله قطرات الماء الناتجة عن غمر الموج، تطلع إليهما زاعقا:

«مادامت السفينة تمضى فلا تقلقوا. . الخطر كله إذا توقفت فى العاصفة».

قال الحضرموتى:

«لكن فى الصحراء يختلف الأمر، إذا بدأت العاصفة فلا بد من

التوقف، وإناخة الجمال، إنها تميل برءوسها من تلقاء أنفسها ملامسة الأرض. وعلى الإنسان أن يحتمي بها..».

لكنه بمفرده في البرية، بمن يحتمي؟، تبدو الصحراء أبدية بصمتها وامتدادها، وهنا يدرك الشبه القوى بالبحر، هذا السكون، ذلك المدى!

كأن كل ما حوله صيغ من الضوء، صفرة الرمال المائلة إلى حمرة، زرقة السماء الزجاجية، حتى آثار قدميه على الرمال؟ إلى متى ستدوم هل يمكن لأهالى الواحة اقتفاؤها؟، يعرف أنهم منذ ظهور الفسطاط كفوا عن الخروج، عن مفارقة الواحة. إذ يبدأ استعادة نخيلها وأشجارها يرى ما لم يره عند سعيه بينها، انحناء السعف والغصون في اتجاه عذارى، لم يكتشف ذلك إلا بعد ابتعاده، مع إدراكه أن واقعه اليومي الذي دام زمنا أصبح ماضيا الآن، لا يستحضره إلا بالمخيلة، لا بدأن امرأته يائسة الآن من ظهورها، محبطة، مثقلة، ربما تلزم ضفة عذارى اليمنى التي تفضل الجلوس عندها، أو ترجو قصاص الأثر، إنه الوحيد الذي يمكنه السعي في أثره، لكنه ملازم مكانه منذ قرون، هل سيتحرك اليوم؟

أصبح متأكدا من تغير الضوء، كأن ستارة شفافة هائلة أرخيت على الكون كله فباعدت ما بينه وبين الشمس.

يقول أحمد بن عبد الله إن النهار وصل إلى نقطة لا يمكنه تحديد الوقت بدقة، ظهرا أو عصرا، أصيلا أو ضحى؟ عندما رآهم!.

ما بين خروجه ورؤيتهم بضع سويعات بحساب الزمن المعهود، بما قطعة لكنه ما له يشعر وكأنه أمضى سنوات يمشي؟. في البداية خشي

وقوفهم. غرباء لا يعرفهم، ربما يقصدون الأذى، ربما بعض أهالى الواحة خرجوا لتعقبه وسلكوا دروبا يجهلها حتى تراصوا فى مواجهة، لكن هيئة الوقوف، أغطية الرءوس، أدرك أن عينيه تقعان عليهم لأول مرة، مع انعدام المعرفة تتعدد الاحتمالات. ينشأن الخوف وربما ينعدم أيضا!

لم يكن بوسعه الاختفاء، إذ وقع كل منهم فى نطاق الآخر، ثم.. كيف يخطر له أن يتوارى حتى لو أضمروا الأذى، هم أولا وأخيرا بشر، يمكنه أن يشرح لهم حاله، لكن ما ألقى فى قلبه الخشية ظهورهم المباغت فى البراح الفسيح، وقوفهم وكأنهم يتوقعون وصوله، كأنهم يرصدون خطوه منذ خروجه. يقول أحمد بن عبد الله، إنه مهما أوتى من فطنة، وقدرة على التخمين فلم يكن باستطاعته التنبؤ أو تخيل ما ينتظره!

المملكة..

إذن . .

كانوا ينتظرونه، ليس هو بالتحديد، لم يعلموا شيئا محدداً، مسبقا عنه، لكنهم توقعوه، كانوا يترقبونه ولا يتوقعونه! ، ليس شخصه تحديدا، إنما القادم من تلك الجهة، المشرق. بالرغم من انعدام طرق القوافل، ودروب السفر. ونقاط عبور محبى الرحيل واكتشاف الأقطار. هذا مما يطول الحديث فيه. وسيحاول توضيحه بقدر الإمكان.

كانوا سبعة. أعمارهم ما بين الأربعين والخمسين، تلوح مهابتهم، ورفعتهم، إلى اليمين سبعة آخرون أكبر سنًا، ما بين الستين والسبعين، يتوسطهم طويل القامة، كث اللحية، بيضاء تمامًا، يرتدى عباءة حمراء، حول خصره حبل من حرير أصفر مجدول، قميصه أخضر عليه نقش. سرواله أزرق. إلى اليسار سبع إناث. ثلاث هرمات، وأربع متفرقات، أوسطهن باهرة الطَلْع. برغم غرابة الظرف. وغموض الحال لم يغب عنه الإحاطة بقوامها اللدن، وثدييها المشرعين، الأشمين، أحدث هذا عنده يسراً ونشوة.

تطلع إليهم. ما يفصله عنهم حوالى عشر خطوات. توقف عند حد معين قدره، لا يدرى لماذا طافت بذهنه صورة السمكة الوحيدة السابحة

في مياه عذارى. لم يدر ما يجب فعله أو قوله، لكنه رأى في وقوفهم وتطلعهم إليه بهدوء ما طمأنه، بهدوء لفظ :

ـ السلام عليكم . .

تطلعوا جميعا إلى مرتدى العباءة، بعد لحظات رددوا خلفه، أجابوا التحية بأحسن منها. وبلسان واضح، لكن مخارج ألفاظه ثقيلة الوقع، غريبة النبر.

تقدم نحوه مرتدى العباءة، على يمينه ثلاثة، وإلى يساره مثلهم، مادًا يديه حاملاً وسادة من حرير أحمر عليها منديل أصفر، فوقه تاج ذهبى مرصع بفصوص من الزمرد الأخضر، والمرجان الأحمر، لم يدر متى تناوله الرجل. أو من قدم إليه الوسادة. شغل بما يجب عليه فعله. بدأ يتقدم بمفرده، توقف الستة، في اللحظة ذاتها تقدم أكبر المسنين السبعة. والفتاة البهية. تحمل عصا من خشب أسود، مقبضها من العاج الأبيض الناصع. فرد الشيخ عباءة صفراء، ركع أوسطهم على ركبتيه، استدعى إلى ذهنه أو وردت عليه طقوس تولية سلطان مصر، ومدبر أمورها. على مهل مد يديه متناولا التاج، قبله، وضعه فوق رأسه.

بدا الجمع مسرورًا، مستبشرًا. أحاطوا به بينما العجوز يساعده فى ارتداء العباءة. والفتاة راكعة بعد أن سلمته العصا.

فور إحكام رباط العباءة الذهبى حول عنقه. خروا جميعا راكعين، باغته ذلك، وأدركه خجل لتعب المسنين منهم، وارتعاش ركبتى أكبرهم لانثناء مفاصله، وارتعاش أطرافه، حتى أوشك على منعه لكنه كف عندما رأى الجميع فى وضع واحد، عند قدميه، لم يفته سجود البنية، لاحظ ثقل صدرها وامتلاءه عندما اندلق متفجرا وبدا فتيا مشرعا، أعجبه ذلك، انتبه إلى سكونهم. انتظارهم وقوع شىء ما. قال بصوت مرتفع :

ـ تفضلوا . .

كأنه يدعوهم إلى تناول طعام، أو دخول بيت، وقفوا منكسى الرءوس، عاقدين أيديهم أمام صدورهم. أمعن فى الدهشة. لم يدر كيف يواجه تصرفاتهم وأوضاعهم التى اتخذوها فى مواجهته. حار . . كيف يتصرف؟ كيف يبدو أمام هذه العيون كلها؟ كأنه تجرد فجأة من ملابسه. لم يعتد قط الوقوف موضع الآمر، مدرس، خطيب مسجد، أو قاض يفض المنازعات، فكيف والحال تبدل ما بين إغماضتى عين، فى الخلاء جاءه تاج الملك وصولجان الحكم على وسادة من حرير لم ير مثله. اجتهد لدفع اللحظة بمنأى عنه حتى يمكنه تأملها وتفحصها عندما يستعيدها فيما بعد إذ يخلو إلى نفسه.

لكن . . ماذا ينتظره؟

لا يعرف

الأرض غريبة. والمحيطون به من سكانها أغرب. كلهم ينتظرون منه إشارة. إيماءة، يجهل ما يجب أن يقدم عليه، أو يبديه، أى ألفاظ يجب التفوه بها؟

لكن . . لا بد أن يأتى بتصرف ما، لن يستمروا فى أماكنهم إلى الأبد، كلهم شاخصون، متطلعون إليه، إذا استشار أو استفسر . . ألن يتناقض هذا مع هيبته ومكانته التى لقى نفسه فجأة ملتحفا بها؟

لا . . لن يحيد.

سيستمر فى تلبية أمر الهاتف الخفى، تطلع إلى الشمس، ما لها تبدو أبعد مما كانت عليه فى سماء الواحة؟ يمكن لبصره أن يحدق صوبها مع أنها تتوسط السماء تقريبا، كذا لون الضوء والظلال والفراغ وطبيعة الخطو.

إلى جهة المغيب، ليس بحاجة إلى من يدله إليها.

على مهل رفع العصا تجاه مسار القرص المشع المتوحد، العابر دائما، أبدا، تراجعوا متأهبين. تقدم يحمل العصا فى يد والمخلاة التى لم تفارقه منذ خروجه عن القاهرة وفيها كتبه والركوة فى اليد الأخرى.

بعد تجاوزهم بأربع خطوات تبعوه. أولهم مرتدى العباءة الحمراء، يليه النساء مباشرة. يود لو نظر إلى الفتاة الأخاذة فى أثناء انحنائها، لكنه يرجئ ذلك، لا يليق أن يبدو منه تلهف، أو تصرف لا يعرف صداه عندهم.

لم يعد يترك أثرا لقدميه فقط على الرمال. العصا تخلف نقرة خفيفة قريبة، لو تبعه قصاص الأثر، هل يدرك ما مر به؟ فى تلك اللحظات فكر فيه. فى حاله عند وصوله إلى تلك البسيطة من الأرض. انطباعه عندما يرى اختلاط آثار قدميه بأقدام أخرى ثم تقدمه عليها. يثق أنه سيدرك ما جرى له. وأنه بعد إلمامه بما وقع. سيتخلل لحيته بأصابعه مبتسما، ويهز رأسه مرتين.

استعاد قوله. لكل أرض رائحة، ولكل مدينة عبير، ولون، ودرجات من الظل واختلاف وقع الشمس، كان باستطاعته أن يعرف دخيلة المرء من هيئة أثره حتى لو انقضى عليه آجال طويلة، لكم إشارت إصبعه إلى بقايا باهتة فوق الصخور أو على الرمال وقال هذا إنسان ألم به ضيق.

هذا مرء استخفه الفرح..

يتذكر آمر القافلة، قبل رحيل والده قال له: ستراني هناك، يعنى الدار الآخرة.

أجابه حزينا : قبل ذلك يا أبى .

قال : إذن . . نلتقى فى منامك ثالث ليلة تالية على رحيلى . .

لكنه لم يجئ، تأخر. لم يظهر إلا بعد ثلاثة شهور من سفره الأبدى .

سأله : لماذا غبت عنى؟

قال إنه كان يحاسب على طائر حط على نافذة البيت ظامئا ولم يقدم إليه الماء فور نزوله .

لا يدرى لماذا تذكر هذا بالذات . وهل ما تقدم له علاقة بما تأخر؟

لا يدرى متى قرأ أو سمع قائلا يقول : الهدف بعيد. والطريق مشكل، والموت كامن فى أول منازلة .

آخر قال : إن نفسى هى العدو، فكيف أمضى ورفيقى هو قاطع الطريق؟!

لا يمكنه الإلمام، مهما استنفر مهارة سنيه فلن يتوصل إلى حقيقة ما جرى ويجرى، كأن ما يحدث يمت إلى آخر لا يمت إليه، إنما هو متفرج، محايد .

فجأة . . ترفرف فوقه أربع يمامات . تطوف حوله ثلاث مرت، جفل، بوغت، من أطلقها؟ من علمها الدوران المتقن؟ . تطلع حذراً، الجمع مطرق . هل لاحظوا تراجعه المفاجئ إلى الخلف؟ . استمر تقدمه بخطى راسخة، قوية . عندما حانت منه التفاتة ولمح الإجهاد البادى على العجائز أشار مبديا الترفق، عندئذ سجدوا شاكرين، الحقيقة أنه تطلع متجاوزا لهم إلى النساء، إلى المليحة الخافضة وجهها حياء ورهبة .

يقول أحمد بن عبد الله إنه بقدر استجابته لما يتطلبه الوضع المباغت الذى لقيه، بقدر تعاظم حيرته وحاجته إلى الانفراد، حتى اللحظة لم يدرك أى نوع من الرئاسة لحقه؟

أمير هو أو ملك أو سلطان أو شيخ؟. إنه حاكم.. لكن لمن؟ من أى نوع؟ إن خوفا غامضا يحل به. لم يلم بعد بما جرى، ما أسبابه؟ بواعثه؟ ما المحرك الدافع لهذا كله؟. ربما لحق به أذى ما مجهول، لكن.. من أى نوع؟ إلى أى مدى؟. حدثه الحضرموتى عن قوم فى إحدى جزر البحر الشرقى الكبيرة يعظمون كبيرهم ويسجدون له عند ظهوره، لكنهم فى لحظة معينة ينقضون عليه. يقتلونه،. يتسابقون إلى شرب دمه تبركا والتماسًا للحكمة.

نوى الاستجابة وإضمار الحذر، غلب عليه التوجس حتى إن إطلاق الحمام أسرع بدقات قلبه. حرك روعه، استمر متقدما، متمهلاً، لا يمكنه تحديد الوقت الذى استغرقه حتى ظهور أسوار المدينة. تماما كالزمن الذى قطعه من الواحة حتى ظهور القوم بغتة، كأن الساعات مغايرة لما مرت به من قبل. كذا تقديره للمسافة.

أول ما رآه الأسوار، فى البداية لاحت كخط نحيل، وهم غير مؤكد، مع كل خطوة تبرز التفاصيل، الأبراج، النتوءات الحجرية، البوابات، البيارق المرفوعة، القباب المتباعدة.

تتكاثف الأشجار المرصوصة بفعل إنسانى، يبدأ ظهور البشر، رجال، نساء، أطفال، يصطفون جماعات، تفصل بينها مسافات متساوية، الرجال متوسطو القامة، عراض الأكتاف، ناهضو الصدور، متشابهو الملامح، أو هكذا بدوا له عند النظرة الأولى، فطس الأنوف، ليس بينهم من يدانى قامة مرتدى العباءة الحمراء الذى اتضح له فيما

بعد أن عينيه عميقتا الزرقة. كلهم يرتدون زيا متقاربا، تختلف الألوان من رجل إلى آخر، عباءة مشقوقة من الأمام، الأكمام طويلة تغطى الأيدى وينثنى ما تبقى منها متدليا، تحت كل منها سراويل تغطى الأحذية المدببة المقوسة إلى أعلى، أما النساء فيرتدين ما يشبه الجلابيب، يحيطها عند الخصر حزام عريض مذهب أو مفضض، على رءوسهن طواق صغيرة، مربعة، أما ملابس الأطفال فلا تختلف إلا فى المقاس.

بعض الرجال يحملون فوق صدورهم ما يشبه الحلى، منها المستدير، والمسدس، والمثمن. والمتدلى من أشرطة ذاهية، هؤلاء يتقدمون الآخرين، ومعظمهم كبار السن، منهم من يتكئ على عصا، لكن ما من واحدة تشبه تلك التى يقبض عليها.

فور اقترابه إلى حد معين ينحنى الجميع. يخفضون عيونهم ويميلون إلى الأمام، كأنهم انتظروا أمداً طويلا، فيما بعد عرف الوقت، لم يكن قليلا، تعم فرحة، فى الفضاءات بهجة.

تظهر صفوف من الجند، ملابسهم من جزأين، سترات علوية حمراء، سراويل صفراء، أحذيتهم جلدية مرتفعة، يشهرون حراباً نحيلة، وإلى أكتافهم شدت بنادق، بعضها مزدوج الفوهة. والآخر مفرد، يمسك المتقدمون بلطا قصيرة. حادة النصل، يقول أحمد بن عبد الله. الراجى حسن العاقبة، إن ما أحاطه بدا غريبا، عجيبا، بالقياس إلى ما مرّ به، يتزايد شعوره بوجود زمنين منفصلين. أحدهما يخصه يحاول إرجاع الأمور إليه. والآخر منفصل عنه، كأن أحدهم يحكى له عما يمر به، ويجرى له.

كيف لا يدرى أحد من أهالى الواحة بوجود هؤلاء القوم كاملى

الأبهة، وهم على مسافة نصف نهار أو أقل، لو أن امرأته وصلت الآن لولت فرارا، ولأدركها هلع، هو من تمدد حتى الفجر إلى جوارها فوق فراش خشن تحيطه هذه الأبهة، وتنحنى له الرءوس. ولا تجرؤ عين على النظر إليه مباشرة.

مرة أخرى ارتبك عندما فوجئ بغتة بقرع الطبول، وصدح الموسيقى النحاسية، وانطلاق قذائف المدافع الكبار المنصوبة فوق السور. بقاء الدخان معلقا فى الفراغ.

يصطف رجال على هاماتهم قلانس أطول، يمسك أحدهم بمقود جواد أبيض. لجامه جلدى أسود. مرصع بدوائر مستديرة من معدن لامع جداً لم يره من قبل. فيما بعد علم أنه لا يوجد إلا فى هذه الجهة وأنه وسط بين الذهب والفضة.

تقدم مرتدى العباءة الحمراء، تجاوز موضعه. أمسك مقود الجواد. تطلع إليه للحظة، أدرك أنه يثبت أمره بالنظر، فيما بعد قال له إنه أثبت ممن مروا بهذا الموقف. بدا راسخا، واثقا. كأنه تربى فى الرئاسة ورضع أصول الإمارة.

لأول مرة يركب جوادا لا يشبه ما عداه، إذ ينتمى إلى أب لم يروض. طليق. جرت العادة على خروج القوم بفرس عذراء لم تمس إلى موضع معين فى البرية، تعيش فيه قطعان جياد قديمة، وحشية، تترك لمدة ليلة، عند عودتها تحاط بعناية، حتى تلد مهرا نادرا لا مثيل له عند الملوك والسلاطين وأصحاب الأمر.

عندما امتطى ظهره استدار كأنه يعرف طريقه، بدا قويا، مزهوا، متينا، تقدم صوت الباب الرئيسى للمدينة. هكذا أصبح الرأس الأعظم كما يسمى القوم كبيرهم.

ماذا جرى؟

هنا أقول أنا مدونه، وحتى لا يبدو الأمر غامضا، مبهما، إن صاحبى صار رأسا لإقليم شاسع حدد لى أطرافه بدقة، وإن لم نسمع عنه فيما هو معروف لنا من المعمور، لم تكن المدينة التى دخلها إلا نقطة حدودية، يمتد الإقليم شمالا حتى شاطئ البحر ويتجاوزه إلى الجزر السبع المأهولة. وجنوبا حتى جبال النحاس. وغربًا إلى الغابات المتحجرة، التى مسخ سكانها من طير وإنس وحيوان وهوام أحجارا فى لحظة معينة، فترى كل شيء على حاله وكأنه ينتظر سريان الحياة. كيف ومتى جرى ذلك؟. هذا ما لا يعرفه إلا من يرجع إليه الأمر كله. وشرقًا إلى عمق الصحراء التى توغل فيها.

إقليم يحوى سبع مقاطعات، وسبعين مدينة، وسبعمائة محلة، وثمانى واحات. أصبح متصرفا فى شئون هذا كله،مدبرا لأموره، مسيرا لشئونه. يطيعه جند أشداء، ورجال لهم ترتيب، وقوم لهم هيبة، وأثرياء وعبيد، وقبائل، وجماعات لاجئة، وفروع شتى.

كيف حدث ذلك؟

هذا ما استبق الأمور التى رواها لكى تتضح الدقائق، ولا تغمض المواقف. أخبرنى أن أهالى هذا الإقليم اتبعوا سنة قديمة منذ زمن بعيد، انتقلت جيلا عبر جيل، لم يغيرها تبدل الأزمنة وتغير العصور. ذلك أنه لم يكن لديهم أسرة أو فئة تختص بالرئاسة. هنا قيمون على الطقوس العبادية، والعادات. والتعليم، وحراسة الثغور والدور. وضبط المعاملات، أما الرأس الأعلى فيختارونه بالمصادفة، بعد وفاة من يشغل هذا المقام أو اختفائه لسبب ما، يخرج القيم الأول ــ مرتدى العباءة

الحمراء ــ وصحبته ثلاث جماعات. جماعتان ذكور والثالثة من الإناث، يمثلون أصول الإقليم وجهاته، يقصدون جهة طلوع الشمس، ناحية الصحراء، وعند نقطة محددة. لا يمكن الإخلال بموضعها، يصطفون وقوفا منذ شروق الشمس وحتى اكتمال مغيبها فى انتظار أول قادم من دروب الصحراء غير المطروقة، فالجهة كلها لا يخرج إليها أحد منهم أبدا. عندئذ يتقدمون منه، ينصبونه رأسا، يطيعونه فى كل كبيرة وصغيرة. يلبون أى إشارة تصدر عنه، ويرفع ويخفض، ويأخذ ويعطى. تتفاوت مدة انتظارهم، منذ خمسة قرون انتظروا فى الخلاء تسعين سنة بالتمام، تبدل القيم ست مرات لرحيله بالوفاة. وصول قادم من تلك الجهة أمر نادر. ما من طرق للقوافل، أو البريد، ما من معمور قريب، أما الواحة فأمرها سيأتى شرحه، تصادف قدوم زنجى من أهالى السودان العميق، تولى أمرهم ثلاثين عاما كاملة، وتروى الحكايات تفاصيل شتى عن حلمه وعدله وفطنته، وفى الإقليم الثالث قوم غامقو البشرة. غلاظ الشفاة. يقال إنهم من نسله، ويبدو أنه خلف ذرية كثيرة. إذ كان شرهًا إلى النساء. راغبا فيهن، قادراً على مضاجعة سبع أو ثمان يوميًا، وهذا عجيب.

منذ ثلاثة قرون انتظرو أربعين سنة وكانت المفاجأة عندما رأوا القادم عبر الصحراء. امرأة شابة، نحيلة، طويلة الشعر، فسيحة العينين، لم يسألها أحد عن الجهة التى بدأت منها، ولا السبب الذى دفعها إلى قطع هذا الجانب المجهد، المقفر، تقاليد القوم وطقوسهم وآدابهم تمنع ذلك تمامًا، أسلموا زمامهم إليها. كانت من بعيد، من بلاد نائية جهة المشرق. من بلاد الأوزبك المتاخمة وقتئذ لإقليم فارس، هكذا صرحت من تلقاء نفسها، لكنها لم تفض لمخلوق قط بالدافع الذى جعلها تفارق ديارها.

أو السبب الذى جاء بها إلى اليبـاب، الغريب أنها كانت على دراية تامة بفنون الحرب والقتال. هى التى أضافت الخنادق العـميقة حول الأسوار كما أضافت الأبراج التى تتخلل جدرانها الفتـحات الضيقة، لكنها كما جاءت فجأة ذهبت على غيـر انتظار وفى ظروف غريبة، إذ تقول الرواية التى لا تزال متـداولة إن جيشًـا معاديًا هدد حـدود البلاد الغربيـة. وإنها خـرجت على رأس جـيش كثـيف، مـزود بأسلحـة شـتى من ابتكارها، بعضـها مازال مـوجودا حـتى الآن منها قاذفـات النفط المشتـعل. ومرايا الحريق، وقنابل الحيات الفتاكـة، وآلة بث الخوازيق المدببة المسمومة. إلى غير ذلك. تواجه الجـيشان فى وادى السباع. وعند حد مـعين قبل وقوع الاشتـباك تم اتـفاق ما عـلى ترتيب اجتـماع بينهـا وبين قائد العـدو فى خيمة منفردة نصبت فى المنطقـة الحرام.على أن يجرى بينهما حوار ومن يقنع الآخر عليه بالتسليم، قسم من أهالى الإقليم يقولون إن قائد العدو هيأ المكان ودس فى الخـيمة نوعـًا من البخور يوقظ البـاه ويضعف المرأة فى مواجهة الرجل، لهذا حدثت المواقعة أصوات رهزهما وغنجهما من قبل الجـيشين المتأهبين للقـتال والمتواجهـين، وبعد أن ساد همود خـرجا معا، وفى اتجاه واحد سعيا، إلى فسطاط القائد المنصوب بالمواجهة، وفى الصباح بدأ رحيل العدو غربا ولم يظهر قط.

طبعا هذا الـقسم من الأهالى يعتبـرها خائنة، اتبعت رغبـتها وتركت مكان رئاستها شاغرا، أما البقية فيعتبرونها مباركة، ذات منزلة خاصة، إذ أسرت قـائد العدو بفـتنتهـا وذكائهـا وآثرت أن تمضى بصحـبته عـندما استجاب لشرطها أن يتراجع بجيشه ولا يقترب أبدا من حدود الإقليم.

بعدها انتظروا ثلاث سنوات حتى ظهر رأس لا يتحدثون عنه كثيرا. الغريب أنهم دونوا سير الأقدمين. ولكن آخر ثلاثة لا ترد سـيرهم على

الإطلاق، وكأنهم لم يمثلوا، ولم يحكموا ولم يغيروا ويبدلوا، هكذا هم، لا يطلعون الرأس الجديد على السابق، لا يدلون بأى تفاصيل، لا يذمون ولا يمدحون، لا يصرحون ولا يومئون، لا يذكرون إلا الأقدمين، وبحساب، وبهذا الصدد لا يستجيبون لأى ترغيب أو ترهيب يصعب استنطاقهم أو اختراقهم، تلك أصول وضعوها مع لبن أمهاتهم، هذا ما خبره بنفسه فى أثناء محاولته التعرف على قبس من أخبار الرأس الذى حكم قبله مباشرة، ولكن.. عبثا!

يقول أحمد بن عبد الله. إن أقصى ما أطلعه عليه القيم، مدة انتظاره. الفترة السابقة على ظهوره أمامهم قادمًا من عمق الصحراء، قال إنها أقصر مرحلة زمنية قطعوها منتظرين منذ أمد سحيق. فقط . . سبعة وأربعون يومًا، حتى إنهم خصوه بما لم يحظ به رأس من قبل، ونسبوا إليه ما لم يتصوره أو يتوقعه يومًا.

ماذا يجرى إذا تأخر الرأس حقبا طويلة كما جرى فى الزمن القديم؟

أوضح القيم ذلك، قال إن الأمور تمضى كما هى. يشرف على تدبير شئون القوم مع مجلس يضم ممثلا لكل ناحية من الإقليم، لكن. . لا يستحدث جديد، لا يُمد جسر، ولا يرتفع بناء، ولا يشق طريق، وتجرى مراسم الميلاد والموت فى صمت، لا زغاريد فرح، ولا نواح حزين.

أكد القيم أن مجيئه بدون تأخير عد من علامات سعد الإقليم، استأذنه فى أن يكون بين ألقابه المائة والأربعين. ابن الشمس، قاهر الأفق، أمير البرارى.

أصغى دهشا. طوال الأيام الأولى لم يفارقه خوف غامض. كلما

دخل عليه القيم أوجس شرا، مع أنه لم يواجهه إلا منحنيا، ولم يجلس في صحبته إلا متطرفا، ويداه مبسوطتان على ركبتيه، أو معقودتان أمام صدره.

كل هذه الأسماء تطلق عليه هو؟

أعجبه لقب أمير البراري، طلب أن يُنادى به، وأن يتصدر المراسيم، والمكاتبات، هنا خفض القيم صوته، وقال إن حاكم الديار وربها لم يتغير لقبه منذ أمد بعيد، إنه الرأس.. وحتى يلبى رغبته يقترح أن يكون النعت المفضل «رأس البراري»

قال إنه لم يناقش القيم، لم يعترض على ما اقترحه، كان في حاجة إليه، ليفهم منه، ليأخذ عنه...

أصول الإمارة..

حدث أحمد بن عبد الله، سدد الخالق، البارئ، ما تبقى من خطاه، أن النقلة وعرة، شديدة، ليس بالنسبة لما كان عليه في الواحة، أو مصر التى أقلع منها، إنما بالنسبة لأى خيال شطح به يومًا، بُهر فى البداية بمقره الحدودى المقدس، أول مكان يمدد فيه جسده بعد ظهوره عبر الأفق، وبعد أيام ثلاثة فارقه فى ركب عظيم. جرار، متجها إلى عاصمة الإقليم، وصلها بعد أسبوع، كل ما تحويه مهيب، الطرقات عريضة. لا نهائية، الأشجار لم ير مثلها من قبل، جذورها عميقة، وجذوعها باسقة. أعمدة المبانى ضخمة. بوابة القصر الرئيسية هائلة الارتفاع، خشب مصفح بالنحاس المنقوش، والذهب والفضة، وقطع خزفية زرقاء، أما الأسقف فمكسوة بنوع نادر من الزجاج النقى الشفاف.

لكم سمع فى القاهرة ما يرويه العامة والخاصة عن القصر الأبلق، وقاعة الدهيشة، وقصر الحريم، فى قلعة الجبل، وقصر جزيرة الروضة وقصر عابدين، وقصر خانقاه سرياقوس، وقصر القبة. وقصور مدينة الإسكندرية المطلة على البحر، عن أماكن النزهة والفرجة، عن المناظر التابعة للأمراء، لأرباب الدولة.

عندما كان صبيا غضا، كانوا يجتمعون فى الحارة ويتخيلون السلطان، أو أمير الأمراء، يتحدثون عن قوته البدنية، وقدرته على غلبة

جمع بأكمله، وقدرته على الجماع أكثر من عشرين مرة فى الليلة الواحدة، وأكله خروفا محشواً بالدجاج، وشربه صباح كل يوم كوبا فيه خلاصة مائة خصية غنم. لكم تساءلوا: هل يقضى السلطان حاجته مثل بقية البشر؟

كان عالم ما وراء أسوار القصور مبهما، غامضا، ينتمى إلى الخيال أكثر من الواقع.

الآن تبدو له حوارى القاهرة، أزقة طفولته ودروب صباه، نائية، قصية، قال قصاص الأثر لكل مدينة رائحة وعبير، تمام كالمخلوقات الحية الساعية. يبهت أثر مدينته الأولى فى حواسه فيحزن ويأسو، لكن سرعان ما يأخذه ما يمر به. أو ما يحيط به عن البعيد المتخيل، فيرتد منثنيا، عندما بدأ رحيله تلبية لأمر الهاتف، هل تصور أنه سيلقى ما قابله حتى الآن؟. مهما أوتى من وهج المخيلة، والقدرة على التخيل لما خطر على باله عنصر واحد مما أحاط به وعرفه.

هكذا تطلع إلى فراغ المضجع الرئاسى، متمعنا، متأملا، مستقصيا، متوجسا، تواقا إلى الوسن، أغلق الباب الفسيح، يقف عليه جنديان متشابهان، فى الطول، فى الملامح، كأنهما تكونا فى رحم واحد، إنهما لا يتكلمان على الإطلاق إلا بأمر. لا يعنيهما ما يجرى حولهما حتى لو ظهر الرأس عاريا تماما كما ولدته أمه فلن يطرف لهما جفن، ولن يرف رمش، إنهما ينتقضان عند حالة معينة، اقتراب الخطر منه، يتأهبان لصده بشراسة لا مثيل لها، إنهما حراس المخدع، الأقرب إليه، يحفظون نومه، وزمن خلوته، يتم اختيارهم من ناحية قصوى فى الإقليم، أهلها شداد، غلاظ، من مفاخرهم اختيار أبنائهم حرسًا خاصًا للرأس الشريف.

المخدع فسيح، مفروش بأبسطة كالحرير. ولكنه عندما دقق وتفحص واستقصى فيما بعد اكتشف أنها من ريش نوع معين من طيور الشمال. أيضا الجدران مغطاة بنسيج من ريش نوع أخر يعرف بالأنيس. تبين له أن الملابس متخذه أيضا من زغب العصافير، وهذا أمر يطول شرحه سنأتى بما تيسر منه عندما يسمح المقام.

زخارف السقف توحى بالسماء فى ليال تتضح فيها النجوم وضباب مجرة درب التبانة، فى مضجعه عناصر الكون، حداثقية الأبسطة ولا نهائية الفضاءات العلا.

لم يتمدد فورا فوق الفراش الفسيح، المرتفع عن الأرض مقدارا غير قليل. جلس على حافته، يقين خفى عنده أن ثمة من يرقبه. لا يدرى من أى جهة بالضبط، حتى الآن لا يعرف أركانه، جاهل بمفرداته، بأسراره، بأصواته الخفية، بمداخله، بمخارجه، أما الرائحة الخفية فى الفراغ فبعثت عنده خدرا لينا، لطيفا.

حركة خفيفة، خافته، يتحرك جزء من الجدار، باب خفى لا يمكن رؤيته إلا بعد معرفة مكانه مسبقا. يد مغطاة بقفاز شفاف. قدم يمنى. تظهر الأولى تتبعها الأخرى. يقف منتبها. تتقدمان صوبه على أطراف أصابعهما.

زهرتان بشريتان، دقيقتان القوام، كأنهما صيغتا من عناصر حلمه زمن مراهقته. متشابهتان. إذا تطلع إلى الأولى ثم إلى الثانية فلا يمكنه تفرقتهما، تمام كحارسى المخدع ولكن شتان، بين خشونة الرجولة ورقة الأنوثة.

فواحتان بالحيوية، كانتا ترتديان ملابس لم ير أشف منها، كالطيف

يمتزج بلون بشرتهما، رأى إضمامة الصرة، حدود النهدين، هشاشة الخصر. استدارة الردفين، انضباطهما وانفلاتهما معًا. تردد.. لا يدرى ما يجب أن يقدم عليه؟. لم يوضح القيم بعد الأصول والعادات المرعية، كل ما طلبه وكرره ألا يصدر يوما أمرا بإزالة رسم طير من أى مكان فى الإقليم كله، على أبواب المدن. وأسوارها، ومداخل بيوتها، والبنايات الضخمة. والحدائق الفسيحة، رأى رسوما وأشكالا مختلفة، كثير منها لا يعرفه، تعجب عندما رأى لوحات لطيور ذات وجوه آدمية، وملامح إنسية، أومأ برأسه مستجيبا.

انحنى، بعد أن قبل الأرض، استفسر عما إذا كان هناك شىء ما يرغب فى ألا يسأله إنسان عنه أو ينازعه فيه، على الفور أشار إلى المخلاة، لم تفارقه قط طوال مدة ترأسه، دائما على مقربة منه، أعدت لها أمكنة مناسبة، فى سروج الجياد، فى المركبات، فى المقاعد الوثيرة، فى قاعات الاجتماعات، وحولها نسجت الأخيلة حكايات وأمثالا وأشعارا تفيض عن الحد، فى لحظة حيرته تذكر آمر القافلة التنيسى، إخوته، والده العالم، الملم بدنيا الطير، هل ثمة صلة بينه وبين هذا الإقليم، أين آمر القافلة الآن؟. فى أى موضع من طريق الحرير الآن؟، الحضرموتى... لكم يهفو إلى وجهه الطيب.

تقتربان منه، تطوفان به، فى حضورهما شىء ما، غامض، يذكره بحمام الظهيرة الذى يهدل فى الصمت فيلون فترة، ويميز حقبة، كل منهما تلثم طرفى كتفه، تبدآن فى حركات منسقة، محسوبة، فى خلع عباءته، برفق، بخفة، عندما فكت إحداهما قميصه جفل متراجعا، بتأثير أمرين، أولا، خجله، إذ لم يحدث من قبل أن ساعده أحد على خلع ملابسه، فى الواحة لم تلمس زوجته ثيابه، زمان.. فى طفولته

المندثرة، كانت أمه تضعه فى الإناء النحاسى المفلطح، تصب عليه الماء، تدعكه باللوف والصابون، تساعده على ارتداء ملابسه الداخلية. لكن جلبابه كان يرتديه بنفسه منذ أن كان غضا، طرى العود. رغم تعثره عند إدخال يده فى كم ثوبه. ثانيا، خجله من ملابسه القديمة التى لم يبدها منذ خروجه من الواحة، خاصة القميص الخشن الملاصق لجلده. حاول منعهما، لكنهما لم تكفا، لم يقدر على تجنب النظر إلى حضورهما المشع، أملودية قواميهما، عطرهما الفواح، استنفر هذا رغبته، رغم تعبه ومحاذيره العديدة، احتد أمره خاصة بعد تجريدهما له من ثيابه تماما، لاحظ تطلعهما الجانبى إليه، تماما كما ينظر الحمام شيئًا فشيئا استعرت نيرانه واتقدت حتى إنه لم يستطع صبرا، فأقدم!

فكر فى إخراج إحداهما والانفراد، مضاجعة أنثى على مرأى من أخرى أمر لم يعرفه ولم يخطر بباله، غير أنهما متلازمتان، فور تلقيهما الإشارة بدأتا إيتاء حركات منغمة، متوافقة، كأنها رقصات معروفة، خلالها كانت تتجردان من ملابسهما الرهيفة، لكنه لم يمهلهما، طرح الأقرب إليه، بينما راحت الثانية تداعبهما مستثيرة عنده أحاسيس جديدة، مصادر للمتعة كادت تذهب بصوابه، حتى إنه أوشك على إغماء اللذة.

بدا الأمر جديدا عليه، حتى المتعة ذاتها، والاستجابات، استعاد لحظاته مع امرأته فى الواحة، هذا عالم وذلك آخر، صحيح أن شعورا بالذنب يطارده، ينبض أحيانا بقسوة، لكن ما يمر به عجيب. غريب فى كل شىء. كون آخر.

أغفى، لا يدرى كيف ولج الوسن وكيف خرج منه. تاه عن الوقت، أى ساعة، ليل أو نهار؟

طرق خفيف لا يدرى مصدره . .

باب آخر يفتح ، فتاتان تبدوان من جنس مختلف ، عيونهما منحرفة ، كأنهما من بلاد الصين أو التتر ، رأى الملامح من قبل فى أسواق القاهرة قبل وبعد موسم الحج ، إذ تمر مختلفة الأجناس بالمدينة العظمى فى طريق رجوعهم أو ذهابهم .

تتقدم الأولى منه ، تحمل صينية ذهبية فوقها كأس بللورى يحوى شرابا يشبه اللبن ، لا يقدم إلى غيره اختص به هو ، نتاج ثمرة تشبه اللوز ، تنمو فى منطقة مرتفعة من شمال الإقليم ، أثرها منشط ومثرية للدم ، تذكر حديث آمر القافلة عن شجر البلسان ودهنه النادر ، وغرابته ، وتنافس الملوك فى الحصول على قطرات منه !

لم يذق البلسان ولم يعرفه حتى يمكنه القول إن هذا السائل يمت إليه بصلة أو لا؟ تنتظران على مسافة منه ، إنهما متشابهتان . أميل إلى التحفظ والرزانة من السابقتين ، لكنه كان قادرا على رؤية ما خفى منهما لرقة أثوابهما وشفافيتها ، ظنها فى البداية حريرية ، لكنه عرف فيما بعد أن سائر ملابس العاملين فى القصر ، تصنع إما من ريش طيور معينة ، أو الجلد الرهيف المتخذ من مناطق الصدور أو الأعجاز منها .

بعد أن فرغتا من مساعدته على ارتداء عباءة منسوجة من ريش الطاووس . تراجعتا مقدار خطوة كأنهما تتأملان . علا الطرق مرات ثلاثا ، من الباب الرئيسى دخلت امرأة ترتدى ثوبا حشما ، غامقًا ، تضع فوق رأسها ما يشبه الطاقية ، ربما تجاوزت الأربعين ، مشدودة القوام ، متماسكة الطلع ، انحنت حتى أوشك رأسها أن يلامس ركبتيها أشارت إلى الخارج ، تقدمته ، بدا واضحا أن كل خطوة مقدرة من قبل ، لم يكن هناك مجال ليبدى رأيه . مضى إلى بهو ملحق بالمخدع أو متصل به .

أرائك، حشايا، مقاعد مستديرة، صوان ذهبية، مستديرة، أخرى مستطيلة، شمعدانات منبثقة من أفواه طيور، مصابيح ومشكاوات متدلية من السقف، مزينة بتصاوير عصافير دقيقة وأنواع نادرة من الحمام، ما من رسم طير إلا وله أصل واقعى، أما الألوان فتحاكى البواشق والعصافير والببغاوات.

كافة ما يمت إليه متخذ من ألوان طيور الماء، ملابسه من الغطاسيات، عرف فيما بعد أن اسمه فى مصر «الزهوت»، يجمع ما بين الطيران فى الفضاء، والغطس تحت الماء. إليه يمت سواد العباءة ائعجيب، أما الصديريات والسراويل فمن الشهرمان. فيها حمرة القدم والمنقار، وبياض الغطاء، وسواد الظهر، وخضرة الحواف البراقة، اللامعة، وهذا طائر جميل، وقور، يجمع ما بين البر والماء، ويظهر فى بلاد المغرب شتاء، ويحط أحيانا على شاطئ المحيط الأعظم، وداخل الصحراء وفى كهوف الجبال، ومما حبب إليه أنه يزور إقليم مصر لمدة ثلاثة شهور فى السنة وينتشر من جزر البحر بما فيها تنيس إلى واحات الغرب وشلالات الجنوب.

أما ملابسه الداخلية فمتخذة من ريش النعام أو الغرنوق، ولونه أبيض مشوب بحمرة، ويوجد على مدار العام فى بحيرات مصر، البردويل والمنزلة والفيوم ومريوط، وحول عيون الماء فى واحات الغرب، أما أثاث القصور فمغطى بقماش متخذ من ريش أخضر مشوب بحمرة يمت إلى نوع صغير من البط، يعرف فى كل موضع باسم، هنا فى الإقليم «الحذف» وفى مصر «الشرشير»، وفى بلاد المشرق «الحذاف»، كافة ما يريد الاطلاع عليه أو معرفته عن أى نوع، يسأل عنه القائمين على ديوان الطير، أهم دواوين الإقليم. فهو القائم

على رصد الهجرات، وتصنيف الأنواع، ومراقبة العادات، وإجراء التجارب باستمرار لاستخلاص أفضل الطرق الممكنة لتحويل الريش إلى أقمشة مختلفة أنواعها. أو جلود يتخذ منها الأحذية والحقائب والصديريات، والأجمة والسروج، وبعض أنواع الأسلحة، هذا مقطوع به، وقد رأى نماذج منها، أما أنواع الأطعمة والمشروبات المتخذة من سائر الأصناف فلا حد لها.

أما أرباب الدولة ورؤساء الدواوين والقائمون على النواحي فيتخذون ملابسهم وفرشهم من نوعين لا غير. أولهما الحجل. وهو طائر معروف بالمشرق وديار المغرب، الواحد منه على قدر الحمام أحمر المنقار والرجلين. منه صنفان، نجدى أخضر اللون أحمر الساقين، والتهامى فيه بياض وخضرة. وهذا طائر شديد الاندفاع عند التحليق، يحسبه الإنسان حجرا خرج من مقلاع إذا لم يتحقق منه، أما النوع الثانى فينسجون من ريشه ملابس نسائهم، وهو الحسون. صغير. دقيق، فيه من الألوان الأحمر والأصفر والأسود والأزرق، والأخضر والأبيض. اسمه فى سائر المغرب أبا الحسن، وفى الشرق أبا زقاية.

أما سائر الناس فيتخذون من ريش الحمام أغراضهم، بنوعيه البرى والأهلى. وكل نوع توجد منه أصناف عدة، مثل الورقاء، واليمام، والورشان، والقلاب، والمنسوب.. إلى غير ذلك. ومما عرف عن طباعه أنه يطلب وكره ولو أرسل من ألف فرسخ أو أكثر.

الخلع والهدايا الرئاسية تتخذ من طيور الصفارية، تتميز بصفرة زاهية مع سواد. وفى إناثها شىء من الخضرة، تغريده رقيق، عذب، والأماكن المخصصة له فى الإقليم مزروعة بأشجار التوت التى يحب التخفى فى أعاليها، ويقصدها القوم للفسحة وللاستمتاع بصوته

العذب، هنا أنواع لا حصر لها. يمكن رؤيتها فى كافة أوقات السنة، يتحدثون عن طلسم قديم أعده القدماء جاذب لكافة الأنواع، ومع الوقت خبروها وعرفوا عنها ما لم تعرفه أمة من الأمم. وهناك طيور مشهورة بعضها له مزارات يقصدها القوم للتبرك والطواف بها، وثمة مبان مهيبة تضم جثثا تم حفظها بعناية وتدبير منذ حقب بعيدة، معروضة للناظرين، يحسبها الناظرون حية، أما سكونها فلفترة وجيزة ترفرف بعدها محلقة، بعضها انقرض جنسه ولم يعد له وجود.

قال أحمد بن عبد الله إنه لو أفاض فى وصف منزلة الطير وما يستخدم فيه، وما يحظى به لضاق المجال، لكنه شغل بأمر تحقق منه فيما بعد، هل ثمة صلة قامت يوما بين عاشق الطير فى تنيس وبين الإقليم، وسيرد ذكر ذلك فى السياق!

يقول إنه خرج إلى البهو الملحق بالمخدع، يقف القيم فى المنتصف تماما مرتديا عباءته الحمراء المتخذة من مناقير الحجل. بعد معالجتها بطرق لا يعرفها إلا بعض من القوم الموكل إليهم إعداد ملابس القصور ورجالها. بدت لحيته أطول قليلا عما كانت عليه فى الصباح، لكن. أى وقت الآن؟ كم نعس؟، المخدع والبهو ضوؤهما خفى المصدر، لم تكن هناك مصابيح أو ثريات أو شموع.

أى فترة من النهار؟، صبح أو عصر؟. هل أغفى وقتا قصيرا حقا؟ أم إن زمنا طويلا مضى عليه وهو لا يدرى؟، تذكر لحظات استيقاظه من النوم وانعدام معرفته بما يحيطه تمامًا، حتى لا يدرى شيئا عن ذاته هو، جرى له ذلك مرات، ولكن تيهه عن نفسه لم يدم إلا ثوانى، كأنه يمر بحالة مشابه، ولكنها جديدة عليه تمامًا. ما كان منه جد بعيد بدأ القيم حديثه بعد انحناءة عميقة، بعد جلوسه إلى مقعد منخفض قليلا

فى مواجهته، أفاض فى التحية. وذكر الأفراح القائمة فى الإقليم كله بعد وصوله وظهوره، قال إنه تم إطلاق البريد إلى كافة الجهات الأصلية والفرعية لإخطار الجنس الإنسانى كله بمجيئه. قال إن الجميع ترتفع دعواتهم ليكون زمنه فياضا بالخير والبركة في الإقليم الذى لم ينكس راياته قط. ولم تغلب جيوشه.

كان صوته هادئا، ذا نبرة واحدة، لا يرفع عينيه إلا فيما ندر، مخارج ألفاظه واضحة، جمله مرتبة، أحيان يطرف بعينه اليمنى عندما يريد التعبير عن أمر معين يرى حرجا فى إبدائه.

تلك أولى الجلسات اليومية التى تكررت بانتظام لمدة أربعين يومًا احتجب خلالها عن الخروج بعد ظهوره. والحق أنه كان يجرى إعداده ليتكيف مع تقاليد القوم وعاداتهم وطقوسهم وزمنهم المنقضى والآتى.

رسوخ الأركان..

.. حدثني أحمد بن عبد الله. خفف الله غربته، قال : أدركت منذ لقائنا الأول أنه مسئول عن تبصيرى، أضمرت الامتثال، فمن أين لى معرفة الأرض التى آلت أمورى إليها؟ رغم حديثه عن قدسيتى، والنفحة السرية السارية فى كينونتى. لم أر نفسى إلا مغتربا عنهم مهاجرًا على غير طوعى.

لم أكن يوما آمرا أو ناهيًا، أو متصرفًا فى أمور أى إنسان، حتى عندما اقترنت بامرأة لم أكن صاحب تدبير، وهكذا قضت نظم الواحة وأعرافها التى أضمرت النية على العودة إليها وصحبة أم ابنى كى تقر عينا على مقربة منى.

عندما وجدت نفسى صاحب حل وعقد قررت أن أنثنى عائدا إلى الواحة لصحبتهما، ولكن غرابة ما انتظرنى جعلنى أرجئ الأمر بعض الوقت، وعندما أطلعنى القيم على الطقوس القاضية بعزلتى عن الخلق أربعين طلعة شمس، صرحت له بنيتى، أبدى دهشة، قال إنهم يعرفون كل حبة رمل على مسيرة شهر فى كافة الاتجاهات، وإنه لا يوجد أى مكان فيه دبيب حياة، لا أنس ولا وحش ولا جن، فأى واحة تلك التى تقع على بعد ساعات لا غير من مكان الظهور؟

أبديت استياء، كيف يظهر الشك فيما أقول؟. الواحة حقيقية،

أمضيت فيها مقداراً من زمنى، لى فيها قرينة تسعى وداخلها جنين منى، من صلبى، والفسطاط الممت بكافة ظروفه وتطوراته، كيف أصدق تأكيداته وأكذب أيامى وحضورى؟

كان سريع الانحناء، مع إبداء الأسف، ولم يخف علىّ تكلفه فى هذا كله، رجانى الانتظار حتى نهاية المدة التى سأطلع فيها على أسرار الإقليم، أتجول فى حدائق القصر ما أرغب، وأختار من أشاء من النساء والنهود الأبكار.

قال القيم عند هذا الحد إن الرأس المعظم، رأس البرارى وأميرها، له كل ما يسعى حيا على أرض الإقليم، كل ما يطير فى هوائه، أو يسبح فى مائه، وأول المخلوقات النساء. كلهن ملك يمينه، صروحهن المردة مباحة له، أسرارهن المغلقة مفضوضة عنده، عوالمهن تجرى فى مداره، إذا نظر أجيب، وإذا لمح لبى الكافة ما يريد، وإذا أفصح تهاوت عند قدميه القامات والقدود، فى الإقليم مناطق مشهورة بجمال إناثها، لا مثيل لهن فى العالم المعمور، بعضهن كالطيف، ولشفافية خصورهن يمكن للمرء أن يرى من خلالهن، سيتنافس القائمون على النواحى فى إرسال الهدايا إليه، ومنها عذارى أبكار، إذا رغب إحداهن فتلك منة منه، وبشارة سعد لها ولأهلها، أما إذا اعترض فيكفيها مثولها فى حضرته وطلته عليها، قال إن نفحته القدسية مباركة، يجب ألا تحظى بها إلا صاحبة منزلة، برغم طول حديثه، وذهابه شرقا وغربا فى تلوين المعانى، لم يخف علىّ أنه يشير من بعيد إلى مضاجعتى الوصيفتين الجميلتين فور دخولى المخدع، بهرت بهما ولكن ما رأيته فيما بعد جعلنى ألوم نفسى لتسرعى ولتبديد طاقتى، بل إن ما سمعته عن النفحة القدسية جعلنى أقلب النظر داخلى، وأتأمل ملامحى طويلا فى المرايا،

غير أنني أبديت العزم وأكدت تصميمى على العودة إلى الواحة، انحنى القيم مؤكدا تنفيذ كافة ما أرغبه.

مع توالى الأيام والليالى، وإدراكى مرور أوقات خلواً من أى تفكير فى الواحة وأهلها، ينشب داخلى ذنب، فأقول للقيم محتدا إن نيتى فى الذهاب قائمة، خاصة أن شوقى يتزايد إلى امرأتى، وأول أبنائى، ثم أهمس لنفسى مردداً: ألا يكفى انقطاع أمرى ونأيى عن مصر؟ كنت أرقب وخزاً يتجدد فجأة، يباغتنى، رغبة تعترينى، أود المشى فى مناطق معينة اعتدتها، وعرفتها، مسافات وظلال وأصداء، وروائح، خاصة الطرق المؤدية إلى ضريح الإمام الحسين، أو تلك المسافة الممتدة بين خارج باب زويلة وداخله، وأسبلة المياه ورائحة القرب الجلدية على ظهور السقائين والدواب، وبقايا الماء فى قاع الأوانى النحاسية. المربوطة بسلاسل إلى قضبان الأسبلة، وأشجار الحديقة داخل مسجد المؤيد، وأصداء أذان العصر.. ألا يكفى انبتاتى عن أصلى، ونأيى القسرى عن منبتى، وإرغامى على الإمعان صوب موضع مغيب الشمس، فى البداية ظننت أننى بالغه عند حد معين، وأننى يوما سأنثنى عائد إلى مدينة أخذت منها وأعطيت، لكننى.. لا أزداد إلا بعداً، ومن طور غريب إلى آخر أغرب.. أرحل.

لا بد من العودة إلى الواحة، أدرك بعضا مما كان منى، يقولون إنها غير موجودة، وأقطع بمثولها، وما من قوة يمكن أن تثنينى!

هذا ما رددته عند وقوفى على وهن عزيمتى، واستغراقى فى دنياى الجديدة، على الرغم من أننى لم ألم بها بعد.

صعب وصف ما مررت به على وجه الدقة، عشت عمرى كله بين الصامتين، التابعين، المتوجسين من السلطان وكافة المقربين منه، فى

القاهرة البعيدة عنى الآن سمعت عن فلاح فقير اعترض موكب سلطان البلاد عند مروره بالقرية يوما، ألقى أمامه بحاله، باس الأرض، رجاه أن يتوسط بينه وبين خفير القرية حتى يرضى عنه ويكف عن اضطهاده، السلطان بالنسبة له مجرد كبير عابر، أما الخفير فهو الآمر الناهى عنده.

كنت مثل هذا الفقير، المجهول، أعلى ما أتصوره من الحكام مقدم العسس فى الجمالية من لى وسكان القلعة؟، ولكن.. ما بين عشية وضحاها أجد نفسى رأسًا لإقليم شاسع، تلحق باسمى صفات شتى. تنحنى أمامى قامات محاربين وعلماء، وأجواد، أما الجميلات فهن ملك يمينى.

بعد إصغائى إلى القيم وقفت على ما أحيط به، ما توليت عليه، قال إن الإقليم الشاسع فسيح، نصفه المزروع عامر، ونصفه صحراء شبه خالية، فيه بحيرات كبيره لكنه بعيد عن أى شاطئ بحر، فى الصحراء جبال داخلها مناجم ذهب، وماس، وأحجار أخرى باهرة مثل الكركند الأحمر، والأفلوج الأسود، والزمرد الأخضر، واليشب، والدهنج، واللازورد، والمارينج، والعقيق، والفيروز، والكبريت الأحمر.

أما الرخام فرأيت فى قصورى أنواعا لم أكن أتصور وقوفى عليها، ولا أظنها موجودة فى إقليم آخر، فمن ذلك رخام أخضر مختلط بعروق بنية اللون، إذا دققت فيه تلقى تصاوير شتى، وآخر أسود. سواده عميق عجيب، لامع فكأنه مبلول، بماء سلسبيل، وثالث أزرق فى لون السماء الرائقة، يخالطه بياض حليبى، وهذا أحبهم إلى قلبى، وقد أقررته لونا رسميا شائعا للأرضيات الداخلية فى سائر قصورى، وسرعان ما حاكانى الولاة والمباشرون والأثرياء.

على الحدود تسعون قلعة حصينة، ومدن أربع حدودية، محصنة، تواجه كلا منها جهة رئيسية، وأربع فرعية، البحر يقع على مسيرة ستة شهور إلى الغرب. مؤكد أن المحيط الأعظم الذى نجلس على مقربة منه الآن. لكن أى نقطة من ساحله تقابل عاصمة الإقليم؟ هذا ما لم أعرف. رغم بعده إلا أن بعض المخاطر لحقت القوم عبره فى الزمن القديم.

الجيش هائل الحجم والقوة، نصفه راجل. ونصفه راكب، عاينت من سلاحه وعتاده ما لم تقع عينى على مثله، ولم أره من قبل ولا من بعد، بل إننى لم أطلع عليها كلها، إنما شاهدت بعضها فى التمارين التى تقام فى الخلاء، أمضى إليها مرتديا زى الحرب التى لم أخضها يومًا، رداء نسج من ريش عقاب منيع، لم يكن عندى أى إحاطة بأمورها أو تدبيرها، لم أخضها عن قرب ولا عن بعد، لكننى وقعت مراسيم الاستعداد لها وحشد الجند، وشن بعض الغارات على جهات قريبة لا أعرف قاطنيها، لكنهم يطلبون ذلك، ويشرحون الأخطار المتوقعة، وضرورة شن بعض الهجمات مع ظهور نجوم معينة فى السماء، طبعا لم أوقع مباشرة، إنما كنت أستفسر، وأظهر التدقيق والمجادلة قبل أن أمهر المرسوم بخاتم الحرب، وعليه كلمة أمرت بنقشها «التأنى».

أمتع أوقاتى عند ركوبى على ساحات التمارين حيث تجرى المعارك الوهمية، أمضى مشدود القامة، بادى التجهم رغم ابتسامتى الأبدية، محاط بالأبهة الكاملة، ظاهر القسوة رغم ابتسامتى الدائمة أحيانا أشير بأصبعى مستفسرا، مدققا، فيتقدم القادة الكبار، ينحنى كل منهم يقبل الأرض بين يدى، ثم يتسابقون إلى شرح ما تتضمنه أوراقهم

وخرائطهم. مستخدمين عصى نحيلة طويلة، يشيرون بها إلى علامات حمراء وزرقاء.

فى النهاية أبدى الملاحظات المقتضبة، المختصرة للغاية، مع أننى فى الأغلب الأعم لم أكن أفهم شيئا مما يقولونه. لكنهم مع بدء حديثى يحنون رءوسهم، يرفعون أيديهم بسرعة، معلنين الامتثال والطاعة، تلك لحظات متعة أستعيدها، أحن إليها، عند اجتماعى بهم، لحظة وصولى ميادين العرض، وتفقدى فيلة الحرب، وتلك غير أفيال النزهة، وأفيال الهيبة!

قال القيم فى ثالث جلسة إن كل مدينة أو محلة لها نموذج مصغر بالقصر الصيفى، تراه فتحسبه حقيقيا لدقته وإتقانه، تنظر فيه إلى الشوارع والزنقات وترى مداخل البيوت ونوافذها، كل شىء فى موضعه.

ثمة ترتيب قديم، يمكنه من زيارة مدينة مطلع كل شهر، كل أسبوعين محلة وكل ثلاثة شهور واحة، هكذا يطلع على ملكه. قال إن الديار قديمة، متينة، قوية الأساس، راسخة البنيان، لا ينافسها فى العالم المعمور إلا زمن الفراعنة، بناة الأهرام، قال إن لديهم علما بها، وأوصافا دقيقة لما خفى وظهر منها، شيد المهندسون نموذجا مشابها لها فى الجنوب، تراه فتحسب نفسك فى هضبة الجيزة، ولكن مواد البناء تختلف، وإن تشابهت فى الظاهر. قال إنه يوجد نموذج لحدائق بابل المندثرة، للذاقورة التى كانت تتوسطها، وآخر لمئذنة سامراء، ومعبد بوذى، ومسجد على الطراز الفارسى، وإيوان كسرى، وقبة الصخرة، وكنيسة القيامة، وكنيس يهودى بما حوى، وسائر ما اشتهر من البنايات قديمًا وحديثًا، تراه فكأنك تطالعه فى زمنه وموضعه.

سألت عما ينفرد به الأقليم فى البنيان؟

تبسم ضاحكًا، متلطفا، قال إن ما لا يمكن رؤيته فى أى مكان آخر حققه بناء من بر مصر.

مصرى؟

أومأ القيم برأسه.

نعم.. دخل الإقليم بعد خروجه للسياحة فى الأرض، ناذراً نفسه للبناء، جاء إلينا عند نزول الشمس برج الثور، وهذا برج مبارك، له تحاويط، وترتيب.

فور وصوله جرى ما تعجب له القوم، إذ ظللته أسراب من طيور القطا والمازور البحرى النادر وجوده، والنقاذ، والهدهد، والهزاز، وأنواع شتى يستحيل اجتماعها فى وقت واحد، فما البال عندما تتقارب فى سرب؟ يتبادل بعضها الحط على كتفه، والالتصاق بوجنته، والهمس فى أذنيه وتنقية شعره مما علق به من شوائب الطريق، عندما سرى خبره، وتناقل القوم أوصاف ما جرى عند اجتيازه أفق الإقليم. أطلق حفظة الطير النفير الذى لا يدوى إلا عند وقوع أمر جلل، مثل ظهور نوع نادر غير مُدون أو مُترقب منذ أجيال، أو بدء وباء فتاك، أو موت طير فريد لا مثيل له فى الأقاليم الأخرى.

لكن النفير فى هذا العصر لم يكن لسبب من تلك الأمور، إنما لظهور هذا البنّاء العظيم، ليس لأنه تفوق على غيره فى المعمار، إنما من أجل والده، سمعته وصلت الإقليم مع أنه لم يدخله قط، وربما لم يسافر خارج الجزيرة التى أمضى فيها عمره، لكن ثمة صلة ما قامت، اعتبر وليا صالحًا أوتى من العلم بالطير ما لم يقع سليمان الحكيم، ذاع

أمره وانتشر خبره في أركان الأرض، يوم رحيله تناقل جنس الطير كله الخبر، حلقت أسراب كثيفة في لحظة واحدة، في الخرب والمعمور، تقاربت حتى شكلت غمامة كثيفة حجبت قرص الشمس، تآلفت أنواع متنافرة وهذا لم يقع إلا عند دخول الابن بر الإقليم.

سرى خبر وصوله، احتفى القوم به، صحبوه إلى ضريح رمزى أقيم لوالده الذى عرفه الناس بلقبه الذائع هنا «المصرى حافظ الطير..»، وطوال مدة مكثه لم يفارقه اليمام الأبيض والقطا والسنونو. وكانت تظلله أينما ولى وجهه، وترقبه عند نومه، وتنتظره إذا ولج مكانا مغلقا، وتهش عنه إذا ركد الهواء وعلق الهوام.

حدث الناس عما شيده فى البرارى والأمصار منذ خروجه بعد وفاة والده، ميناء يتبع السفن، ينتمى إلى أى موضع وأى مكان، يمكن أن تركن إليه فى العاصفة، وعند انقطاع الأمل من الوصول إلى البر، وأقام سقفا لا يستند إلى أعمدة ترى، وبيتا يستدير مع حركة الشمس، يتبعها، أما مقصده النهائى وطموحه الحق، فيتمثل فى محاولة بناء فنار شاهق فى قلب المحيط الأعظم يمكن رؤية ضوئه من أى نقطة فى البر أو البحر. من أى موضع فى الدنيا.

ماذا بنى للأقليم الذى أنزل والده درجة رفيعة، وأبدى ترحيبا يجل عن الوصف به، بسائر مخلوقاته، الناطقة والصادحة؟

قال القيم إن ما شيده البناء المصرى ابن حافظ الطير عجيب، غريب حقا لم يسمع بمثله من قبل، لا فى الأزمنة الحاضرة أو الماضية، إذ شيد مدينة جميلة، صغيرة، معلقة فى الفراغ، وفى الوقت عينه فوق الأرض، والبحر، فى كل الجهات، مدينة فريدة، لا مثيل لها، تبدو لكل شخص فى أى وقت سواء كان فى الصحراء المقفرة، أو البقاع

العـامرة، في البـحـار والأنهـار، في أي مكان، أي جـهـة، أينمـا وليت الوجه يمكن استحضارها ثم دخولها والإقامة. لكن.. هذا غير متاح لأي شـخص، إنما لا بد من توافـر درجـة مـعـينة من المعـرفـة والإلمام بأجناس الطيور. ليس العلم المجرد ولكن المقصود هو الإحساس بها وإدراك كوامنها.

عند استـحضـار تلك المدينة المعلقة في الفـراغ يمكن لكل امرئ أن يراها كـمـا يشـاء، وأن يجـد فـيـهـا مـا يتـمنى، مـا يرغـب، وممن بلغـوا حدودها وأوغلوا فيها سمع القوم عن أمور عجيبة، وشئون غريبة وأوصاف لم يعهدها إنسان. وهذا كله يضيق عنه المجال، المهم.. بعد أن أنجز مـدينتـه التي لا مثيل لها فـارق الإقليم. مستـأنفـا رحيله، ولم يبلغنا الطير عنه خبرا حتى الآن.

حدثني أحمد بن عبد الله، أكرم الله مرساه، وخفف هجيره، قال: طوال إفضاء القيم بمكنونه كنت أتطلع إليه متفحصا، متعجبا، أما تفرسي فلرغبتي في الوثوق من أنه لا يعـرف صلتي بالمعـمـاري الذي بهرهم، وشيد الغرائب، صحيح أنني لم أره، لم ألتق به قط، ولكنني أعرفه من خلال صحبتي لشقيقه آمر القافلة، حافظ طريق الحرير، أول من رافقت، وقطعت بداياتي بصحبته، أما تعجبي فلأمور عدة، أولها حديث تلك المدينة التي لـم أسمع بمثلها، لم أنطق برغبتي في رؤيتها، أرجأت ذلك، حتى لا أفاجأ بجواب لا أتوقعه ولا يتناسب مع مقامي، وكينونتي الجديدة فأي درجة تلك يجب أن يبلغها الإنسان حتى ينتمي إلى تلك المدينة أو تنتمي إليه؟

أطرقت مضمراً الاستفسار يوماً، واستدعيت إلى خاطري ملامح آمر القافلة، ترى.. إلى أي جهة يولي الآن؟. هل يسلك موضعا بعينه

على طريق الحرير؟ هل ينزل جنوبًا أم يصعد شمالا؟ ، والحضرموتى . . لكم يبدو بعيدا . نائيا . وكأن شخصا غيرى تلقى عنه علم الميقات والنجوم ، ترى . . هل سألتقى بالشقيقين الآخرين ، الأكبر . . المولع بالنساء؟ من عرف؟ ، وكم ضاجع؟ ، الأصغر . . هل حقق رغبته فى زيارة أضرحة الأولياء كافة؟

توالت علىّ الملامح والوجوه ، ثقل علىّ الذنب عندما اشتدت حدة وعيى بمرور وقت لم أر بعينى مخيلتى وجه امرأتى فى الواحة ، لم أردد استفسارى عنها ، وانشغالى بها ، رحت أستدعى حضورها ، طلاتها ، أحاديثها الليلية الهامسة .

انتبهت إلى تطلع القيم ناحيتى . لم يجرؤ على النطق احتراما لصمتى ، ولم ألفظ حرفًا حتى لا يستنتج الموضوع الذى تدور حوله خواطرى ، إنما أومأت ثلاث مرات ، بينما تحديقى كله متجه إلى امرأتى الحامل منى ، مضمراً ، مصممًا على الخروج إلى الواحة بعد انقضاء المدة .

أومأت . فانحنى ثلاثا قبل استئناف حديثه .

الابتسامة الدائمة..

. . لابن الشمس، صاحب النفحة، رأس البرارى، طلعة خاصة، وهيئة فريدة، لا يشبهه فيها أحد، يواجه بها الحق بدءا من رجاله المقربين وحتى عامة الخلق الذين سيقفون أياما فى انتظار بهاء خروجه عليهم ليؤرخوا أعمارهم، بلحظة مثوله فى مآقيهم.

قال إنه من العناصر الأولى، التأنى، الحديث الصادر عن شفتيه المقدستين يجب أن يكون متمهلاً، بطيئا فى اعتدال، مختلف النغمات، واضح مخارج الكلمات. هذا فن قائم بذاته، له سدنته، وهم من خدام البلاط، وهم على أهبة للمثول والإفضاء بالخبرة.

التمهل عند اختيار الخطاب أمر اتبعه أسلافه العظماء، الرءوس، الأجلاء، ولا تتم الحيدة عنه حتى عند إعلان الحرب، أو درء فتنة. وتلك أمور نادر وقوعها، عسر ظهورها، الجيش قوى مهاب، والتقاليد تمنع الخروج عن المتوارث والقديم، ولكن. ربما تقع فورات عارضة من جانب ذوى الأهواء وأصحاب الأغراض، إنما هذا كله مجرد سحابات، لا بأس من اطلاع رأس البرارى على الأصول المرعية، من ذلك درجات الصوت، ونوعيات النبر، إيقاع اللهجة، متى يعلو، ومتى يهمس، متى ينذر وكيف يتوعد، وعند أى موضع يمكن لإشارات أصابعه أن تعبر وتصحب منطوقه؟

أومأت موافقا القيم على ما قاله، كنت راغبا فى استيعاب كل ما يبوح به الرجل، حقا . . إنه معبر عن جوهر الوضع، أمين على الموروث كله، قال القيم إن أمراء الإقليم، اعتادوا مطالعة شعبهم ورعاياهم من إنس وطير وحيوان بابتسامة دائمة، صافية، جميلة، لا تغيب حتى عند الاستغراق فى النوم، أو عند المرور بحالة غضب، تؤطر الوجه كله تحير كل من يراها باستمراريتها وثباتها وسموها.

تساءل عن إمكانية اطلاعى على صور بعض الأسلاف الكرام، الذين حكموا وترأسوا منذ حقب بعيدة، حتى أرى ما يوحد بينهم جمعيها.

الحق أنه لفظ اقتراحه بتواضع جم، غير أنه كان يقول ما لا يمكن رفضه، أو دفعه، خاصة خلال تلك المرحلة الأولى التى اشتدت فيها المعميات، وأحاطتنى الغوامض، كما أن صوته الخافت حوى أمراً خفيا بضرورة اتباع ما يقال، ولكن فضولى أقوى دافع لتعجلى الاطلاع على تلك الصور.

قام منحنيا، راجيا أن أتبعه إلى إحدى القاعات المقدسة، لا يطؤها إلا ذوو المكانة وبإذن خاص منى، حتى إنه سألنى السماح له بالمضى مع أنه يصحبنى، فاستجبت!

عبرنا ممرات خفية الضوء، كافة الأبواب المطلة على جانبيها مغلقة، محفوفة بستائر مسدلة، منسوجة من ريش الطاووس الذهبى الذى انقرض من الدنيا وبقى فى هذا الإقليم بعد أن أوصى رأس قديم بحمايته وعدم التعرض له، وخصص أرضا فى الجهة الشمالية يمرح فيها، درجة الضوء لا تختلف من قاعة إلى حجرة إلى ركن قصى، ثمة مصدر خفى محير، لم أستفسر حتى لا أكثر من الأسئلة عما لا أعلم!

توقف القيم أمام باب منحن، لا يسمح للإنسان بالمرور منتصبًا، يضطر إلى الانحناء مهما بلغ قصر قامته، كأن ذلك مقصود.

أدركت ذلك، وخطر لى أن أجتازه راسخ القامة، مرفوع الرأس، تذكرت حكاية رواها الناس فى القاهرة عن سلطان أحبوه، خلعه المتمردون، ونفوه إلى بر الشام، وحبسوه فى قلعة الكرك، أرادوا إذلاله فجعلوا كافة الأبواب والمنافذ منخفضة حتى يضطر إلى تنكيس رأسه لكن ذلك لم يحدث قط. إذ كان يثنى ساقيه إلى الأمام عند اقترابه من مدخل أو بوابة، فتقصر قامته، ولا ينحنى رأسه. بينما يضع يديه متعامدتين أما صدره.

اتخذت هذا الوضع، هكذا دخلت القاعة منتصبًا، والحق أننى فوجئت برد فعل القيم، إذ تطلع إلى بفزع حقيقى، برهبة، انحنى ولم يعتدل إلا بعد أن أذنت له، . فيما بعد قال إنها المرة الأولى منذ مدى لا يعلمه مخلوق يلج فيها القاعة مفرود القامة، سابقة لم يقع مثلها من قبل، اعتبارًا من تلك اللحظة يمكن القول إن تغيرا جرى فى نبرات القيم عند الحديث، بدا منه حذر غامض ورهبة.

قاعة مستطيلة، لفراغها مدى غامض لا يحده السقف شبه المنقوش، المنقوش بزهور جصية بارزة تتوسطها رءوس عصافير مرهفة الدقة، صيغ هذا كله من تدرجات اللون الأبيض، ثمة رائحة ذات قوام يمكن رؤيته، مزيج من زيوت قديمة وأخشاب عطرة، هواء لم تمر عبره نسيمة منذ حقب.

فوق الجدران توزعت الأطر، رمادية، فى البداية تلوح خالية، لكن مع استمرار النظر تسفر الملامح، لا أدرى. . هل تتكون عندى فى مخيلتى، أو فى الواقع؟

كانت أربع عشرة، أسلوب اللوحات متشابه، هذا ما يتوهمه الناظر بعد الطلة الأولى، ولكن مع الإمعان والتأنى يلوح الاختلاف، وتبدو الفروق.

الأولى يغلب عليها اللون الأحمر، أعلاها زاويتان محددتان بخطوط مقوسة، تتخللها أغصان مورقة، متشابكة، متداخلة، متفرقة، على مهل تظهر ملامح الوجه، عينان هادئتان، متطلعتان إلى شيء ما، هناك بأسفل، الرأس مثقل بعمامة بيضاء، تلافيفها تشبه تضام أوراق الوردة الحمراء، يبرز منها أعلاها ما يشبه قلب الزهرة البارز قليلا، القعدة قرفصائية، يد مبسوطة، وأخرى ترتكز على الركبة، هذه الأيدى حيرتنى، فى الأولى تمسك منديلاً طويلاً، هرمى الشكل، فى الثانية ترتفع إلى ما يحاذى الصدر، أصابع مضمومة، يبرز من بينها غصن لا ينتهى بشىء، فى الثالثة تمتد الأصابع بالعرض، الإبهام أعلاها والوسطى بارز قليلاً أما البنصر فكأنه بمفرده، فى الثالثة تبرز وردة صفراء، يخالط أوراقها مسحة بنفسجية حادة، تكاد تطغى على ما عداها، حتى ملامح سلفى الذى أجهله تمامًا، كذلك الزمن الذى عاشه، لم ينصح القيم، لم يجب عن أسئلتى بوضوح. لكم عاودنى فيما بعد شكل الأيدى، حيويتها الكامنة، تفرد كل منها بحضور خاص كذا تحديق العيون المطلة عبر العدم والتى سأنتمى إليها يومًا، تماثلت الزاويتان العلويتان، ولكن النقش الذى يملأ الفراغ المحيط بالرأس، اختلف من لوحة إلى أخرى، ولكن عناصر تكوينه لم تخرج عن أغصان تنتهى بزهور أجهلها، تتخللها طيور غريبة، أما ما يوحد الكينونة حقا، ما جعل استدعائى للملامح صعبًا فيما بعد، تلك الابتسامة، التى يراها كل متطلع إلىّ، راسخة، لا تتبدل ولا تتغير مع تقلب أحوالى، وتعاقب الأمزجة، أذكرهم فكأننى أرى نفسى، كلهم

قدموا مثلى من جهة الشروق. واحد منهم غامق السمرة، آخر منحرف العينين كأنه صينى، غير أن الابتسامة تدنى الفروق، جاءوا من جهات شتى، ولكنهم انتهوا إلى محاذات موضع الشروق، فحق لهم ما نلته بدون توقع، ما لم يخطر على بالى، وما لم يدر بخلدى.

قال القيم إن الابتسامة مكتسبة، لكنها تصبح داخلية، منبعثة باستمرار إثر عملية يسيرة تجرى للملامح، يقوم بها كبير المداوين، وارث عالم الطب فى الإقليم كله، بعدها، يحين موعد الظهور المرتقب الخروج إلى عامة الخلق، ثم استقبال أرباب الدواوين، وعمال النواحى والشعراء، والمؤرخين، والتجار، والصناع، وسائر صفوف الرعية.

ابتسامة فريدة، تميز رأس البرارى، ابن الشمس، صاحب النفحة، عن سائر الخلق، سفورها الدائم يكسف العيون الجوارح، يهدئ الخواطر إذا اضطربت، يحل المشاكل إذا تعثرت، يثير الأنس والطمأنينة، بعد ظهورها، واستتبابها، يبدأ الرسامون عملهم. حيث يوفد كل جزء معمور واحداً من أبنائه المتقنين لهذا الفن. وربما يتجاوز عددهم السبعمائة. كل منهم يعد لوحة، بعدها تعرض علىّ، ومنها أختار الصورة الرسمية التى ستعلق فى الشوارع والميادين ومداخل البيوت والقصور والمعامل والدواوين وداخل الغرف، حتى فى المخادع، فمن الأصول المعمول بها أن يرى الناس رسم الرأس أينما ولوا البصر، أما الصورة الأبدية فتلك تعد على مراحل. وبطرق خاصة. من ينال شرف إبرازها إلى حيز الوجود فجرى انتخابه بدون أن يعلم، وبعد إخطاره يبدأ إعداده للمهمة، يبقى اسمه سراً لا يعلن.

سألت عن العملية اللازمة للابتسامة وظروفها، قال إنها ساعة أو نحو ذلك، لن يشعر بشىء لأنه سيسقى البنج.

دفعت إصبعي مستقيما، حاداً، أصبح من سماتي حتى ضربت به الأمثال. فقيل «نافز كإصبح الرأس»، أو«مشهر في وضوح الإصبع» إلى غير ذلك، والحق أنني لم أقصد، لكن هذا ما ظهر مني بعد أن صار لكل حركة أو همسة تصدر عني معنى، وشأن يتجاوز وجودي، رفضت بحزم.

أمقت غيابي عني، حتى مفارقة الواقع بالنوم لا أدلج في النعاس إلا بعد بلوغي مدى من التعب لا أقدر على تحمله. هذا الموت المؤقت أخشى ألا تعقبه يقظة، لم أدخن الحشيشة قط. في القافلة شربت خمر الصين. وعرق البلح في الواحة. ولم تغرب عني الموجودات، نعم.. عرفت نشوة لم أعهدها. ودنوت من القوم أكثر، لكن إدراكي الحاد للفروق بين الموجودات لم يهن.

يصير ذلك مكروها، أن أفقد حسي ولو لدقائق معدودات، خاصة مع غربتي، وبعدي عن كل حبيب أو صاحب، صحيح أن ما يحيطني من أبهة لم أكن بقادر على تخيله، لكنني أجنبي، رأس لقوم لا أعرف عنهم شيئا حتى الآن، أسوس من أجهلهم، أمور شتى لا ألقي إجابات عنها. لكنني أرجأت وأجلت.

تطلع القيم صوبي حائراً، وربما لم يواجه، لم يقرأ عن مثل هذا من قبل، ربما خطر له.. كيف سيتم رسم الابتسامة إذن؟

قلت منهيا الصمت بيننا

سأتحمل الألم

قال دهشا:

لكنه فظيع

تطلعت إليه صامتًا فانحنى. تردد عندى صوت الحضرموتى، لحظات انفرادنا واقترابنا وأخذى عنه. واشتمالى على ما يفيض به علىّ، قال إن أى ألم له حد، لأفظع أنواعه مدى ينتهى بعده، خبر ذلك عندما اضطر يومًا للعلاج كيا بالنار، للحس الإنسانى طاقة على الاحتمال، فإذا تجاوزها الألم بطل. أما الإرادة فلا حد ولا حاجز لتحملها، ألم تخبرنى عن الرجل الذى نبع الحليب من ثدييه فى البرية ليطعم طفله بعد أن أشرف على هلاك مبين؟ استعد ما رويته لى وتمعن تفهم!

لم أطلب وثاقًا ليشدونى به إلى سرير الجراحة كما فعل الحضرموتى. لكننى بسطت جسدى وكأننى أنوى الاسترخاء. اتجهت بكفر إلى أمور نائية عن كافة ما يحيطنى من حركة ذات نُذر، وظهور آلات وقوارير وكلاليب، وأربطة، ومراهم ومعاجين، كنت أسترجع لحظات وأمكنة تمت إلى زمنى المصرى، السارى عندى، الممتد معى، والعجيب أننى أرى بالمخيلة ما لم أنتبه إليه عند المعاينة. كم من صوت أو لون أو رائحة أو عبارة لم أدرك الكنه إلا بعد استرجاع بطىء أو مباغت، ولهذا شرح يطول!

أحاطونى متطلعين إلىّ من خلف أقنعة. دنا كبيرهم، صرت أتلقى أنفاسه على مسام جلدى. فى البدء كان الوخز مرًا تقبله، استهدف نقاطا شتى من ظاهر وجهى. وعندما انتقل إلى داخل أنفى، وباطن جفونى كدت أفز من الهول، راوغت، وغصت بأسنانى فى شفتى لقهر الألم بالألم، حتى إذا عبرت نقطة يصعب تحديدها فى الزمان، المكان، جسدى المحسوس. حضورى غير المرئى، صار تقبلى ممكنا، وما يمر بى محتملا، كأنه يجرى لآخر منفصل، مبتوت عنى، صرت أرى المبضع

عند استقراره على سطح مقلتى، كما تطلعت متأنيا إلى أسنانى الأمامية كلها بين أصابع كبيرهم بعد خلعها كلها وأثناء ترتيبه لها على صفوف لثات مصنوعة قبل إعادة زرعها مرة أخرى داخل فمى بعد تسويتها، وتلميع أسطحها، هذا كله بدد ما كان منى وحدد ظاهرى الذى قدر علىّ أن أسعى به حتى ختم أمرى.

واحد لا غير أمكنه أن يطالع صورتى الأولى بعد دخولى عليه مباشرة، إنه الشيخ الأكبر، باركنى الله برضاه عنى، وجعل مغربى قربه.

لن أنسى أبدًا لحظة مطالعتى وجهى فى المرآة، كان آخر يواجهنى، عنده بعض شبه منى لكنه قديم، عيناى اتسعتا، تشعان ضوءاً خفيا، أقدر على الرؤية، أما الابتسامة فغطت على ما عداها، تمسك طرفى الوجه، كما أن ثباتها وغرابتها أضفت أخاديد بالجبهة والوجنتين، حركة دماغى أبطأ، لا ألتفت إلا بقدر، ولا أكثر من التطلع فوقى أو حتى تحتى ومعظم الأمر إلى الأمام، وباتجاه نقطة محددة، حتى قيل إن أعتى الرجال قلبا وأثبتهم فؤادًا لا يقد على مواجهة عينى إلا لحيظات، بعدها لا بد أن يطرق.

طال التأنى كل شىء، حتى إننى لم أعد ألتفت إلى الوصيفات الجميلات، واللواتى يدخلن مخدعى لإيقاظى برفق، أو يساعدننى على خلع ملابسى أو ارتدائها، كل يوم يتبدلن. ومن أطالع ملامحهن فى الصباح لا أراهن فى المساء، مرة واحدة لا غير أقدمت، عندما شرعت صبية آسيوية تدلك جسمى فى أثناء تأهبى لحمام الصباح المعطر برحيق نعناع جبلى ينمو فى الجهة الشرقية من الإقليم، بطل التعامل به وحُرم على سائر الخلق بعد إعلانى تفضيلى له، فوجئت بدخوله فى كافة ما يمت إلىّ من مشرب أو مأكل أوحشايا أستند إليها أو ملابس.

لم أعرف التدليك من قبل، هنا. . لقيت منه أنواعًا، فثمة ما يناسب الحمام، قبله وبعده، وآخر قبل النوم، وثالث بعد العودة من رحلات الصيد. أو المواكب والحفلات التى تقتضى ركوبا أو جلوسًا لمدة. . فى البداية كنت أخجل، لكنى بعد ظهور الابتسامة الدائمة لم أعد أعبأ، ولا أعرف العلاقة حتى الآن، لكننى عامة صرت أكثر إقداما وأقل دهشة مما يمر بى.

البنية من جنس لم أره من قبل، لطيفة الحضور، ندية الطَلْع، منمنمة، كل ما ينتمى إليها دان للقطاف. انحناءتها نغزتنى، أناملها تدغدغ جسدى أستعيدها حتى الآن. خبيرة بالكوامن، وخبايا حسى، ارتعشت فلم أطق، حتى إننى مزقت غلالتها الشفافة المنسوجة من أطراف ريش الكنارى.

فيما تلا ذلك أدركت أننى حيرت القيم والمسئولين عن رفاه أحوالى وترضية أهوائى، إذ اهتموا بمحاولة رصد المفضلات عندى من النساء فلم يقفوا على أمر. حتى اضطر القيم على التلميح، عندما تحدث عن رأس سابق كان يؤثر بنات السودان، وآخر هام عشقا بالسامقات، العاليات، وثالث ينتابه خلط ويهذى إذا ابتسمت فى حضوره أنثى فَلْجاء، وأدركت ما يبغيه، قلت إن مثل هؤلاء أغبياء لأنهم قصروا معرفتهم على ظواهر معينة. ولم يدركوا الجوهر، إننى أسعى إلى الجنس كله. كل أنثى كون صغير، وكل كون ينفرد بجمال لا يتكرر. . ليتنى أقدر على معرفتهن فى جمعهن وتفردهن.

أبدوا تقديرا لما قلت، والحق أن ما صرحت به لم يكن عن تجربة بقدر كونه نتاج جدب وحرمان لم أنج منه إلا فى الواحة، وبعد أن آلت أمورى إلى ما لم أتوقعه انطلقت أروى نهمى، غير عابئ بتلميحات

القيم إلى احتوائى على نفحة مقدسة يجب ألا أزرعها إلا فى موضع تستحقه، طبعا مع مرور الوقت هدأت أحوالى، فبعد أن أفرطت فى جماع الوصيفات، وبعض من بنات وُجِدْنَ فى القصر - عرفت أن القيم دفع بهن إلى طريقى لحرصه على تلقيهن النفحة - صرت أتمعن وأدقق. فلا أشرع إلا باتجاه من تبعث عندى سببًا، فى الأعم لا صلة له بالحس، ربما بعثت إيماءة غير مقصودة لحظة قديمة، وقد يثير لحظ مشع شجونا طال اندثارها، فأسعى إلى القرب.

ذرا انغماسى تحققت بعد انتهاء عزلتى الأربعينية. وبدء توافد الهدايا من المدن والأنحاء والجماعات، عذارى لم يمسسهن أحد، فى ليلة ضاجعت اثنتين. وُلدتا فى ليلة واحدة، لكن تلك من الجهة الشمالية والأخرى جنوبية، تجاوزتا الثالثة عشرة بأيام قلائل، الأولى تحسبها فى الخامسة والعشرين لفراهتها ونضج مقاييسها، والثانية كصبى أمرد، لكن لكل منهما مجالا وشعابا!

رغم بلوغى المدى، وجوسى الدائم فى الملذات المتجددة، إلا أننى كثيرا ما استعدت هذه الصبية التى وقعت عيناى عليها عند بزوغى فى عيونهم خمرية ملامحها، طزاجة حضورها، لحظة انحنائها، سفور ردفيها المذهلين باستدارتهما ومتانتهما، لا أستعيدها إلا وأغمغم متمتما، ولم أصدر أمرًا بالبحث، ما أيسر تحديدها، تعيين مكانها، وضمها، ألم تكن بين المنتظرين؟ أضمرت الوصول إليها بنفسى، داخلنى يقين أننى ملاقيها يومًا، فى حقل، فى جمع، عند مرورى راكبا عبر الطرقات والميادين. نذرت أن أسعى إليها فور وقوع بصرى عليها مهما كان الموقف.

الغريب أننى لم أتطلع إلى مثولها أمامى، بإمكانى اختصار المسافة وتجنيد كافة الإمكانيات لإحضارها، فى أغوارى لم أكن راغبا، ليس عن زهد، ولا عن حرص.

إذن.. ما الأمر؟

ستعجب إذا ما صارحتك القول، إذ حرصت فى لحظة جلاء بصيرة على بقاء شيء ما بعيدا عن المتناول، فى دائرة التمنى، ذلك أن كافة ما أرغبه يتحقق. سائر ما يصدر عنى يُحتذى. بلغ ارتوائى درجة أن الفارهة منهن، المكتملة ترقص بين يدى، وتنثنى. تفعل ما لا يتوقعه رجل من أنثى، ولا يتحرك أمرى. فإذا ما قصدت تنشيط همتى استعدت الانحناءة اللوتسية، تنسمت أنوثتها. واسترجعت طلتها صوبى، أعانق بالمخيلة ما لا تدركه الحواس، وأقيم ما أقدر عليه بما أعجز عن بلوغه. وهذا عجيب!

لن أطيل وأفصل، فالأمر يفيض، والمتاح لا يستوعب، لكننى سأطلعك على الصبية اليمامية.

اعلم يا أخى المقيم فى ديار المغرب، أننى بعد أن نهلت من كل نبع، ورويت ظمئى، رغبت فى رؤية أكثرهن مناعة، وأشدهن تحوطًا، وأعظمهن هيبة، ذلك أننى اطلعت على أخبارها مما يعرض علىّ. ومع اتضاح الجوانب الخفية التى حرصت على سبر أغوارها بدون عون، حتى من القيم. أقربهم إلىّ حتى ذلك الوقت.

لم يخف انزعاجه عندما طلبت رؤية سليلة الطير، بالغ فى الانحناء، رجانى إعادة النظر فى الأمر، هذا غير مسبوق. لم يحدث من قبل، سألته باختصار عما إذا كانت رؤيتها مدرجة فيما ذكره لى عند

دخولى الإقليم، لم يجب، أطرق مثقلا بصمت المجربين، لم أعبأ. . واصلت إصرارى.

الحق أن أسبابا شتى، متداخلة دفعتنى، منها غرابة ما نمى إلىّ وكيفية وفادتها إلى العالم، ذلك أن والدها من عالم الإنس أما أمها فمن دنيا الطير، لم يلتقيا قط، وإنما جرى عشقهما على البعد، أحب كل منهما الآخر بالسماع وعبر أصناف الطيور المهاجرة. الساعية، أما الوصال فجرى عبر إرسال نطفة من الأب قطعت مسافات شاسعة تناوب على حملها سرب من طيور القطا، أحيطت بطريقة معينة، وتُليت عليها تمائم لا يعرفها إلا الأب الذى أوتى المقدرة على فهم لسان الطير، تلقت اليمامة تلك النطفة، احتوتها، واعتزلت عن سائر بنات جنسها فى موضع لا يطالها فيه باز أو شاهين.

كيف خرجت هذه البنية؟

هذا ما لم أقف عليه، ولم أعرفه حتى الآن، كما أننى لم أستطع التحديد والقطع، أين عاش والدها؟، ذلك أنه تأكد لى معرفة القوم هنا باثنين لا ثالث لهما فى الدنيا المعمورة، يُعرف كُل منهما هنا بلقب «معصوم الطير»، هذا يعيش فى جزيرة وذاك فى أخرى، لكنهما لم يلتقيا قط، لم أحتج إلى أى تأكيد . ، بالقطع . . هو التنيسى، لو صح ذلك فإننى سألتقى بشقيقه آمر القافلة التى لم ولن تقع عيناه عليها.

الحق يا أخى أننى فوجئت، بعد أن أحضروها من مكانها النائى المقدس محاطة بأربعة وأربعين حجابا، أدخلوها إلى الصالة الغسقية، حيث كل ما يوجد داخلها فى حمرة المغيب، تتوسطها شجرة نادرة كلها من مرجان البحر الهندى، جذعها وأغصانها وثمارها، وأكد لى

القيم أنهم انتزعونها هكذا من القاع، لم تبدل ولم تشذب ولم يعمل صانع ما عمله فيها.

بعد نزع الأحجبة كافة، تطلعت بفضول سرعان ما انقلب دهشة فخشية، ذلك أننى لم ولن أرى مخلوقة مثلها..

آدمية؟

نعم.. لكنها لا تشبه البشر الذين نعرفهم، إنما يمثل حضورها فى منطقة بين الإنسانية والحيوانية، نحيلة، طويلة، سامقة العنق، أنفها منقارى التكوين، فمها ياقوتى مفصص، شعرها طويل زغبى، يداها مفرطتا الطول، متعامدتان أمام صدرها المستدير المدبب!

شىء لا يبين أجج ندمى وجزعى، غالبت أمرى، فى هذه اللحظة أدركت مغزى الابتسامة الدائمة، فمهما تعاقب علىّ لا يبدو منى شيىء، لم أصدر أمرا بإنهاء اللقاء بسرعة، إنها مقدسة وتعد من أسرار الإقليم المنيعة، فارقت موضعى متجها إليها ومثل ذلك لا يجرى إلا لمن يدانى مقامى أو يفوقه، دعوتها إلى الجلوس فحطت كفرخ مبلول، اقتربت من ركن الأريكة الأرجوانية خائفة تترقب، قعدت فى مواجهتها أقل درجة مما هى عليه، وهذا لا يكون إلا مع كبار العلماء، لم أفصح عن عذر أو سبب، لم أبرر إصرارى على استدعائها، إنما استفسرت عما ترغب، عما يمكن أن أفعله لأضاعف راحتها، غير أنها لم تجب، فى أثناء تطلعى شغلت بالبحث عن شبه ما ينتمى إلى آمر القافلة التنيسى، لكن وقوف الكينونة على حافتى البشرية والطيرية حيرنى حتى إننى عندما أستعيدها لا أقدر على نسبتها إلى شبه محدد، بل أجد فى قسماتها قبساً من كل وجه مر بناظرى، لكم رغبت فى محو كل أثر لها عندى، إذ تنتابنى رعدة كلما استعدت ارتجافها وذعرها المحير، ليتنى لم أقدم!

حدة النقلة..

حدثنى أحمد بن عبد الله، هداه الله، قال:

قرب انتهاء المدة الأربعينية نز قلقى، صرت متطلعًا إلى ما سألاقيه، ما يتنظرنى، أمضنى الوقت، وصعوبة تمييز الليل من النهار داخل القصر، ربما لإسدال الستائر على كافة المنافذ وسيولة الضوء خفى المصدر، ثمة نوافذ تطل على حدائق ممتدة، لولا تنبيه القيم لظننها مساحات غناء، دهشت لقدرة من صاغها وخطها ولونها، أشجار وأزهار وأصنام صغار، بعضها مرمرى والآخر من الصوان الحالك، هذا كله مجرد مشهد متقن.

هل اختل إيقاع الزمن؟

ربما. لم أستفسر، أحجمت عن التساؤلات إلا عند الضرورة أو إزاء المفاجآت التى لا أجد لها تفسيراً، حتى أوحى بعلمى وإحاطتى، ثمة سؤال داخلى لم أقدر على منع حومه فى أفقى.

كيف أتصرف إذا فاجأنى الهاتف؟

ماذا لو تردد فجأة؟

عكر ذلك رسوخ أمرى، وبدء صفوى، واستقرار ظرفى، لأول مرة فى وجودى ألقى كل ما أرغب رهن إشارتى. كانت النقلة حادة كاجتياز فاصل بين ظلمة طامة ونور باهر.

كنت أخشى بزوغ الصوت الذى يقلل كينونتى، ولا يدعنى إلا إذا لبيت، وصرت طوعه، من واقع ما مررت به، أدركت أنه لا يباغتنى إلا فى لحظة لا أتوقعه فيها، ينصرف عنه فكرى، وتنعدم خشيتى. حتى أدفعه شرعت فى استحضاره باستمرار، لكن هذا صعب، هل أضع نصب عينى، أينما وليت بصرى ما يذكرنى به، بحيث لا يغيب عنى أبدا؟

وماذا عن لحظات ما بين النوم واليقظة؟ . ماذا عن ضرورة انتباهى لوضعى بين القوم، العمل على فهم ما غمض على، جلاء ما يحيطنى، المهم. . أضمرت النية على استمرار حالى الذى وصلت إليه بعد مشاق، ودرء ما يهدده، ليس الأخطار المحسوسة، ولكن ما لا يمكن فهمه وإدراكه أيضا . .

أقول أنا مدونه جمال بن عبد الله إنه عند هذا الحد بدا صاحبى حزينا شرودا، لم تعد الابتسامة الدائمة كافية لمواراة ما يمر به وما يطفو على ملامحه، أبدى الرغبة فى الخروج إلى المدينة، ورؤية معالمها التى لم يعرف منها إلا الجامع الكبير ودار الضيافة، وطرقا ونواصى مبهمة.

قال إن الموضع لا يعرف حقا إلا من خلال زمنه وبشره إن وجدوا، ارتحت إلى رغبته، لنرجئ التدوين قدراً، مع تلهفى على معرفة حاله، خاصة فى هذا الطور الغريب، لكننى حرصت على ألا استنطقه، إنما أدعه يسترسل، يقول ما عنده كما يشاء. وبين الحين والآخر أنبهه، أو أبدى استفسارا خافت النبرة، هذا ما لزمته، آثرت صحبته، أن أرافقه، ليس لمعرفتى بحاضرة البلاد ومعقلها، بل لأننى أردت الاقتراب منه ورصد ما يكون منه.

بدأنا فى الصباح، أوصيت من يحملونى بمجاراة خطوه، ألا يسرعوا فيتجاوزوه وألا يتمهلوا فيتخلفوا عنه، هو أبدى حرصا، وكثيرا ما تطلع ناحيتى فى أثناء مشينا ليطمئن إلى صحة وضعى، والحق أننى تأثرت لذلك.

حدثته عن السور الحصين، تتخلله أربع بوابات، كل منها يواجه ناحية، أما الغربية فتؤدى إلى المحيط مباشرة، أبدى اهتماما بطول السور وسمكه، والأبراج القائمة خاصة عند أركانه والبوابات الثلاث المؤدية إلى البر، لكنه لم يذكر بوابة المحيط. ولم يفتنى هذا.

قلت إن المحيط مصدر خطر دائم، منه يجيء المجوس والقراصنة، كثيرا ما ظهروا فى فترات مختلفة، وحاولوا اقتحام الحاضرة التى يعرفونها عندهم بمرسى غارب، كما تعرف أيضا فى الأقاليم الجنوبية، وحدث منذ قرنين من الزمان أن نجحوا فى المباغتة، ونزلوا عند الشاطئ الصخرى شمال غرب السور، واقتحموه، وتمكنوا من الحاضرة حتى صار القتلى فى الطرقات، ونهبوا وسبوا، لكن مقامهم لم يدم وإن احتاج الأمر إلى عشرين عامًا لإخراجهم عنوة كما جاءوا عنوة، وردهم إلى البحر الأعظم.

هذا أمر يطول شرحه، وتفاصيله مبثوثة، مسطورة فى المدونات وكتب التاريخ، بعد تلك الواقعة، أعيد بناء السور وتحصينه، كما شيدت الأضرحة للصالحين، المشهور أمرهم، عند كل ركن من السور ضريح، عدا الجهة المطلة على البحر الأعظم، هناك ثلاثة يرقدون تحت قباب خضراء ترى من بعد سحيق، كما يؤكد البحارة الذين أوغلوا.

توقفنا عند البوابة الشرقية، تطلع إلى ارتفاعها، وإلى المدخل الممهد

ومصـراعيهـا الثقيلين، المغـطيين بالحديد والنقش النحاسـى البارز، طفنا بضريح سيدى عبد القادر، ورد إلى ديارنا من المشرق، وفى الليالى التى يكتمل فيها القمر يسـمع صوته من داخل القبر إذا ألقى السلام عليه من عابر سبيل.

اجتزنا العتبة المؤدية إلى الداخل، هدوء فى سائر عناصر الموجودات، رقة فى الضوء، فى الفراغ، فى وجـوه الخلق، حطوا بى فى مكانى المعتاد عند قـدومى لـلزيارة، إلى يمين الداخل. حـيث أقـيم صـلاتى ، وأبدى نسكى، وأتأمل ما كان منى وما يمكن أن يكون.

تقدم صاحبى صوب الضريح، مبـاشرة كأنه اعتاد القدوم، لم يتطلع إلى الأركـان، إلى السجـاد الأخضـر، والستـائر المسدلة، إنما ركع أمـام الضريح وصلى، ثم قـعد القرفصـاء، وبدا متفـائلا، متداخلا فى نفـسه، كأنه يود أن يتوارى، أو يلزم منزلة جد خفيضة، اتخذ رأسه وضعا مائلا، ينظر إلى أسفل ولـم يبدله من صلاة الظهر إلى العصر.

بعـد انصرافنا سـألنى عن الرجـال المتمـددين، الراقـدين عند الجهـة الشـماليـة من الضـريح، قلت إن هؤلاء يجيـئون من النواحـى القريبـة والبعـيدة من الجبال والـوديان، يتمددون ثلاثة أيام عند تلك الجـهة على أمل أن يروا أحبتهم الذين فقدوهم فى المنام.

لم يخف على هـدوء نزل عليـه، وسكينة شـملتـه، أبدى رغـبـة فى الرجوع. التـقينا فى المسـاء وكنت المتحـدث وهو المصغى، أخـبرته بأيام الحاضـرة البهيجـة، رؤية هلال رمضان، وأول أيام العـيد، وليلة النصف من شـعبـان، وغيـر ذلك من الأعيـاد والمواسم، وأعـياد مـيلاد المشـايخ المباركين الراقـدين على أطراف المدينة، أكبـرهم، الوحيد الذى يقـصده

سكان الجزر القريبة، عيد مولانا وسيدنا محيى الدين المسمى بشيخ البحر، يظل ضريحه عليه وقبته الأكبر والأشمخ، يستمر سبعة أيام.

حدثته عن ركوب السلطان، وصلاة العيدين، واحتفالات نزول المطر، وقدوم القصاد الأجانب، والفرح الذى يعم بوصول رسول من المشرق، والحفلات التى تعقب ختان الصبية، كذا الخطبة والزواج، لكل عادات وأصول، لكن المناسبة التى تجمع القوم يوميا، وما من شبيه لها فى سائر الأمصار. فميعادها غروب الشمس. إذ يخرج كل أهالى الحاضرة، بشيوخها وأطفالها ونسائها. لا يتخلف إلا من أقعدهم المرض أو الحبس القسرى أو أداء الخدمة، يتجه الجميع إلى الجانب الغربى من السور، يجلسون على شرفات تبرز منه، أكبرها تلك المجاورة لضريح سيدنا محيى الدين الذى يعتقد الناس أنه جمع بين أهل البر وسكان البحر، إذ تزوج والده التقى الورع من عروسة البحر المقيمة فى أعماق المحيط، وذات ليلة وضعته قرب الصخور التى يتخللها الماء، ولأسباب يجهلها الكافة تركته عند الكهف المغمور نصفه فى المحيط وأعلاه فراغ مقوس كالقبة.

يقول البعض إن أهلها رفضوا وليدها الغريب عنهم، وقال آخرون إنها لم تصحبه إلى الأعماق لأن نطفة الأب غلبت عليها فجاء طبع المولود أقرب إلى ناس الأرض، وقال شيخ من الجبال الجنوبية إنها أحبت زوجها البرى فأرادت أن تقربه من ابنه حتى يذكرها باستمرار، وكلام الناس فى هذا كثير، شائع.

نما المولود فى كنف أبيه، وكان عبدا صالحًا، تلقى العلم فى الجامع الكبير، وسافر إلى المشرق فجاور فى مكة وزار الشام وأمضى فى طريق عودته زمنًا فى الأزهر، رجع وقد حصل علوم الأولين، وله تفسير

وتأويل معروف لسورة القصص، اشتهر عنه حبه للبحر،وبعد عودته من المشرق كـانت له خرجـات وسرحات فى قـوارب صغيـرة، يوغل زمنا طويلا حتى يعتقد القوم أن المحيط ابتلعه وأن خبره تم. ثم يفاجأ الجميع بقـدومـه فى وقت لا يتـوقع فيـه إى إنسـان ظهـور أدى جهـة المحـيط، كأوقات العاصفة، وتكاثف الضباب.

اعـتقـد فيـه أهل البلاد وأيقن سـكان الحاضـرة أنه يمضى للقاء أمـه وأنهما يمضيان وقتا يتناجيـان فيه ويفضى إليها بما كان منه وما ينويه وأنه أوصاها بناس البلاد، خـاصة حاضرة السلطنة، لذلك اعتبـره الصيادون حاميـهم وبركتهم، فـلا يخرج واحد منهم إلى الصيـد إلا إذا مضى إلى قبـة سيـدى محيى الدين، ومن لا يقـدر يبسط يديه قـبل نشر الأشرعة ويقـرأ الفـاتحة،ومن يفـتـه هذا أو ذاك يعـد إقـدامه على خـوض اللجـة مخاطرة.

هذا معروف، مجرب ..

المهم أن النسـاء لهن فـيـه نصيـب، إذ تتجـه العـاقـرات، اللواتى لم ينجبن، ويتـطلعن شـوقـا إلى إينـاع البـذرة فى أرحـامـــهن يمضين إلى الصخور، ويقفن عند الكهف فـى وقت معين، قبل بوزغ أكليل القرص الشمسى، يتجردن من سراويلهن، ويـرفعن ثيابهن، ويعرضن أجسادهن لمياه المحيط، لا يـسعين إلى الغمر، ولكن يتـخذن أوضاعا معـينة بحيث يطال رذاذ الماء فـروجهن، إذا كـررت الواحـدة منهن ذلك سبع مـرات، وفى كل مـرة طالتهـا زخات الماء، فـإنها تحـمل وتضع مولوداً ذكـراً فى الأغلب بإذن الله تعالى.

لم يخف علىّ إصغاؤه المعـمق قبل ذهابنا إلى ضريح سيـدى محيى الدين، سألنى..

« لهذا دفن عند شاطئ المحيط؟؟ »

قلت : نعم..

تابع مستفسرا

« أتظن أنه يواجه البحر أو موضع المغيب؟ »

فوجئت، قلت إنه قبالة الاثنين، ولكن بعض الصيادين يقولون فى جلساتهم خلال الأيام التى يشق عليهم فيها الطقس، يرددون فى مقهاهم أن الشيخ له ضريحان. مرقدان. الأول فى البر عند السور، والثانى فى أعماق المحيط. وأنه يتنقل بينهما، أسبوعا هنا وآخر هناك، وأنهم يسمعون صلاته ودعاءه من أجلهم عند اشتداد العاصفة.

الحق.. أن إصغاءه بلغ ذروته، حتى أقول إن ابتسامته كادت تتوارى إلى حين، مع أنها لا تخفت فى نومه.

لن أنسى أبدا لحظة وصوله إلى الحد الغربى للمدينة، بعد جوسنا خلال الزنقات الضيقة التى لا يتسع بعضها إلا لمرور شخص واحد.

عبورنا أمام الأبواب المغلقة، والمواربة، والنوافذ الحاجبة لحيوات شتى، عبرنا الساحات والميادين، وحومة السوق، واجتزنا الطريق العريض أمام القصر السلطانى المهيب، تطلع إليه وتوقف بعض الوقت، ولا بد أنه تذكر ما تذكر واستعاد ما مر به وكان، هذا ما خمنته، لكن هذا كله فى جانب، ولحظة وصوله إلى الحد الغربى، فى جانب. يمتد السور ليحجب الحاضرة عن المحيط، ولكنه لا يقطع الصلة أبدا، بل يقيمها أيضا، فوقه يمتد ممر يتسع لاثنين يمشيان متجاورين. يحده قوائم متوالية، متجاورة، تتخللها فراغات ضيقة، تتيح للجند رؤية مهاجميهم

واكتشاف أوضاعهم مع البعد قدر الإمكان عن الخطر، ثمة أبراج دائرية على مسافات متساوية، وفى الليالى الحوالك العاصفة توقد النيران أعلاها لهداية سفن الصيد التى تأخرت عن العودة. الصخور التى تتخلل الشاطئ المحاذى للسور تمنع اقتراب السفن وتحوشها، أما مراكب الصيد فمرساها خارج المدينة، عند الطرف الشمالى الغربى، أما الشرفات فتبرز إلى الخارج، مستندة إلى صخور لم تتغير أوضاعها منذ دبيب الإنس والجن فوق تلك البقعة المباركة.

أفسحها تلك المجاورة لضريح سيدى محيى الدين، أطولها أيضًا، وعند ظهور الخطر لا يقترب منها إلا السلطان وقادة جيشه، ولكنها لا تخلو حتى فى الليل من بعض الساهمين، الراغبين فى الانفراد، أما ذروة الزحام فتلك اللحظات التى أشرت إليها عندما تخرج المدينة للمثول أمام غروب الشمس!

حدثته عن صمت القوم، وشخوصهم إلى المغيب صامتين، وملامحهم تنطق بترقب وخوف وأمل فى رجوع الشمس مرة أخرى، أستفسر مطولا عن تلك العادة، عن الإخوة الثمانية المغرر بهم، لم يبد اهتماما بالأضرحة الأخرى، قرأ الفاتحة عند مقام السيدة الصالحة أصيلة. ولكنه لم يبد فضولا، وتوقف قليلا عند مقام سيدى الحافظ وسألنى، من أى بلدة أندلسية هو؟

حدثته عن خروج الناس إلى السور لمشاهدة هلال رمضان،وإحاطتهم بالقاضى، و انطلاق الزغرودة الأولى لحظة التأكد من رؤيته، ثم انتقال الزغاريد من السور إلى الأسطح، حتى شمولها المدينة، ما أغرب ذلك، عندما يمتلئ الفضاء بتلك الأصوات القديمة السارية التى تمس حافتى الحزن والفرح.

قلت إن للمدينة أصواتها الخاصة أيضا، فمن ذلك هدير الأمواج وارتطامها ثم ارتدادها عن السور، وسريان الرياح الخريفية التى تشبه الصفير المتصل خفى المصدر، والهواء الممدود الطويل، المنقطع أحيانا فى الشتاء. ونزول المطر، قطراته النحيلة، والثقيلة، المتقطعة والمتصلة.

أصوات بعضها أزلى، منها ما شكلته المدينة وطوعته عبر فرجات البنايات وزواياها، والمنحنيات، والجدران المتعامدة، عاينتها، وأطلت الإصغاء حتى أدركت الفروق، دونت ملاحظاتى حتى صارت مرجعا فى معرفة أنواع الرياح وعلاقتها بالأوقات. وقفت على ثبات الدورة وتماثلها.

قال إنه يود لو أصغى إلى زغاريد النساء عند رؤية الهلال، واجتياز أصدائها إلى الوديان وصوب المحيط.

قلت إن رمضان يقترب، وسوف تنطوى الشهور الأربعة بأسرع ما نتصور. وعندئذ سيرى أجمل أيام المدينة، حاضرة بلاد الغرب.

تطلع إلىّ صامتًا، ابتسامته مظللة بسخرية عينيه وشكوك فؤاده، لكم استعدتها فيما تلا ذلك، وأدركت منها أموراً لم أفهمها فى حينه.

لم يبد الرغبة للخروج فى اليوم التالى، وبدا راغبا فى التجوال منفرداً.

وكأن صحبتى له مجرد مفتتح، اطلعت على مادونه وقدمه إلىّ.

تماما كما فعل عندما رغب فى تدوين لقائه بالواحية التى أصبحت امرأته.

وإنى لمورد ما سلمه إلىّ، كل وفقا لما رتبه، أما الآن فأنثنى مستأنفا حديثه إلىّ، وكان ذلك صباح اليوم التالى لخروجنا معا وهذا نصه..

للشكل عبرة..

. . اخترت التأنى، فى المشى، فى الالتفات، فى النطق، عند الحديث إلى الآخرين، أيضا فى التدبير، ممن قابلتهم فى عزلتى الأربعينية رجل متوسط العمر، يتقن تقليد الإنس والحيوان، والرياح وحفيف الشجر وخرير الماء، وهسهسات الحشرات، كان ذا مقدرة على تقليد خمسة أشخاص في وقت واحد، مختلفين، متباينين، ألسنتهم مختلفة، تسمعه فكأنهم ماثلون، متناقشون، أيضا كان بارع الغناء مليح الصوت، متمكنا من النغمات والمقامات، قادرا على إثارة الطوب وتحريك الشجى فى وقت واحد، أمضى فى صحبتى جلستين طويلتين .

استعرضت بصحبة القيم طرقا شتى للسير، لرفع اليد بالتحية، كيفية النظر إلى الوفود والرسل .

قال القيم إن أى إشارة منه ستبقى عالقة بذهن من يراه ولو للمحة، خاصة فى الاحتفالات التى تعد من رسوم الإقليم، وأهمها المبايعتان، الأولى وتعرف بالصغرى، موعدها ثابت، موافق ليوم ظهوره من جهة الشروق . والثانية الكبرى وتقام في أي يوم، لا وقت محددا لها، والغرض منها الإشارة إلى يوم غيابه الأبدى المجهول، ولإظهار حرصهم على بقاء ذكراه فى أفئدتهم حتى وإن حجب اسمه لفترة بعد اختفائه .

أقول الحق أننى أخفيت امتعاضى وضيقى لمجرد خاطرة رحيلى واندثارى، لكننى لم أسفر لجهلى حتى الآن بكافة معتقداتهم، وحتى أخطو جيدا يجب استكشاف الأرض التى أعيش فوقها وأسعى فى أرجائها.

استحسنت أداء المشخص وأثنيت على مهارته ودعوته للتردد على مجلسى لأتسلى بما يتقن ويفعل.

اخترت التأنى سمة، والجدية مظهراً، والتبسط بقدر مع عامة الخلق، كما انتهيت إلى شكل التحية، لن أفرد ذراعى، لن أرفعها إلى أعلى، إنما أثنيها على هيئة زاوية، ألوح يمينا وشمالا بتؤدة.

قال القيم إنها تحية غير مسبوقة، ولا تسجل مثلها دفاتر الأيام المنقضية، إن اقترانها بالابتسامة الدائمة يضفى هيبة جليلة، لها ثقل فى الأنظار والعيون.

قلت إننى سأخالط القوم، أزور بيوتهم، أملس على شعور أطفالهم، وأداعبهم، آكل مما يأكلون، أذوق ما يشربون، الحق أننى كنت أستدعى بعضا مما يروى عن سيرة السلطان ركين رحمه الله وأكرم مثواه، وجعل لى نصيبا فى الوقوف على تربته يوما وقراءة الفاتحة، وأحتذى ما سمعت وما تبقى عندى. .

لم يخف علىّ تحفظ القيم، وحذره البادى، ملت إلى الأمام مضيقًا عينى وهنا شعرت بالابتسامة الدائمة التى قدر لى ألا أفارقها، لكن يبدو أن امتزاجها بالغضب وظهورها مع نذر السخط منى، أو التحذير كان يضفى هيئة غامضة غريبة ترجف من يواجهنى، ولكم كررت ذلك فيما بعد لأستمتع وأرصد ما ألحظه من ردود أفعال تتباين وتختلف.

تمامًا كما كنت أتطلع إلى ملامح الإناث عند مضاجعتى لهن واقترابهن من ذرا المتعة. قلت متمهلا

- إنى راغب أمرا. .

اتجه صوبى ببصره على غير عادته. أمرته باستدعاء أمهر قصاصى الأثر فى الديار كلها. سأجرى لهم اختبارًا، لى بهذا العلم إحاطة قصوى، أول ما سيقوم به بعد انتهاء العزلة الأربعينية الوصول إلى الواحة.

- هل جاء أحد بعدى؟

يهز رأسه نافيا بشدة. فوجئت به ينحنى مقبلاً الأرض أمامى، قال بصوت متهدج، إنه يوكد لى مرة أخرى. . لا أثر لأى واحة تلك الجهة، عقد يديه أمام صدره.

أى واحة؟ أى عين ماء؟ أى قوم لا يزيد عددهم أو ينقص؟ إنه يرجو ألا أفضى بذلك إلى أى إنسان، لا من الخاصة ولا من العوام.

- هناك واحة. . امرأتى هناك وربما طفلى. . من أى جهة قدمت إذن؟

هز رأسه مبديا أسى وخوفا.

يا أمير البرارى، يا رأس الإقليم، يا سيد القوم، أنت لم تقطع الطريق المؤدى إلينا فى ثلاث ساعات، إنما أنت تسعى إلينا منذ الأزل القديم، ألم تكن بذرة فى ظهر أبيك، وجدك، وجد جدك، ألم تبزغ من الشرق يا من تحوى نفحة الشمس القدسية، يا من تحمل ألم الجراحة بدون غيبوبة، أنت قادم من عين الشمس، من المشرق ومن أقلع من

الشرق لا يعود، لا ينثنى راجعا، لأنه متجه دائما إلى المغرب، هل رأى أحد من الخلق قرص الشمس يرجع من حيث أتى، من حيث طلع؟

بدا كلامه غامضا، خاصة إشاراته إلى المغيب، هل يعرف بأمر الهاتف الذى قلقل وجودى؟ خلعنى من مصر، أصلى ومنبعى، هل وصلت إلى الموضع الذى حدده الهاتف؟ ربما، تمنيت ذلك، هذا يعنى مكثى وبقائى هنا.

لم أشأ التراجع أمام توسله الممتزج بنصحه. ولكننى ركنت إلى راحة عجيبة. حتى ضبطت تساؤلا فى أفق وعيى، أى واحة ترغب فى العودة إليها؟ أى واحة؟. أخفيت ذلك. بل جادلته مؤكدا على بقائى فى الواحة وخروجى منها مضطراً.

قال القيم إن المسافة التى ذكرتها لا يمكن أن تؤدى إلى أى نقطة معمورة، معروف أن هذا الاتجاه يخلو تماما من أى عين ماء، أو أثر لزرع. قال إن خطوى لا يحسب بالزمن الذى يعرفه الخلق، فما يبدو أنه استغرق ثلاث ساعات أو أربع ساعات، يمكن أن يعادل بالحساب البشرى أربعين أو ثمانين سنة.

قال إن طول الإقليم بالعرض مسيرة ثمانية عشر يوما بالإبل، وأربعة عشر يوما على ظهور الجياد. طوله مقارب، لكن توجد ترتيبات خاصة تكفل اتصال المقاطعات السبع، والمدن السبعين، والمحلات السبعمائة والواحات الثمانى. بحيث تصل الرسالة من أقصى طرف إلى الناحية الأخرى فى أقل مما يستغرقه قيام وقعود!

تلك الوسائل من أسرار الإقليم، إذا رغب فى الاطلاع عليه فمنه الأمر وله الطاعة.

كرر تأكيده بخلو جهة المشرق من أى واحة، قال إنه يوجد من يعرف صحارى الدنيا، يحفظ اسم كل ذرة رمل.

أبديت عجبى ودهشتى، قال إن كل شجرة أيضا لها اسم، وكل غصن، والغمام السابح، والبروق والرعود، وما يبدو متشابها للنظر العابر فى حقيقته ليس كذلك، وأهل العلم فى الإقليم يشتغلون ويتوصلون، دنا منى، على ملامحه ابتسامة، قال:

ملكك يا أمير البرارى لا مثيل له، وعجائبه لا تنفد، وغرائبه مقصد للقريب والبعيد، أجناس الطيور المختلفة لم تقصده عبثا، وفى كل يوم تصيح كلها فى وقت واحد رغم اختلاف أصواتها إثباتا للأمر، يا صاحب النفحة تعطف على قومك واعرفهم.

بعد انحناء طال نسبيا قال القيم.

ـ الشمس تشرق كل يوم، لكن شمس الإنسان لا تطل إلا مرة، وبعد غروبها لا تعود أبدا..

الأقوال..

. . لن يروح من وعيي أبدا يوم خروجي، ركوبي لأولة مرة، كثيرا ما فكرت في لحيظة اندثاري، عندما أروح في جب الأبدية، أي صورة سترد، ستمثل أمامي؟

بالطبع لا يقين عندي، لكنها لن تخرج عن ثلاث، إما ناصية حارتي التي أمضيت فيها عمري الأول، جدار المسجد الخلفي، ونافذته المستطيلة ذات صباح شتوي مبلول بالمطر الليلي المتبقي.

أو لحظة مواجهتي الشسوع الصحراوي بمفردي بعد مفارقتي القسرية للقافلة، وإدراكي لأول مرة ماذا يعني العدم؟

أما لحظة مواجهتي الحشد فلا يضارعها شيء أخر.

لحظة عبوري البوابة الخارجية ارتج الأمر عليّ، إن خروج الخلق مجتمعين ثم وقوفهم مهيب للمتطلع، فما البال إذا جثوا راكعين؟. سمعت دمدمة أصواتهم وهديرهم ثم جلال صمتهم، كان جوادي نحيلا، مُنسبا، هادئا، يحسب خطوه رغم أنه لم يقربه أحد منذ ولادته، سلالة أصيلة لا يعرفها إلا من شغلوا مكاني، عندما اقتربت منه، وقف بمفرده لا يمسك أحد بلجام أو قيد، انحنى محمحمًا كأنه يعرفني، خفض رأسه لحظة ركوبي، وعندما خطا رفع رأسه يمينا وشمالا مختالاً، مزهواً.

بعد الخطوة السابعة سرى هدير، بدا خافتًا ثم تصعد مدمدمًا، فى البداية لم أدرك تماما، كانوا يرددون ثلاثا:

«عاش رئيسنا سيدنا».

«انظر إلينا لتحل البركة».

«بأرواحنا، بدمائنا، نفديك يا صاحب النفحة..».

الحق أقول، بعد زوال رهبتى، حط علىّ حال غريب، إذ رغبت فى الضحك بصوت مرتفع، أقهقه يعنى، إذن.. أصبحت ابن الشمس، المقدس، النورانى، كل هذه اللافتات من أجلى، تلك الانحناءات، كافة ما يصدر عنى يؤول، قاومت الضحك الموشك على التفجر، حدث لى مثل ذلك، فى زمنى المصرى حضرت مأتما وكان الحزن مخيما، الوجوم ساريًا، فوجئت بموجات ضحك تعبر داخلى لتهز كينونتى، أحد الجالسين تقدم منى، رفع يده، صفعنى حتى إن المرئيات اختلطت عندى.

لم يصدر عنى إلا الابتسامة الدائمة، لحظة خروجى من القصر أشرت رافعا الصولجان الشمسى، مجرد إشارة، صدحت بعدها الموسيقى النحاسية، ألف عازف، كل مائة منهم مختصون بآلة مغايرة ارتج الهواء، طبول، أبواق، بيارق رفرفت، أسراب طيور حلقت على ارتفاع منخفض، توالى بعضها فى ترتيب عجيب، غريب، أما السرب الذى ظللنى فلم يكن فيه طائر يشبه الآخر، وعد اجتماع هذه الأنواع من المستحيلات، لتنافرها فى الطباع، واختلاف مصادرها، كان يؤمها الطاووس الذهبى النادر، الذى بسط جناحيه فكان ما بينهما كافيا لتظليل خمسين رجلا.

رفعت يدى مرة ثانية، فقاموا أجمعين كأنهم جسد واحد، تذكرت جسد الفتاة المنحنى، تحليقى بالبصر على ردفيها المضغوطين لحظة وصولى، سرت عندى نشوة، وحدقت فى الوجوه لعل وعسى!

بعد أن كفت الموسيقى النحاسية أمكن للقوم النظر تجاهى، والتطلع إلى ابتسامتى وملامحى، بدء الموسيقى المنبعثة من آلات خشبية يعتبر إيذانا لهم، لقاء نظراتى بعيونهم، لا بد أنهم أجهدوا أنفسهم فى التطلع صوبى، محاولة رؤية سماتى.

أقول إن رؤية جمع كهذا مبهج، باعث للنشوة، لكن نفسه الحشد إذا اجتمع على شر يصير الأمر مخيفا، ما رأيته جلل، رجنى رجًا، وخلخل أمورًا طال استقرارها عندى، وأفسح الكوى والمنافذ لرياح لم أتوقع هبوبها يومًا على روحى.

حاولت استيعاب ملامح المدينة، مركز الإقليم، حاضرة البرارى، المبانى قديمة، شاهقة، أقواس حجرية تتخلل الطريق، أبواب هائلة لا تؤدى إلى شىء، الأرض مرصوفة بحجارة صغيرة ملونة، مشهور أمرها، طريق لا مثيل له فى عواصم الدنيا، عريض، تحفه أشجار نحيلة السيقان، أنوثية المنظر، ترسل شذى خفيفا، لطيفا، يحفز النفس على الخوض فيما لا يخطر على بال، إنه طريق المواكب، حيث تقام المناسبات العظمى، والاحتفالات، رأيت بنايات مرتفعة، وأبراجا، وحدائق معلقة، حاولت ألا انشغل بالمعالم النباتية، هذه الوجوه، تلك الملامح، مصائر أصحابها عندى، أرضى وأسخط، أرفع وأخفض، أقرب وأبعد، كلمة منى تشقى وكلمة تحفز، أين كنت من هذا؟ أين انتظرنى هذا كله؟ لو أن من عرفونى طفلا أو صبيا رأونى الآن لما صدقوا ولما استوعبوا.

أهذا كله من أجلى؟

بدون أن أدرى فاضت مشاعرى تجاه كل فرد فى الجمع، وددت لو صافحتهم فردا، فردًا، عاهدت نفسى على أن أجعلهم سعداء وأن يجربوا فى زمنى ما لم يسمعوا به، ما لم يعرفوه فى أزمنة الآخرين.

مما لفت نظرى لافتات معلقة بين المبانى، وعلى الواجهات، تحمل كل منها شعارات الإقليم وعبارات مثل.

«سلام على الجميع. .».

«الإنسان سيرة. .».

«أراض تشيل. . وأراض تحط».

كل الجمل مسبوقة بلفظين لا غير. . «من أقواله».

من؟ ما المقصود؟ بعد رجوعى إلى القصر، بعد المأدبة المقدسة التى حضرها كافة قواد الجيش، ورؤساء الطوائف، وشيوخ الحرف، وعدد من النساء ذوات المكانة، كلهم وقفوا صفا، عقد الواحد منهم يديه أمام صدره، يدنو، ينحنى مقبلا عباءتى عند الكتف، بعد انتهاء مراسم اليوم الأول سألت القيم عن تلك اللافتات.

قال إنها من أقوالى.

أقوالى أنا؟

نعم. . هناك ديوان مختص بذلك، إنه الجسر الواصل بين صاحب النفحة وشعبه، بين أمير البرارى وناسه، مهامه عديدة، منها إعداد التصاوير واستنساخها، وإبلاغ أوامره، ونداءاته إلى الخلق فى سائر أنحاء الإقليم، وهنا نظام معمول به مختص بذلك لا يعتمد الطرق

المعروفة، إنما لديه عدد هائل من المرايا المنصوبة على مسافات متساوية، كل منها تعكس ما يبدو فى الأخرى، هكذا تتوالى المرئيات، من واحدة إلى أخرى فى لمح البصر، وما هذا إلا أحد نظم ربط أطراف المملكة التى أشار إليها من قبل، الديوان يقوم بتسجيل كافة ما يصدر عنه من عبارات، واستخلاص معانيها وتعميمها سواء فى لافتات، أو تدرسيها للكبار والصغار فى معاهد العلم، النساخ يتولون إعدادها، وشرح مفرداتها لأطفال المدارس، وأيتام الزوايا، ثم تصفيف ما تم تجميعه، وفهرسته، وتبويبه، ونقله إلى لغات الطير، حتى يتم تلقينها لأسراب الحمام، والعصافير، والبواشق تساءلت، ما اسمه؟

قال القيم، كافة الدواوين تنسب إلى ما تقوم به عداه، اسمه يذكر مجرداً من كل صفة، فقط . . الديوان!

قلت إننى راغب فى الاطلاع على ما يقومون به ومراجعة العبارات المنسوبة إلىّ، لى صلة بأهل الإنشاء.

قال متلطفا إننى رب الحكمة، سيد فنون القول، ما يصدر عنى يحوى أصداء من النفحة، وأى لفظ عندى يجب ألا يؤخذ بظاهره كافة ما أنطقه يدون، هنا مختصون يدركون ما يجب أن يخرج إلى عامة الخلق، وما يجب الاقتصار على طائفة دون أخرى.

بسطت يدى فكف، قدر رغبتى فى الإصغاء حتى أزداد معرفة بهم قدر حرصى على إبداء شأن، إننى لست قادما من فراغ، أردت أن أدبر الشئون كما أبغى، ألا يكون بينى وبين القوم حجاب، هذه عبارة سمعتها مرة من كبير الواحة، أحقا مررت بها؟، أرجأت شكى، أقصيت التفكير فى عذارى، فى الفسطاط.

توقى إلى معرفة من أحكمهم جعلنى أنزع إلى التبسط، ما أكثر الحواجز التى تحول بينى وبين الآخرين، لكى يصل أحد الوجهاء، أو قاصد قادم رسولاً من بلد ناء، إلى مقر مجلسى، عليه اجتياز سبعين بابا تبدأ من مدخل القصر الأمامى، وتنتهى عند القاعة الأمامية المؤدية إلى مقرى، كذا أربعون ممرا، وثلاثون حاجزًا، ثمانى نقاط تفتيش، على كل منها حراس أشداء، يحملون على معاصمهم أنواعًا نادرة، مدربة، معدة من الطيور الجوارح التى تهاجم فور إدراكها شيئا ما، أخفاه صاحبه تحت الثياب، أو داخل الجسم، وثلاثة مراكز عليه أن يذكر عند كل منها الغرض الذى جاء من أجله، وليلقن ما يجب أن يقوله وما يفعله عند دخوله، ومثوله أمامى، ثم جلوسه بحضرتى، هذا كثير، ولكنه أمر متوارث، صعب تبديله، قال القيم إن أى قادم من قريب أو بعيد يجب أن يبذل جهدا، ويقطع مسافة، ويجتاز موانع حتى تقع عيناه على طلعتى، وعند دخوله قاعة جلوسى، يجب أن يمشى مسافة من الباب حتى مقرى، لا تقل عن عشرين مترًا مما أعرف، وإذا كان ذا شأن يمكن أن أخطو ثلاث خطوات فقط لأستقبله، أما العلماء وأهل الحضرة فأمضى لآخذ بأيديهم عند منتصف الطريق إلىّ، وأمد يدى داعيا إياهم للجلوس قربى، كل خطوة لها ترتيب، وكل تصرف له شروع وأصول يجب أن تحتذى، الحق . . أننى بدأت أعى مقدار الموضع الذى لقيت نفسى فيه بعد انتهاء عزلتى الأربعينية وليس خلالها، بدأت ألحظ عندى ما لم أتوقف أمامه من قبل . كنت أمعن النظر فى ذاتى من زوايا عدة، أحيانًا كأننى أتطلع إلى وجودى من مسافة، تذكرت مرارًا توقف امرأتى فى الواحة عند إشارة إصبعى، خاصة إذ يشتد لفظى ويحتد أمرى، جعلته من لوازمى، فتعلقت به الأبصار ورنت .

امرأتى . . أول أنثى ولجت عالمها، مع توالى الأيام وتمكن وضعى، واستيعابى، كنت أستعيد ملامحها فأحن، وأهفو، أرى هدوء محياها، نظرها المتمهل، تحننها علىّ فى أويقات صفوى، ميلها نحوى فى ليالى انفرادنا، إذا تقبل علىّ، تدغدغ جسدى بأنفاسها، توقظ فيه كوامن طال سباتها.

إذ أنفرد بنفسى بعد انصراف الوصيفات، وإغلاق المنافذ أود لو أنها بصحبتى، أحيطها بالأبهة، أتمرغ معها فوق هذا الفراش الغريب المحشو بالزنئبق الرجراج.

ما بين يقظتى ونومى، رأيت نفسى متجها إلى الشرق، حولى حرس غريب الهيئة، لكل منهم جناحا طائر بدلا من الذراعين، اقتفيت آثار قدمى، فى الرمال الناعمة، فى المواضع الصلبة، حتى وقفت عند بداية المرتقى الذى عبرته عند وصولى الواحة، لحظة رؤيتى القوم وكأنهم يتوقعون وصولى.

لكن . . فوق المرتفع لا أثر، ما من شجر، أو نخيل، أو مياه عذارى، لا ضريح لمغربى أو مشرقى، موضع قصاص الأثر خواء، استعدت ما علمنى، رأيت آثار قوم عاشوا هنا، فجأة رأيت جثث موتى ملفوفة فى شرائط من قماش قديم لا عهد لى بمثله، رءوسهم سليمة الشعر، بعضها تسفر الشفاة المنفرجة عن أسنان منتظمة، صحيحة، لم يمسسها سوء، عيون زجاجية، قادرة على النظر، التحديق الثابت المروع.

فجأة . . اهتز رأسى يمينا وشمالا، تراجعت مضطربا، تلك حركة لم ألمحها إلا من أمى فى زمنى المصرى الأول، عندما تبدى أسى، أو حسرة، أو انقطاع أمل، أيد دفعتنى، قاومتها، كنت راغبا فى عناق

أمى، لكننى لم أر إلا الأجداث، تهدجت أنفاسى، قمت مضطربا غير مدرك لما يحيطنى، بدأت أعى بعد مرور لحظات ثقيلة الوطأة قادمة من زمن مغاير، مختلف عن وقتى.

لا أدرى الصلة، ولا كنه العلاقة، لكن بعد هذه الليلة تكرر الحلم مرات، فى أماكن لم أتوقعها قط، ولكن الغريب أننى بدأت فيما تلا ذلك أشك فى مكنونى، ما أصونه عندى!

دمعة معلقة

حدثنى أحمد بن عبد الله الآمل حسن الختام فقال : عندما أذكر ما جرى فكأن الأمر يتعلق بشخص غيرى ، وكأننى لم أسمع ولم أر ولم أعرف رجفات النشوة أو هزات المواجيد ، إنما أخبر عن آخر انبتت الصلة به ولم يعد ماثلا عندى إلا كصدى أطياف نائية ، أما زمنى المصرى ، بدايات سعيى فتدخل دائرة التلاشى ، كافة ما سبق بزوغ الهاتف . كنت كلا متكاملاً ، متلائما ، لكننى مع كل مرحلة أقطعها باتجاه موضع مغيب الشمس أتعدد ، أنشطر ، منى ما يبدو واضحًا جليا ، ومنى ما تلاشى فلا أمل فى استرجاعه بالذاكرة حتى كأنى لم أعلق بأهلى يومًا ، ولم أتدثر بهم آمنًا ، ولم أقلق لتأخر أبى ، ولم يمضنى صمت أمى ، ولم أفرح بمقدم الأعياد ونحن صحبة ، كأن وصلاً لم يجر يومًا ، ما كان منى تذرى ، فياحسرة على العباد .

أقول أنا مدونه، الحق أننى فى شوق لسماع أخباره، خاصة بعد توليه أمور الحكم مصادفة، وتقلده الصولجان بلا سعى أو تمهيد، لكننى آثرت ألا أقاطعه، ألا أشوش عليه، كثيرا ما رأيت وسمعت فى صمته أكثر مما وجدته فى نطقه، لكم رصدت فى مآقيه معانى يمكن الإحساس بها ويعسر تفسيرها، أو إرجاعها إلى أصل أو معنى غير أن ما رقرق فؤادى

وجعلنى راغـبا فى القرب منه تلك الدمعـة اللامرئية المعلقة، دائـما قاب قوسين أو أدنى، لا هى مـتبلورة، ولا فى طور التكوين، أحيانا تـقترب، ومرات تنأى، وكـثيراً مـا تشف فيختلـط سواد عينيه ببـياضهـما، ولكن رؤية نظراته عند جلوسه أمام المحيط شجت قلبى، وكلمت فؤادى.

إن شفقـا يلوح عنده، وليلاً دانيا، وهيـاما صعبًا، وحـزنًا فريًا لـم أره عند طرف الشرفة الحجرية إلا مرة واحدة، صارت مقراً له ومثوى، حتى بدا أنه سيلزمـها، طال وقته أمـا البحر الأعظم قل مكثـه معى، لكننى لم أكتف بتدوين ما يمليه علىّ، إنما صرت متطلعـا باستمرار، محاولاً النفاذ وسبر الأغوار..

متى لاحت تلك الدمعة المعلقة رغـم الابتسامة الدائمة؟

هذا مـا لـم يفض بجواب عليـه، ولكننى لا أستـعيـدها إلا أوشكت على الشجى..

تمكن ..

.. حدث أحمد بن عبد الله فقال: عزمت توطيد مكانتى، وامتداد إحاطتى، ولاح منى ما أدهشنى فكأنى أعددت من قديم لهذا، آليت على نفسى كبح رغباتى، ليس عن خشية، ولكن عن ارتواء، فى كل أسبوع تهدى إلىّ عذراء لم تمس. وغالبا ما تكون أجمل قريناتها فى المقاطعة، أو المحلة، أو الجماعة، بعضهن فضضته، وقليلات انتظرن طويلا، لم أعد أمس كل من تحرك رغبتى، خاصة بعد أن فوجئت باعتبار الوصيفتين، أول من لامست وعرفت، ذوات حظوة ومرتبة، كل ما يخرج منى يحتوى النفحة المقدسة، أنا القادم من جهة الشمس ابنها، وموضع أشعتها. .

هكذا، هدأ حالى، كافة ما أشتهيه رهن إشارتى، كل ما تمنيته بالخيال صرت أحققه، وهذا يطول شرحه، المهم. . تمتين وضعى قبل كل شىء، وأول خطوة محاولتى فهم ما صغر أو كبر، أظهرت الهيبة، ليس من خلال إبطاء خطوى وتمهلى كما يرى القيم المسن، كنت أستعيد ما سمعته فى صباى عن السلاطين والأمراء، أمعنت فيما يخصنى، من ذلك إشارة إصبعى عند احتداد أمرى وعنف لفظى، أكثرت من التلويح به حتى صار علامة شائعة، دالة علىّ، تماما كنبر صوتى، وقسماتى، لكن الأعجب هو ظهور سمات السلطنة يوما بعد

يوم مع ممارستى للحكم وتقبلى خنوع الآخرين، طبعا لم يخل الأمر من هنات، بل. . هفوات، لولا مكانتى السامية لشاعت وعدت من سقطات الملوك، مثل تفوهى ألفاظا لا أنتبه إلى فظاعتها إلا بعد خروجها، هذا بعض ميراث النشأة الأصولية على الطباع المكتسبة، لا يجسر مخلوق على إبداء ملحوظة، فما أنطقه يتم الإصغاء إليه، يدون، ويعمل الديوان على الفور شغله، كثيرا ما نطقت جملاً لا أقصد منها شيئا، لا أشير من قريب أو بعيد إلى معنى قائم بذته، ثم أفاجأ باللافتات فى كل مكان، عليها الحروف الضخمة «من فكر مولانا». «من أقوال سيدنا». «من مختار كلمه» أو «هكذا تحدث ابن الشمس». عناوين ثابتة شتى تحتها ترد جملى وأقوالى، فيما بعد صرت أدقق فى اختيار لفظى، وأصوغ عامدا أقوالا أتوقف بعدها لأرى كيفية تقبلهم لها، أحيانا ألقى ما توقعته على ملامح أركان الدولة، وعناصر النظام، وأحيانا لا ألمح أى أثر، وإن سرنى انبهارهم ودهشتهم وخوفهم أو سرورهم بكل ما أقول، لم يعد لفظ يمت إلىّ يمضى بلا رد فعل، كذا حركاتى وسكناتى، لكن ثمة حيرة لاحت مدة من الوقت.

هل ألوم أهلى وصحبى فى مصر، ورجال القافلة، وامرأتى فى الواحة، وسائر من عرفتهم قبل مجيئى هنا لأنهم لم يتنبهوا إلى مأثور قولى وإلى ما يكمن فى خواطرى وشواردى.

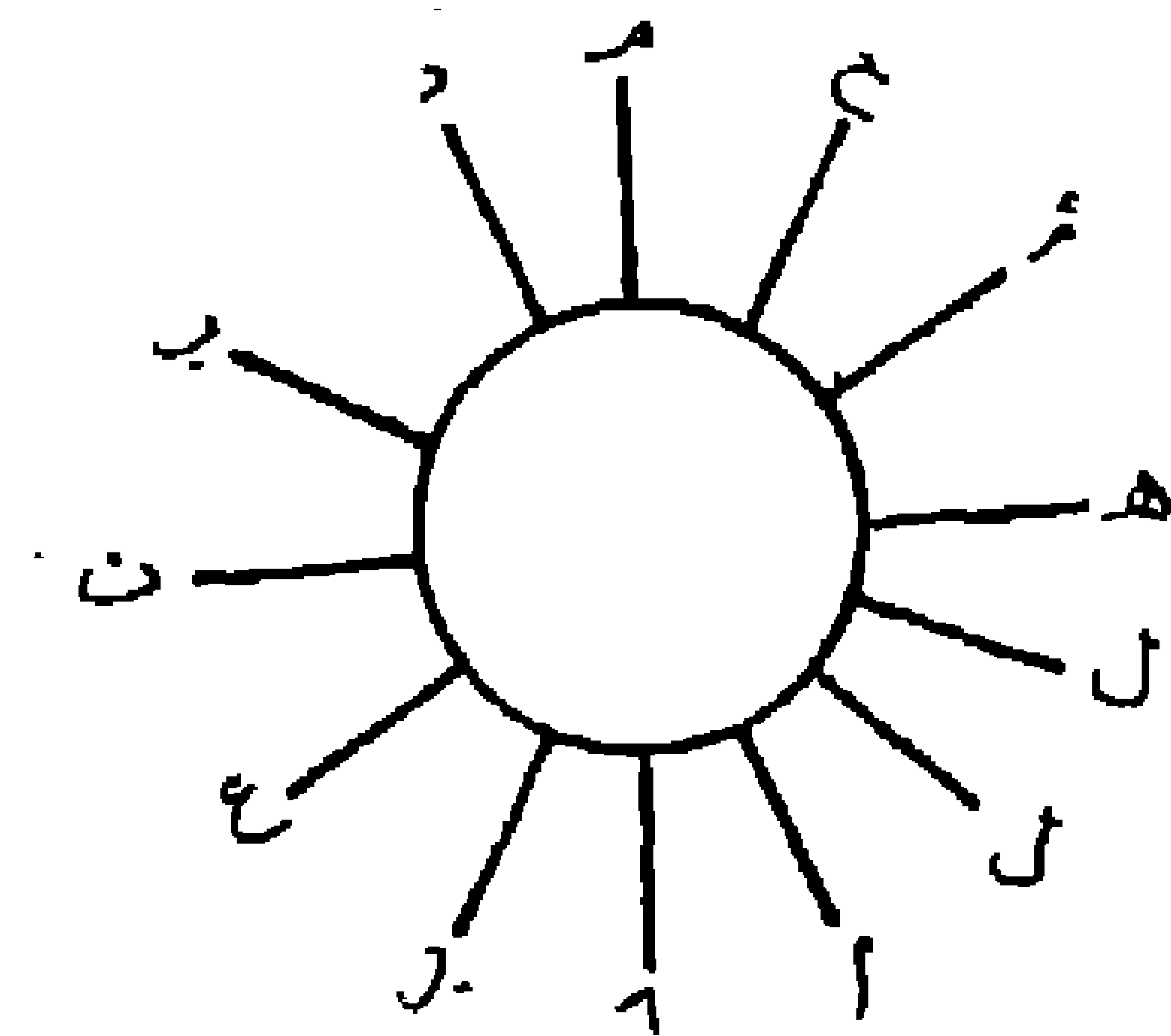
أو أسخر من ناس الأقليم، من شعبى الجديد، لأننى أتحدث كيفما اتفق، فيأخذون هم ما يتساقط منى ليجعلوا منه الدر والجوهر؟

لم أحسم، ولكننى كثيرا ما أسخر منهم ومن ذاتى وأسرع بكتمان أمرى، وماشغلنى حقًا الاستمرار فى تثبيت الحال، وتمكنى منه، ويقين

خفى أمضنى، أقلقنى، إن ما جاء فجأة سيولى بغتة، كما حيرنى أن ما أعتبره باعثا على الفرح أجده عنده مصدراً لكل هم، وما أخشاه يرونه مؤنسًا ورفيقا.

أقدمت على ما لم يعتادوه، وما لم يسمعوا منه، بدأت بإعلان إلى الكافة، العامة والخاصة، يفضى إليهم نيتى فى إشهار توقيعى، من اضطراب المقربين، وأولهم القيم، أدركت أنهم لم يعهدوا ذلك، قلت إننى سأتخذ شعاراً، يتم نقشه فوق جدران القصور، والمبانى التى أقيمها، وملابسى، وكافة ما يمت الىّ أو ينتمى إلى المملكة، أمرت بأوراق وأقلام، الورق يتخذونه من سعف النخيل، لحاء الأشجار، أما الأقلام فمن ريش الطيور، والمداد من عصارة حواصل عصافير جنوبية، رقيقة، ضئيلة الحجم، غاب عنى اسمها الآن.

جربت أشكالا شتى لشعارى، ثم خطر لى أن أرسم قرص الشمس، ومنه تنبعث خطوط أشعة، عند نهاية كل منها حرف من اسمى الأول، فجاء هكذا.



أما توقيعي فهذه صورته . .

فقط مجرد خطان متقاطعان ، عندما أطلعت القيم على ما انتهيت إليه أبدى سروراً عظيمًا ، انحنى مقبلا طرف عباءتى الصباحية ، إذن ، لست عنده وتراً ، ليس هو فحسب ، إنما عند القوم كلهم ، إذ رسخ يقينهم بانتمائي إلى الشمس ، هذا ما يقوله توقيعي ، وشعارى ، أخبرنى القيم أن الاحتفالات ستقام لمدة ثلاثة أيام إجلالا لتلك المناسبة المستحدثة .

بدأ الأمر داخل القصر ، توافد ممثلو الدولة وأركانها ، أول من قدم التهنئة وحمل صحيفة بيضاء مهرتها بتوقيعي قائد الجيش ، ثم قائد الشرطة ، ثم رئيس الديوان ، ثم مسئول الجهات الأربع ، وكبير علماء الشروق والغروب وهؤلاء مختصون بملاحظة الشمس بالمناظير المعدة لذلك وتتبع مسارها وأحوالها ، وممثلون للحرف والطوائف ، وكثير منهم أذكر ملامحه ولا أعى وظيفته ، وبعضهم تداخلت سماته وقسماته ، كان القيم يهمس فى أذنى باسم القادم وما يشغله ، وكان آخر من قدم التهنئة ممثلو البلاد الأجنبية أو كما نعرفه فى مصر بالقصاد ، وكان من بينهم قاصد ملك الصين ، والصقالبة ، وأمم قصية ، بعضها غير معروف فى المشرق أو المغرب .

طبعا أغرب ما مرّ بى عندما فوجئت بكبير الحجاب يعلن دخول قاصد صاحب مصر ، سرت عندى رعدة ، واعتصمت بابتسامتى الدائمة حتى لا تسفر ملامحى عما يعتمل عندى ، عندما ظهر لقيته

مهيبًا، حاضراً، عنده نورانية وثقة، انحنى فى غير مبالغة، لم يكن ممن أعرفهم أو سمعت عنهم، لكنه واحد من الذين لم أجرؤ على الدنو من موكبهم عند المرور أو الظهور فى الطرقات، حدقت وتمعنت، ولم أشأ انصرافه بسرعة كالآخرين، استبقيته لحظات، سألته عن أحوال مصر، قال إنه خرج منذ ثلاث سنوات فى سفارة متجولا. وإن طيور مصر كلها بخير، تتشوف وتتطلع.

لم أعلق ولم أعقب، وإن أضمرت الاستفسار فيما بعد من القيم، التفت إليه، أوصيته برسول مصر خيرا، اعتبر ذلك من اللفتات النادرة، ويبدو أن القاصد أدرك فبالغ فى انحنائه عند خروجه متراجعا حتى كاد يتعثر، بينما كنت أهفو إلى حديث طويل معه، وتنسم عبير وطنى الأول، ولعله يأتينى منه بقبس.

فيما تلا ذلك علمت أن الصلات القديمة، وأحد محاورها ومراكز ثقلها، عاشق الطير التنيسى، وقد وقفت على تفاصيل شتى ربما أورد بعضها إذا لزم الأمر.

علمت بخروج القوم للاحتفال بظهور توقيعى، وشعارى، رغبت فى الركوب، تطلع القيم إلىّ، لكننى لم أقبل أى ملاحظة، عندما تجاوزت أسوار القصر تظللنى النسور المقدسة وسرب الطيور المتآلفة، فوجئت بالحشد، هل يفوق ما رأيته يوم ظهورى؟، لا أدرى. . لكن كثافة البشر فاقت توقعى، معظمهم يرفع بيارق، يتدافعون محاولين الاقتراب عكس المرة الأولى التى ثبت خلالها كل منهم فى موضعه، على الجانبين اصطف الجند المدرعون يتقدمهم ضباط طوال القامة ينتمون جميعهم إلى مقاطعة جبلية فى الجنوب فلا يكون القادة إلا منهم.

اكتفيت بالتطلع المتمهل، حريص على الالتفات مرة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار، والتلويح بذراع نصف ممدودة، أخبرنى القيم أن تلك التحية غير مسبوقة، وأنها مختلفة عن الأولى، وأن أمراً سيصدر بمنع أي شخص من أداء مثلها، أومأت، لكننى لم أقل إننى تذكرت فوق الجواد شيخا حبشيا، كان مقيما فى رواق الجبرتية بالأزهر، كان قصيرا، نحيلا، إذا أقبل على الطلبة المتحلقين ألقى السلام ولوح هكذا، هذا الشيخ المسن الذى كان حجة فى علوم النحو والصرف، القصى عنى هنا، لا أدرى إن كان حيا يسعى أو قضى أمره لا يعلم أن حركة تلقائية تنتمى إليه، بعثت فى زمن ومكان مغايرين إننى سأحرك بها جموعًا، وألهب بها أفئدة، وإن أقوالا ستصاغ حولها، وقصائد تنظم فى وصفها، أما المثالون فسوف يتسابقون لتجسيدها عبر الرخام والحجر والنحاس والذهب.

ما إن وصلت إلى ميدان البرارى السبعة، مركز المدينة ومنه تبدأ الطرق إلى المقاطعات الرئيسية، حتى رأيت كثافة الجند، كلهم يرتدون الزى الحربى، شاكى السلاح، خلفهم يقف الرجال ذوو المعرفة بقرص الشمس، وأصناف الطيور، ومنزلتهم توازى الرجال الصالحين علماء الإسلام، أو قساوسة القبط، والعياذ بالله العلى الكريم، إنه غفور رحيم.

ما إن وصلت إلى مركز الميدان، ارتفعت النسور المقدسة، حط كل منها فوق شجرة على ناصية الطريق، ركعوا أجمعين، مست جباهم الأرض، رج صوتهم المدينة وفاجأنى..

«طال زمن سيدنا..».

بقدر ما داخلنى من رهبة، بقدر ما بدأ يترسخ يقين عندى أنه لى من الأمر شيء، وأن ما جرى لا يمكن أن يكون مجرد مصادفة.. أبدا!

ترسيخ الأصول
وتنوع الرسوم

. . أبدى القيم ما يشبه نصيحة، إذ قال إن مرات ركوبى وظهورى على الناس أصبحت متقاربة، ومن رأيه أن أهلّ على الخلق مرات قليلة، متباعدة، من الأفضل أن يسمعوا عنى أكثر من رؤيتى، أن يخمنوا ما سأقدم عليه لا أن يصغوا إلىّ مباشرة، وأن يتناقلوا أخبارى بينهم، كل يصورها أو يرددها كما يتخيل أو يتمنى.

رفعت يدى منهيًا . . مقاطعا، قلت إذا كان ما يذكره لى سنة الملوك السابقين فإننى رأس لا شبيه له، ولا مثل، طرقى خاصة حتى وإن بدت غريبة، غير مألوفة، إننى مسئول عن أحوال الناس منذ شروق الشمس وبعد مغيبها، قلت متمهلاً:

«لو أن عجوزًا مجهولة دعتنى ليلاً لما توانيت حتى أنصفها . . ».

مجرد عبارة قلتها عرضًا، فى ركوبى التالى مباشرة فوجئت بلافتات معلقة فى عرض الطريق، متدلية من فروع الأشجار، من نوافذ البنايات، على أبواب الوكالات والخانات، على جدران المبانى الشاهقة الحاوية لآلات رصد الشمس ومساراتها ودرجات حرارتها، حول أعناق الصغار الماضين لتلقى الدرس، ثم جرى إعلان للقوم، أن جماعة من أهل البصيرة قرروا عقد احتفال بالحاضرة الكبرى لدراسة

العبارة، وكلهم من الأفاضل، المتمكنين من علم التاريخ، والأصول واللغات، ومنطق الطيور، بل جرت دعوة عدد من حكماء الأقطار المجاورة، يقيم كل منهم على حدة، ويتسلم راتبًا معقولا، ويكتب رسالة فيما خفى وظهر من معان.

بعض العبارات يمتحن فيها صبية المدارس، ونفس الجمل يتم إجراء نقاش حولها مع طلاب الحاجات، والساعين للترقى، أو المتجهين للسفر خارج الإقليم وهؤلاء ندرة، بعض النساء وشمن كلماتى على أجزاء من أجسادهن، ذكرنى ذلك بإحدى محظيات سلطان مصرى فى الزمن القديم، عندما خلا بها وفوجئ بتعاويذ سحرية حول فرجها، ولما سألها، ما هذا؟ قالت إنها استعانت بساحر عجوز تخصص فى الطلاسم وعمل اليازرجة لكتابة عبارات جالبة للمحبة وقوة الشهوة، طبعا السلطان ثار وغضب، كيف وصل الرجل إلى هذا الموضع، متى انحنى، وكيف كتب؟ أمر بنفيه إلى الصحراء، هذه واقعة مشهورة يتداولها أهلى فى مصر، وكثيرا ما حدقت متفحصا أجساد من عرفتهن، لكننى لم أجد مثل ذلك!

سرور داخلنى، لا أنكره، عندما رأيت كل ورقة تحوى رسالة أو أمورا تخص تدبير الأحوال مصدرة، مسبوقة بعبارة ثابتة، مثل:

«من أقوال المرصد الثاقب».

«من حكم الشعاع الأسنى».

ثم يتبع ذلك أقوال منسوبة إلىّ، أذكر بعضها ولا أعى الآخر، أطلعنى القيم على قائمة تتضمن ثلاثمائة وستة وستين لقبًا، كلها تدور حول صلتى بالشمس قربى منها، علمى بها، قدرتى على فهم ما

يصدر عنها، خاصة رحلتها اليومية، المعلومة نهاراً، والمجهولة ليلاً، هذه الألقاب غير شائعة، تذكر فى المكاتبات والمعاملات والمراسم الصادرة إلى الجهات، ولا تتلى مجتمعة إلا فى مراصد الاطلاع! الإقليم كله مرتبط بوسائل مواصلات لا مثيل لها، الهدف منها إبلاغ ما أقول وعلمى بما يقال فى أقصر وقت، إلى جانب نظام المرايا، كان هناك الحمام المدرب، أقيمت أبراجه على مسافات متساوية، تأخذ الحمامة اللفافة مطوية تحت إبطها أو فى منقارها، فتسلمها إلى حمامة أخرى تنتظر فى نقطة معينة من البرج، ولهم تدابير عجيبة، أما الطرق الممهدة، السهلة، فتخترق أعتى الجبال، وتعبر الأنهار والبحيرات، عندى نموذج محكم لها يمكننى التطلع إليه فى أى وقت فأعرف حركة المسافرين، ومواضع القوافل أثناء حركتها، قال القيم مبتسمًا إنها عصب الدولة، وعماد السلطة، تساءلت عن خفارة الحدود، قال القيم إن النظام محكم وشامل، هناك القلاع الأمامية، والمرايا الهائلة التى تكشف أى قادم من كافة الجهات ليلا ونهاراً، إضافة إلى الطيور الحائمة باستمرار، قال إنه ما من طائر فى هذه الدنيا إلا وله بالإقليم صلة، ومنه مودة، إليه يتبادلون الذهاب حتى لو كانت من تلك الأجناس التى تعيش فى مناطق يستمر نهارها نصف العام، كذا ليلها.

قال القيم إن الأخطار لو أحدقت، واقتربت، فثمة طلاسم عدة، يبدأ عمل الواحد منها إثر الآخر، وهذا شأن قديم، أول طلسم فاعل، يحجب الإقليم كله عن الرؤية الإنسانية والحيوانية لفترة معينة، يتاح خلالها لقادة الجند لم شملهم وترتيب شئونهم ومفاجأة خصمهم.

كنت راغبًا فى الاطلاع على كافة التفاصيل، وبرغم ما يتضح لى يوما بعد يوم من مطلق أتحرك فيه، وأتقدم صوبه، إلا أن حذراً لم

يفارقنى، مازلت غريبا عن كافة ما يحيطنى، وإن بدأت أمد أصابعى هنا وهناك، فوضعى ليس مثله مثل، ولا مقابل له فى كافة ما سمعت أو قرأت عنه من نظم وشئون دول.

دعوت قادة العسكر، وتناولت معهم الغذاء الشمسى، وزرت مقارهم، وجالست العلماء والحكماء، وأرباب الطوائف، ورءوس قبائل نائية، فتحت أبواب القصر لقوم لم يتصوروا يوما أنهم سيجتازون بداياته الخارجية إلى الفناء المقدس، واقتضى ذلك إضافة قاعات جديدة، وفتح أخرى لم يطأها مخلوق، منذ زمن تعددت مرات خروجى وظهورى فى الطرقات، ووقوفى مع القوم البسطاء، حتى إننى تحدثت مرة إلى عمال بناء ونساء يبعن الخضر، أصغيت إليهم، الحديث إليهم، ولمستهم مباركًا، كنت أصلح الزوجة على زوجها، وأنهر الابن العاصى، وأرد الصبية عن إيذاء الحيوانات، وأعلنت المنطقة الشمالية مفتوحة للجراد الأخضر، فإذا نزلت أسرابه لا يمسها أحد بسوء، ولكن إذا ظهر الجراد الأصفر فيباد فوراً، وحرمت مطاردة الفراشات الملونة وأصدرت مرسوما باعتبارها مثل الطيور، وإن كانت أقل مرتبة.

كنت أشرف على وزن البضائع مستوثقا من سلامة الصنوج والموازين وقدّ أترجل عن جوادى لأستفسر عن أحوال الغرباء، بل إننى نهرت حرسى مرة لأنهم منعوا بائعا حاول الاقتراب منى، كنت أظهر فى الأوقات غير المتوقعة، على امتداد الليل والنهار كله، ولم أتخلف قط خروجى اليومى المقدس، الأول للنظر إلى شروق الشمس، والثانى عند غروبها، كثيرا ما شخصت واقفا متابعا القرص أثناء تحوله من صفرة إلى حمرة وغوصه عند الأفق، موضع المغيب كما يبدو من

هنا بل إننى استعدت مرات المغيب فى زمن نشأتى، عندما حملنى أبى رحمه الله وأشار إلى الشمس، قال إنها تذهب الأن إلى بيتها وتخرج منه أيضا، استفسرت منه: كيف؟. قال إنها فى شروق دائم، وغروب مستمر، لا تطلع هنا إلا وتذهب هناك ولا تغيب هناك إلا وتشرق هنا.

يومها بدا أبى وكأنه يتحدث إلى نفسه أكثر مما يوجه الخطاب إلى غر صغير، ولكن كلماته علقت بذهنى، وطوال رحلتى كنت أستعيدها، وفى كل مرة أجد فيها ما لم أكن أفهمه من قبل، ليس ما قاله لى فى هذا اليوم الذى غادرته وغادرنى، لكن أمورا شتى لم أدركها إلا بعد مفارقتى الواحة، أو عند دخولى الإقليم وفى الصحراء الشاسعة.

تريد مثلا؟

جلسة أمى، صمتها الطويل، إسنادها وجنتها على راحتها، كنت ألهو حولها، وأشاغلها، وتنحينى عنها بهدوء ورقة، لم أفهم، وعندما أصبحت هى فى اللازمن ونأيت أنا عن موطنى وصباى، رأيت عند استرجاعى لقعدتها ما لم أدركه فى آنيته. حتى إذا واجهت المحيط بمفردى أول مرة طالعنى وجهها القديم من الفراغ السحيق أدركت بغتة أن حزنها كان مُرًا، صعبًا، ثقيل الوطأة، أن صمتها الطويل أخفى عنى ما لم تشأ إزعاجى به، كيف لم أنتبه؟. كيف لم أفهم؟ لم أع؟. كيف أدرك كذلك بعد ما مررت به، بعد انقطاع السبل كافة؟ بعد وصولى آخر حد الأرض؟ فى أى لحظة ربما يدوى الهاتف فى كينونتى، يأمرنى باستمرار المضى غربًا. إلى موضع مغيب الشمس فلا يكون أمامى إلا التلبية، وخوض اللجة العظمى ممتثلا.

يمكننى الآن فهم بعض إشارات الشيخ الأكبرى عندما أصغى إلىّ فى الجامع الكبير.

قال إن الوجود الإنساني أكرى الشكل، دائرى، يبدأ من نقطة ويستمر الخط المنحنى حتى إذا اتضح الوضع. ودنا الفرع من الأصل وتم التلاحم وقع المغيب.

ألا يقول القوم فى أمثالهم القديمة، إذا اكتملت الناقة رحلت، إذا بدأنا نفهم ونعى ما كان منا، ما بداخلنا، نقلع بغتة، ليتنا نجىء مرة أخرى، لكن مع الفهم القديم!

تطلع خفى..

أقول أنا مدونه إن أهالى المدينة اعتادوا وجوده عند المحيط، فى الصباح الندى يمضى إلى مقهى البحارة الملاصق للسور، يتجه إلى مقعد من الجريد، ومنه يبدأ النظر إلى المحيط، إلى الزرقة اللانهائية، الخضم وفى أيام قدوم الضباب الكثيف من الأعماق اللامرئية يطيل التحديق مضيقًا عينيه، ولا يصغى إلى أى نداء أو خطاب. اعتاده أصحاب المقهى وروادها من البحارة، والهاربين من همومهم، وزحام الحاضرة الراغبين فى الانفراد، أو المنتظرين السفر النهائى صوب المغيب الأتم.

أخبرنى أحد العمال أنه كان ينتظر قدومه بعد طلعة الشمس مباشرة، تفاءل الجميع بابتسامته الدائمة، وطلته المبكرة، حتى حرص بعض الصيادين على لقائه قبل خروجهم تيمنًا، كان يقابله عند المدخل مقدمًا له ثمرة تين طازجة مقطوفة للتو، تحمل زغب النضج السوى، جسمها الأخضر الطرى متفتح عن قلب أحمر واش بالبذور. ثم كوب الشاى الأخضر المثقل بأوراق نبات النعناع الفواح، قال مراراً إنه يفضله ويبحث عنه فى كل موضع نزله.

طبعا لم يخبرهم بانتشار النعناع فى كل عنصر حوله أو يمت إليه خلال مدته الرئاسية، وربما لم يخطر على بال أحد من الرواد ما يمكن أن يجول بخاطره عند إطراقاته أو سرحان بصره ومدد صمته الطويلة. المهم

أنه أنس إلى المكان، وانتظم فى تردده عليه، وتحدث إلى رواده المعروفين وجلهم من صانعى الشباك وأدوات الصيد، وأهل المراكب المبحرة، وإلى هؤلاء أطال الإصغاء وأكثر من الاستفسار، عن النوات المدونة، مواعيدها وعلاماتها، وغضبات المحيط المفاجئة، وهذا الضباب الكثيف القادم من أعماقه، والمدى الذى يمكن الوصول إليه، والحد الذى يجب الرجوع عنه، والتمثال الذى يرفع يده محذراً، «لا خطوة بعدى»، وآخر نقطة يمكن رؤية طيور الماء عندها وهل حدث فى الزمن القديم أو القريب أن رأى أحد البحارة سربا أو طائرا منفردا قادمًا من الحد الغربى لأفق المحيط الأعظم؟ هلى جرى ذلك؟. ما أنسب الأوقات للإبحار وللرسو؟، وهل يختلف ترتيب النجوم فى العمق عنه فى البر؟، ما أنواع السمك؟ ماذا يطلق على كل صنف منها؟ أيها أكثر ذيوعًا وانتشاراً عند القوم؟ لم يتوجه باستفساراته جملة، إنما على فترات متباعدة، وعند إصغائه يميل إلى الأمام وابتسامته بادية.

دائما كان فى مواجهة المحيط الذى يمكن رؤية أمواجه من خلال الجدران المصنوعة من جريد النخيل، تمامًا مثل المقاعد، أما المصطبة الحجرية المغطاة بقماش من صوف الغنم فيتمدد فوقها أحيانا عندما تدركه القيلولة، كان يحجب عينيه بإسدال عمامته، من يره يظنه نائما، لكنه لم ينعس قط.

قال لى أحمد بن عبد الله فى لحظة تقارب، وإدراك كل منا للآخر، إن المقهى هو بوابة الدخول الحقيقية إلى المدينة. ومن لم يعرفه ويجالس رواده، لم يقترب من المدينة ودروبها غير المرئية. لكم أمضى بها من أوقات، عدا المغيب، قبله بوقت كاف يفارقها، إما يقصد الجامع أو يتجه مباشرة إلى الشرفة، يقعد عند طرفها. يثبت النظر على اللامدى. صار القوم يعرفونه، لا يقتربون من مكانه، حتى إذا شغله طفل صغير، أو

قادم جـديد، نصحه العارفـون بتركه شـاغرًا، فهذا مـوضع الغريـب. منه يرقب غروب الشـمس، يتابعه بنظر واجف، ومـلامح راحلة لـم تحجبـها ابتسامته التى كانت تلوح أسيانة، تنز حزنًا وحسرة لحظة دنوه وتحديقه.

عادة قديمة جدا خروج أهالى المدينة كلهم، الصغير قبل الكبير، خلو البـيوت تمامـا من ساكنيـها لحظة الغـروب، يقصـدون الحد الغـربى من السـور، يقفـون فوقـه، أو يروحون ويـجيـئون فى الطريق المحـاذى له، المنخفض والذى تطاله أمـواج المحيط فى ليالى ونهارات غـضبه وجلده للشاطئ الصخرى، قبل ملامسة القرص الدامى المياه الأبدية بثوان يكف الجميع عن الحديث، ينزل الصـمت على المدينة، وتحط الطيور فلا يسمع رفيف أجنحة.

كان ذلك فى الزمن العـتيق وحتى مدى قريب حـدثنا عنه الأجداد، ولكن تغيـر ذلك إلى حد ما، فلم يعـد الصمت شاملا، لا يلتـزم بها إلا الواقفـون فوق السور. وعند أبراج المراقـبة التى لا يوجد بهـا إلا عسكر مولانا.

حدثنى أحمد بن عبد الله. لطـف الله سيرته، وأراحه فى هجاجه إن كان حيا يسعى، أو فى مثواه إن كـان متمددا فى رقدته الأبدية، غفر الله له وغـفر لنا، قـال لى، إنه اسـتحـضـر المدينة التى بناها شـادى العمـائر المصرى، ابن عاشق الطير وشقيق آمر القافلة، قال إنه رأها وجال داخلها أثناء جلوسـه بين القوم أمام المحـيط قبل مـغيب الشمـس أكد لى ذلك وأملى على بعضـا من مشاهداته، لكننى أقصر وأثنـنى إلى ما وصل إليه وما عايـنه من أحوال غريبة، أمـا ركونه إلى الحد الغربى، ومـثول المدينة الغريبـة وتجوله فيهـا، فأرجئ هذا إلى حين لأنه دونه بنفسـه فى وريقاته التى تركها عندى.

أصول مستحدثة

.. حدث أحمد بن عبد الله فقال ما نصه .

أينما وليت القصد، لا أرى إلا لافتات خطت عليها أقوال منسوبة إليّ، أو لوحات تبرز رسمى، بعضها صغير، ومنها الكبير الذى يغطى واجهت مبانى مرتفعة .

عجبت . . كيف فات ذلك على رؤساء الديار المصرية، من سلاطين وأمراء وحكام نواح، لا بد أن القاصد سيرجع إلى القاهرة، يخبرهم بما رأى، يفضى إليهم بحرارة استقبالى، ومشاعر غامضة راودته عندما صافحنى، ألا يحن الدم إلى الدم، وألا يهفو الطبع إلى الطبع ؟، تمنيت الاجتماع به والخلوة، لكنى لم أقدم لأن المراسم المتبعة لا تسمح بذلك، ولأننى كنت أخطو فى بداية الطريق لم أقدم على كسر المألوف، وبعد مدة قصيرة طلبت السفير لتناول العشاء على مائدتى، فوجئت عندما أخبرنى القيم برحيله .

استشاط غضبى، فى صوت خفيض قال القيم إن النظام المعمول به يقضى بمدة معينة لكل قاصد غريب، ألا يزيد مكثه على واحد وعشرين غروبا شمسيا، كل ما أمرت به تم، إكرامه، والعناية به، وإعداد مئونة كافية له ولمن يصحبه .

أشرت بضيق أن يكف، فصمت، رحت أستعيد هذا القاصد الذى جاء من ديارى، بشكل ما يمثل موطنى، ولكنه رسوله إلىّ، فكأننى السامع والمسموع معًا، لكم فكرت فى ذلك، استفسرت عن موعد وصول السفراء مرة أخرى، فقال إن مجيئهم نادر لبعد الأقليم وصعوبة إدراكه وشسوع المسافة المؤدية إليه، كما أن الصلات مع أم الأرض طيبة، حسنة، تخلو من الحروب، والغزوات، عدا مرات الخروج إلى الهمج الذين يظهرون فجأة من الصحراء فلا يبقون على شيء، أما ما يربط الإقليم كله بنواحى الدنيا فالطير.

كظمت غيظى، وهنا يجب الإشارة إلى بدء ضيقى بالقيم، خاصة بعد إعجابى برسومى، ورغبتى فى انتشارها داخل البيوت، بالتحديد فى كل موضع، حتى غرف النوم. والحق أن المخادع كانت مقصدى. ولهذا سبب غريب لا أخجل من ذكره بعد انقضاء كينونتى واندثار وقتى الرئاسى!

ذلك أننى كنت متشوقا، راغبًا باستمرار فى الاطلاع على ما يجرى داخل البيوت، عندما يخلو المرء إلى نفسه، أو إلى أهل بيته، خاصة ما يدور فى المخادع، كثيرا ما تطلعت إلى واجهات البيوت المصمته، إلى النوافذ المغلقة، ترى.. ماذا يجرى خلفها؟. يقينى أن الإنسان منا يرتدى ثيابا غير مرئية عند خروجه لملاقاة بقية الخلق، سواء أولاده أو صحبه أو الخلق الذين يتعامل معهم فى يومه، خلال عمله أو عبادته أو سعيه هنا أو هناك، متى يكون الإنسان هو نفسه؟

حيرنى هذا، ظننتها لحظات وحدته، ولكن كثيرا ما يمعن الفكر فلا يمثل حضوره إلا بالجسد، حتى الجماع لا يحقق ذلك فى كافة

الأحوال، كثيرا ما يقدم الرجل وباله مهموم، بل عرفت أحوالا يضاجع فيها المرء امرأة وشبقه يتأجج باستدعاء أخرى نائية إلى مخيلته، جرى معى مثل هذا، عندما أقدمت نهما على الجميلات اللواتى توافدن على من سائر نواحى الإقليم حتى هدأ أمرى، ولم يكن يحرك رغبتى إلا استعادة انحناءة هذه الشابة البضة، الغيداء، التى توسطت النساء السبع عند ظهورى عليهن.

كل ذكر أو أنثى كينونة مفردة، لا تتشابه مع أخرى، بقدر ما عرفت من نساء خلال حكمى الإقليم كان تأكدى من فرادة كل منهن بدءا من الاستجابة حتى بلوغ الأوج وتجاوز الذروة، حتى الهمود. لكل طريقتها فى السكون والتطلع المرتوى.

ماذا يجرى فى البيوت الغميقة؟.

ممن عرفتهم رجل من البلاط الرئاسى، كان مسئولا عن أبراج الحمام المختص بالبريد، وهذا منصب جلل، مهم، لا يقل خطورة عن مهام الأمين الأول المكلف بتذوق ما يقدم إلىّ من طعام وشراب، عرفت أنه يخرج فى نهاية كل أسبوع إلى بيت صغير خارج الحاضرة، حوله حديقة متسعة كانت محطًا لأنواع نادرة من طيور البلاد الباردة، لا يذهب إلا وحيدا، يغلق المنافذ، يتجرد من ملابسه كافة، يبقى يومين كما ولدته أمه، يتطلع فى ذهابه ومجيئه إلى المرايا التى غطى بها الجدران ويأتى من الحركات كل عجيب.

تمنيت أن آتى من الفعال مثله، لكن ثمة يقينا بقى عندى أن حركاتى وسكناتى مرصودة، معدودة، لم أعرف المصدر، تماما كما لم أطلع على سائر نظم القصر، ومنها مثلا نظام الإضاءة الذى يتبع حركة

عينىّ، إذا فتحتهما يتدرج الضوء حتى ينير المكان، إذا أغلقتهما أعتمت الغرفة خاصة عند نومى، ومن الأمور التى أرهقتنى ضرورة بقائهما مفتوحتين خاصة عند استقبال الوفود والزائرين، ونظر المشكلات المستعصية.

فور إبداء رغبتى فى شيوع رسومى، تزايد عددها وتنوعت أحجامها، وبالغ البعض فعلقوها فى حجرات النوم، استدعيت اثنين منهم وهما من المختصين برعاية الفيلة السيامية النادرة، أثنيت عليهما، وخلعت على كل منهما عباءة من ريش البلبل العراقى، وهذا طائر يعز وجوده فى الإقليم، وشدنى إليه ما عرفته عن ظروف إتمامه الجماع. إذ يطير الذكر والأنثى فى عين اللحظة، هذا من جانب وتلك من آخر، وفى لحظة خاطفة، يلتقيان فى أعلى نقطة يمكن لجهدهما أن يبلغها. عندما يقع الاندماج، للحظة مارقة، تتضام أجنحتهما، يلج كل منهما فى الآخر، وفى العلو تبدأ الذرية، أى روعة؟.

طلبت رؤية ذلك لكن القيم عجز عن التدبير، فاللحظة فجائية، وربما تتم فوق غابة، أو جدول، أو فى فضاء نهر نمير، ولكن فوق قصرى مستحيل، لا يحلق حوله أو عبره طائر أبدا، وإذا اقترب سرب أو حمامة أثيرة، أو مالك الحزين بقصد التأمل فإنه ينزل فى الحديقة الأمامية، وقيل لى إن ثمة طلسما ينظم هذا.

المهم.. بعد تكريمى لهما، شاع الأمر وتسابق القوم فى اقتناء رسمى، وضعوه فى كل مكان، خاصة المخادع، وهكذا كنت أمثل حيث تمنيت دائما، ولكن بدون بصر يرى أو أذنين تصغيان، المهم.. أننى كنت فى كل مكان، حتى أتقن مصور من المقاطعة الجنوبية رسم

ملامحي على أساور ذهبية، وقلادات من فضة وفصوص زمرد وياقوت ومرجان، فأحطت بأعناق النساء كلهن، وتصدرت عمامات الرجال وفوق مواضع قلوبهم.

أعجبني ذلك.

ارتحت إليه، واعتبرته دلالة على اقترابي منهم، وحبهم لي في وقت قصير، ولم أسمع بشيء مماثل جرى لأي رأس ممن قدر لي قراءة سيرهم، أو المرور بأزمانهم.

شاع أمر المصورين جداً، راج أمرهم، واعتبروا ظهوري نعمة وعصراً ذهبيا لهم.

لكن.. لم يسترح القيم إلى هذا كله، بدأ صمته وطالت إطراقاته وتطلعه إلى رسوم السجاد المصنوع من ريش البجع البرتقالي عند جلوسه أمامي. لا شك أن تبدلا جرى في هيئته بالنسبة للأيام الأربعين التي لم أر خلالها شخصا غيره من رجال النظام!

الحق.. بدأ ضيقي به، خاصة مع كثرة إبدائه الملاحظات، وبعد تزايد إدراكي لما يحيطني، لكنني لم أظهر له ما أبطن، أمور عديدة أحتاجه فيها، كثير من الشواهد غامض عليّ، هذه الرموز، ومنزلة الطيور، والأيام المقدسة، ومراقبة النجوم، وتتبع الكواكب، وإناث وذكور وسط بين الإنسان والطيور، ورجال يتثنون متأودين في مشيهم، ولما كنت أحمد الله دائما على أنني لم ألط ولم يُلَط بي، أبديت حذري من ظهور هؤلاء، وأرجأت الاستفسار عنهم مع شئون أخرى إذ لم أشأ أن أتخذ موضع المتسائل على فترات متقاربة. لذا لم

أسفر له عن أى ضيق، ولكننى أثق من يقينه أن الصلة لم تعد كما هى، من ناحيتى حاولت إرجاع السبب إلى ظهورى وما ترتب عليه من مشاغل شتى، ومن جهته راح يشير ويلمح. لكن نبره ارتفع عندما نصحنى متلطفا بتقليل ظهورى على الخلق، قال إنه من المتبع هنا سماع القول عن الرأس أكثر مما يرونه، وأن يتخيلوه لا أن يلتقوا به.

قلت إننى أقدم على كل شىء بقدر، ما يبدو غير مألوف له لعلنى أبغى منه أمرًا، لم أكتف بتكرار الخروج والوقوف مع الخلق وإنما استحدثت رسمًا لم يتبع من قبل.

هودج الأماني..

. . إنما وسعت حركتى، لم تعد مقصورة على حاضرة الإقليم، كنت راغبا فى زيارة كافة المقاطعات السبع حتى الواحات النائية، مناطق لم يدخلها إلا الجند الصغار، أو رسل ديوان المكوس، معظم القوم هناك يولدون ويشبون ويرحلون، لا يرون من البلاد إلا المكان الذى جاءوا إليه من أرحام أمهاتهم.

أمرت بترتيب يقضى بمجىء وفود من سائر أنحاء الإقليم ليتعرفوا ويروا الاحتفال الكبير بيوم ظهورى، طوال مدة إقامتهم ينزلون ضيوفا علىّ، يخرج الطعام إليهم من مطابخ القصر، وعند عودتهم يزود كل منهم بما يكفى حاجته.

عندما قررت ذلك لم أفكر قط فى أى هدايا يمكن أن يقدموها، لكننى فوجئت بما لم أتوقعه، ذهب أخضر، مقعد لا يقدر على حمله عشرة رجال حفر من قطعة زمرد واحدة، أقفاص تحوى حيوانات لم أسمع عنها، منها سحلية لها وجه آدمى، وقردة تعزف آلات الطرب، وزهور لا تذبل إلا بعد عشر سنوات، وسلحفاة ضخمة يمكنها حمل عشرة أشخاص والمشى بهم، وأصنام صغار من معدن حالك، الواحد فى قبضة اليد لكن يعجز الأشداء عن حمله، أما العذارى فعبارة عن مباراة فى جمال الإنسانية.

من الغرائب توأم ملتصقان من الكتف، كلاهما متزوج، وقفا أمامي وإلى جوار كل منهما امرأته، أجابا على كافة ما رغبت الاستفسار عنه . . وغير ذلك كثير.

توكلت وأضمرت النية على تغيير مكان الاحتفال بحيث يقام كل سنة في مقاطعة مختلفة، مع الأسف . . لم يتم، المهم . . لن أسبق الوقائع ولكن ما أريد ذكره تلك الرحلات التي شرعت فيها.

مما اطلعت عليه حيوانات القصر النادرة، الأسود، الفهود، الدببة، الزراف، الغزلان بأنواعها، توقفت عند سبعة فيلة أصلهما هندي. من ديار الصبية التي صارحتني بمواقعتك لها، والتي أثق أنها تشغلك حتى الآن بعد نأيها!

أمرت بتدريبها وإعدادها، اختاروا لي أذكاها، كانت أنثى، عُرفت بالفيلة الرئاسية، جهزت بشكل خاص، فوقها هودج مربع الشكل، يمكن أن يغلق أو يفتح، مقصورة مبطنة بحرير محشو بريش الزرازير البرية التي لا يتجاوز الواحد منها حجم الأصبع، أما المظلة فهفهافة، تتموج مع أرق النسمات وتصمد لأعتى الرياح المصحوبة بالرمال.

تحت الهودج قماش سميك يتدلى على جانبي الفيلة، يحتوي على ثمانية جيوب كبيرة، داخل كل منها حشية مستديرة مزخرفة يقعد فوقها متربعًا من ينال شرف الركوب، بالطبع أولهم القيم، والثاني رئيس الديوان، الثالث والرابع من حرسي الخاص المقرب، أما المقاعد الأربعة الأخرى فلا يتخيل إنسان مدى السعي لشغلهما، لكم تابعت الحيل والألاعيب المبذولة من نفر ظننت أن منزلتهم تمنعهم من ذلك، ولكنني رأيت عجبا عجابا لن أفصله خوف الإملال.

فى البداية صارحنى القيم، هذا تقليد غير مألوف.

قلت إن زمنى لما لم يعرف من قبل.

قال إنه من الأفضل تخصيص فيل لركوبه مع البقية، وفيل للحرس، وركوبى بمفردى، لم أصغ، بل إننى تشاغلت عنه فى أثناء حديثه، ويبدو أنه أدرك فكف. لم أقل له إننى هكذا أحشرهم فى سترة الفيل تحتى. أجلس فوقهم متربعًا، وضع لم أختره عبثا، ولم أصممه عرضًا.

الحق يا أخى العزيز أن الله فتح على بما لم أتصور صدوره عنى يومًا، بل إننى كثيرا ما توقفت مراجعا نفسى، أحقًا هذا تخطيطى؟ كأنى ولدت فى سدة الحكم، كأنى لم أجد نفسى فيه فجأة، مصادفة.

صار الركوب فى أحد هذه الجيوب الثمانية الضيقة، التى يجبر المرء فيها على التقوس حتى ليدركه الحذر، صار مقياسا لدرجة القرب منى والرضا الصادر عنى، وإذا ظهر شخص غير معروف للكافة محشورا فى أحد الجيوب، حريصًا على إظهار دماغه حتى يراه القوم فإن هذا يعنى قرب سطوع نجمه، وبداية تألقه، وأحيانا العكس، إذ كنت أبادر بدعوة أحدهم ممن بلغنى عنه أمر، يركب معى مرة أو مرتين، ثم يختفى تماما فلا يسمع أحد عنه خبرا، ولكن من الخطوات التى أشاد بها القيم، إصرارى على صحبة المنبوذين ولهذا تفصيل. فى أثناء استفسارى عن سائر الأجناس الذين يقطنون الديار، فوجئت بوجود جماعات عند الأطراف الحدودية ممنوع اقترابهم من الحاضرة الرئيسية والمراكز الفرعية، والإيوانات، وذلك لأسباب شتى، بدءا من اختلاف العقائد، وحتى غلظ الطباع، وخشونة الحال.

إلى الجنوب مثلا، يستقر قوم يشكلون ما يشبه القبيلة، كافة سكان الإقليم يسمعون عنهم، ولكن حرم عليهم تماما الاقتراب من الحدود الآمنة، كانوا لا يقدسون قرص الشمس، إنما يعبدون حرارتها وما يصدر عنها من أشعة، فهم يؤمنون بالعرض وليس بالمصدر، قرأت بعضا مما كتب عنهم وحفظ فى السجلات الرئاسية التى لا يجوز لغيرى الاطلاع عليها، الغريب أنهم كانوا يعيشون تحت الأرض تماما، بيوتهم أسواقهم، طرقاتهم، ويتلقون أشعة الشمس من خلال ملاقف مستطيلة تميل كلما اتجهت إلى أعلى، يمارسون زراعة نبات واحد على عمق كبير، الحناء، وتعد من أجود الأنواع، ولا يمكن لعذراء أن تمشى إلا وعلى كتفيها هذه الأشكال الهندسية والدائرية الدقيقة والتى تأملتها طويلاً وحاولت إدراك مغزاها، أما فى أثناء تأملى عرى الجسد الأنثوى. أو بعد همود الارتواء الشامل.

كافة شئونهم تدبر من المراكز القريبة بواسطة عدد مصرح له. يقدمون إليهم الدقيق والزيوت واللحوم والأدوية مقابل الحصول على إنتاجهم من الحناء وإعادة توزيعه.

ما تعجبت له أنهم يدفنون موتاهم بإخراجهم من تحت الأرض إلى سطحها وتركهم فى العراء حتى تذرى أجسادهم.

قوم آخرون أكثرهم عدداً يعيشون قرب الحدود الشمالية، اشتهروا بالسخرية حتى من أنفسهم، وكثيرا ما تعرضوا للرأس ببعض النكات والجمل اللاذعة، بل إن الشمس لم تفلت منهم أيضا، عندما طلبت اطلاعى على بعض مما يتداولونه لأول مرة ألمح الذعر على ملامح

القيم، لكن إزاء إصرارى امتثل، وهكذا عرفت كافة ما يتردد عنى، وعن الآخرين.

قلت للقيم إنه ما من منطقة تعزل أو تحرم فى الإقليم بدءا من الآن، هذا مصدر قلاقل، وبؤر خطر محتمل، إذا انعزل طرف عن الجسد مات، خاصة الأطراف، الحدود يجب أن تكون آمنة، وألا يقربها إلا أصحاب الثقة من العسكر مهما كانت بعيدة، قصية، لم أكتف بذلك، بل خطوت إلى ما هو أبعد.

وجهت دعوات إلى كبار المنبوذين، ومصدر التأثير فيهم، هكذا وصل إلى الحاضرة لأول مرة أدق الوجوه، وهم جنس طويل القامة، كثيف الشعر. لون الجلد أزرق والعيون كأنها صيغت من بللور صاف، أما الساخرون فانتشروا فى شوارع الحاضرة، أخذتهم هيبة فكفوا.

المشكلة أحاطت بأهل الجنوب، سكان تحت الأرض، كانوا لا يقدرون على التحرك نهاراً. فسمحت لهم بالاقتراب ليلاً، وهكذا عرف بعضهم ركوب الفيل الرئاسى، أحد الساخرين لم يصدق نفسه، أخذه الروع فكف قلبه خشية وخوفًا.

كان المسموح لهم بالركوب يقفون على مسافة معينة، يرشهم الخدام بالعطور السبعة الشافية، ثم ينصب السلم الرئاسى المصنوع من الذهب الخالص. فأصعده متمهلا إلى ظهر الفيل حيث ألج الهودج، لكننى قبل دخولى ألتفت ملوحًا، مشيرا بيدى، مظهراً التحية حبشية الأصل، عندئذ ينحنى جميع من يقف على قدمين، أو على أربع، ويصيح الناس كافة.

«أدام الله علينا شروق سيدنا . . » .

أما الطيور فتزعق فى توقيت واحد، كل بصوته، ثم يوضع السلم العادى، من خشب الصندل الفواح، يصعد عليه القيم أولا ويتبعه الأخرون، كلهم خافضوا الرءوس، أحيانا . . عند نزولى، ومفارقتهم الجيوب الثمانية، كنت أستدعى أحدهم وأهش وأبش فى وجهه، أو أبدى لفتة، أو أطيل المصافحة لحيظات، كان بعضهم كما بلغنى بعد ذلك يمشى فى الأرض مختالا، مزهواً، مترفعًا حتى على ذوى الرحم.

لماذا؟

لأن الرأس الأعظم، المقدس، بادله الحوار، أو تبسط معه، سرعان ما تسرى الهمهمات بقرب توليه مكانة عالية، وقد يحدث هذا أو لا .

طبعا كنت أختار بعناية الأربعة الذين ينالون شرف ركوب الفيل الرئاسى، وفقا لأسباب لا أفضى بها إلى أحد، حتى القيم، على الفيلة الأخرى كان هناك مدعوون آخرون، ورجال الدولة، والعلماء، وخصصت اثنين للنساء، وكثيرا ما كنت أرجع بصبايا يقدمن إلىّ كهدايا من النواحى التى أصل إليها، وإذا كان الشىء بالشىء يذكر، فإننى لن أنسى أبدا بنية فى الثالثة عشرة، يا سلام . . لا أستعيدها إلا وسرت فى جسدى رعدة رغم كثرة ما قابلت، كانت فلجاء، مرتوية الشفتين. وعندما رأيتها، أمرت بركوبها الهودج إلى جوارى، شب عندى حريق فور ملامستها، كانت تبدو دهشة، متعجبة، وعندما تجردت من ملابسى التحتية لمحت خيطا من لعاب يسيل عبر شفتيها المنفرجتين، عالجت وضعنا وكلما خطر لى أننى أمارس العشق وعلى بعد أشبار منى إلى أسفل خيار المكرمين، المقربين، وحولى الجند،

وأصحاب الهيبة، ازددت شبقا، لكن الصبية نفسها بدت مختلفة، واعتدت منها ذلك فيما بعد، كلما لامستها غشى عليها، تتوقف عن مدارها لحيظات ثم تتوهج بلا انقطاع، اعتدتها حتى إننى فضلتها على سائرهن، لم أقتصر عليها تمامًا، لكننى لم أدعها عند خروجى قط، دائما تصحبنى إلى مناطق الصيد، وإلى بحيرات الزئبق التى تعانقنا فوق الوسائد السابحة فوقها والحشايا. ويبدو أن شرهى إلى العذارى خاصة الجميلات عامة غذى مخيلة رجال الديوان فأشاعوا حكايات لا حصر لها عن قدرتى الجنسية، واستطاعتى مضاجعة ثلاثين أو أكثر فى ليلة واحدة، وقدرتى على إطالة الجماع حتى إن معظمهن لم يحتملن المكث قربى، عدا هذه الصبية ذات الخاصية الفريدة، إذ كان عالمها يقبض جسدى فلا يفلته إلا إذا شاءت، أو اضطررت إلى أمرها لعدم قدرتى على احتمال متعة الملامسة والنأى ثم الاقتراب.

هذه البنت جاءت من إحدى مناطق المنبوذين. غير المسموح لهم بارتياد المدن المأهولة، لكنها بالطبع ليست النتيجة الوحيدة لاقترابى من أنحاء ظلت مهملة ومصدر مشاكل شتى، ساد الهدوء، وقل خروج الحملات التأديبية، وسعى بعض من أعتى الخصوم القدامى إلى التقرب بعد أن لاحت المبادرة من جانبى، وصار أملهم ركوب أحد الفيلة خلال رحلاتى، أما الدخول فى سترة الفيلة الرئاسية فهذا هو الأمل الحق بعينه.

فيما بعد، فى وقت متأخر علمت أن بعضا من القوم أضمروا خشية أن توجه إليهم دعوة إلى جيوب الفيلة، وأن اثنين منهما نظما شعرا ضد ذلك، وأنهما هجا إلى البرارى النائية التى لا يمكن للطيور القناصة أن

تقربها، لم أخف ضيقى، سخرت منهما، من أمثالهما، أمرت بتعقبهما، قلت إن ما يبدأ صغيرا يكبر فيما بعد.

لم يكن ذلك إلا شيئا ضئيلا جاء متأخرا، من أمور عديدة كدرتنى، بدأت المنغصات بعد كثرة ترددى على سائر الأنحاء.

تعددت رحلاتى، إلى أن اكتشفت أمرًا لم يخطر ببالى مجرد وجوده، فبدأت نكوصى، الخارجى، والداخلى..

سفور الخبيء..

. . بدأ الأمر عندما لاحظت ظواهر عجيبة على صبية من نسائى أميل إليها لانفرادها بصوت غريب، هادئ، متخثر، لا ينفذ عبر الأذنين إنما يدغدغ الأوصال ويسرى عبر الظهر إلى مكامن الرغبة، فيحدث عجبًا رغم الوهن، وأى صدود، كنت أحجبها بستارة خفيفة، وأصغى إليها، أطيل الحوار معها، حتى إذا بلغ اتقادى حدًا لا يمكننى تجنبه أندفع ممزقا الحجاب.

لكننى . . رصدت تحولا فى نبرها، اخشوشانا، وتحشرجات، صار اقترابى منها يسبب لها ألما شديدا، ثم فوجئت بالقيمة على الإناث والمشرفة عليهن تطلب مقابلتى فى الصباح الباكر عقب تجرعى الكوب اليومى من شربة مخاصى النسور.

قالت إن البنت دخلت فى مرحلة التغيير.

أى تغيير؟

قالت إنها مجرد أنثى من رعيتى، وإن ما يسرى على الجميع يمشى عليها أيضًا، لا يستثنى أحدا.

إذن . . الأمر أكبر، أشرت بيدى، كفت، لا أحب لهجة الشرح هذه، أفضل ظهورى عارفًا، ملمًا، خاصة فى نظر الآخرين، لا أسال

إلا القيم، لهذا استدعيته، استوضحته، انحنى مقبلا ما بين قدمى، علامة إقدامه على الإفضاء بأمر عظيم.

قال إنه لم يخف علىّ أى شىء. ولكن ثمة أمورا ينطق بها شفاهة وأخرى يدونها. وثالثة تقضى التقاليد بمعرفتها من خلال المعايشة، من ذلك تحول الرجال إلى النساء، والإناث إلى ذكور، كافة أهالى الإقليم يمرون بالجنسين، من يبدأ ولدًا ينقلب إلى فتاة، أو العكس، ما من مدة محددة يمكن تعيينها، ربما جرى التبدل فى الطفولة، خلال الشباب، لكنه لا يتأخر أبدا عن الخمسين، من يرحل قبل اكتمال انتقاله إلى الجنس الآخر اعتبر ملعونا. لم تتخلله أشعة الشمس المقدسة. كل مقيم يسرى عليه ذلك، أما الغرباء العابرون فلا يعرفون هذه النعمة!

نعمة؟

أجل.. هذا ما ينفرد به الإقليم.

لم أخف دهشتى، أشهرت إصبعى مشيرا إليه مستفسرا؟ نعم.. نعم، جرى تحوله بعد بلوغه السابعة عشرة، يوما.. كان شابة مكتملة. ولد أنثى، تنبأ العراف بنضج مبكر، فعلا.. بدأ الحيض وعمره ثمانية أعوام واعتبر ذلك خرقا للعادة. لكنه لم ينجب إلا فى الثانية عشر. كان أما لثلاثة، والأطفال هنا ينسبون إلى الأم وليس إلى الأب. بعد تحوله أنجب بنتًا واحدة، أمها كانت من ضباط القصر الأشداء، ولكن الخشونة سرعان ما تزول مع تمام التحول، وكلما كان الرجل مكتملا، فاضت أنوثته وطغت بعد انتقاله.

تطلعت إليه صامتًا، مباغتًا بما أسمعه، كنت أثق أنه ينفذ إلى ما وراء ابتسامتى، يعرف ما أفكر فيه، حقيقة جزعى أو تلهفى، قصدت

مراوغته، حدت عن الموضوع تماما، سألته . . كيف يعتبر الإقليم ملجأ ومقصداً لكافة طيور الدنيا، بينما يتخذ الناس ملابسهم من ريشها وجلودها الرهيفة، حتى البسط والفرش؟

قبل الأرض مرات ثلاثا، قال إنه يود الإفضاء أولا برجاء يتمنى منى ألا أخيب أمله فى الاستجابة إليه، ألا أتخذ أى إجراء مفاجئ أو رد فعل غير متوقع على ما سمعته منه.

أومأت موافقا.

رجانى اعتبار هذا الرجاء مقدسا تمامًا كمطلب القوم القديم، الاحتفاظ بصورة الطيور وتماثيلها.

لم أبد رد فعل، استمر وضعى تجاهه. اعتبر ذلك علامة موافقة فانحنى شاكرا. اعتدل، ثم بدا يجيب عن استفسارى. قال إنه لم يقتل طائرا قط فى الإقليم كله. لم يرفع حجرا ضد عصفور أو صقر. لا من رجل ولا من صبى، ولا من مختلى العقل حتى أبدا. . لم ولن يحدث، فى كل مكان توجد أوان تناسب الطيور لتأكل منها وعندما يوضع أساس أى بناء لا بد من مراعاة زوايا اقتراب أنواعها. وحطها وانتظارها، وإقامة بعضها مدة تكفى احتضان صغارها، فى الريف الجبلى أو السهلى، فى الواحات النائية، فى الصحارى يفكر القوم فى أحوال الطير تمامًا كما يفكرون فى أنفسهم، لكل مكان ما يناسبه، أو . . ما اعتاد عليه من أجناسها، وإذا زرع المرء قطعة أرض ليجنى منها ثمراً لغذائه فلا بد أن يتخللها أو يحيط بها شجيرات تنبت ما يفضله الطير الذى اعتاد الموضع.

حدث أن أهدى ملك الصين شجيرات فاكهة وغرست فى إحدى

الضياع الرئاسية، بعضها لا ينبت مثله فى الإقليم، وآخر مشابه لفاكهة أو خضر هنا، لكن حجم ثمارها مختلف. كانت الطيور تجيء وبرغم تجاور الأشجار، فإنها لم تقرب إلا ما اعتادته من نبات الإقليم، هذا باب مفض إلى خضم لا ساحل له من التاريخ القديم، والمعتقد المقيم فى النفوس.

من أين يأخذ القوم الريش وما تبقى؟

فى الأقاليم سبعون موضعا، تقصده كافة أجناس الطيور عند شعورها بدنو الأجل، يحط كل منها يمضى وقتا ربما يطول أو يقصر، حتى يغمض عينيه ويكف جناحاه عن الرفرفة، وعندئذ يتقدم المكلفون، فينتزعون الريش ويسلخون الجلد بطرق خاصة، يتوارثونها، ويتقنونها، ثم يرسلونها إلى المعامل، لهذا يعبق الإقليم كله برائحة الطيور كلها.

فى الدنيا المعمورة لا يوجد إلا موضع واحد مماثل، مشابه، يقصده جنسان لا غير، الهدهد. ومالك الحزين. حيث يفارقون الخلاء المسكون بأمة الطير.

أين؟

فى تنيس..

أحنى القيم رأسه. ظل مطرقًا، علامة انتهاء حديثه، إلا أننى لم أشأ صرفه. طبعا كنت مشغولا، ليس بمقابر الطيور، إنما بما لم أسمع مثله من قبل.

لكنك لم توضح لى أموراً كثيرة.

قال إن المعارف بلا حصر وكل منها يحتاج إلى وقت. وما يُعرف

أول النهار. يختلف عما يتضح عندما تتوسط الشمس قرص السماء وما يتكشف قبل الغروب مختلف تماما.

طبعا لم أتوقف عند كلماته، إذ كنت متلهفا إلى الاطلاع على ما قلقلني، لكنني فيما بعد استعدتها فرغبت وندمت، رغبت إطالة الحديث والاستقصاء، أما الندم فلأنني لم أزجره بعد أن تحدث إليّ بطريقة تستر أكثر مما تعلن.

كان يكتفي بالإشارة، ملمحًا، لا يخوض طويلا فيما أرغب في الاطلاع عليه والإحاطة التامة به، من جهتي لم أبد تلهفا أو تعجلا. احتفظت بذلك حتى في مواجهة هذا الموضوع الغريب، حتى أبدو غير مبال أمرته بالانصراف.

بقيت وحيدًا، هذا شأني طوال رحلتي إذا فوجئت بما لم أتوقعه أو استعصى على فهمه، أمعن النظر، ربما. لأعيد ترتيب ما تبعثر مني كيف سألته؟ لماذا؟ ألم أر صور من سبقوني؟ كلهم رجال. لكن. هل ولدوا هكذا واستمروا؟ كيف النهايات؟ إذا علمت أنهم كلهم قدموا من جهة شروق الشمس فهل سرى عليهم ما يعرفه القوم، هل أزيحوا بعد ظهور أعراض التحول؟ لكن.. ألم يقص على سيرة امرأة تولت ثم غدرت؟، بعد أيام سمعت منه الإجابة. نعم.. جاءت من المشرق. تلك مشيئة لا ترُد، لكن بعد أن جرى منها ما لم يتوقعه إنسان، ترتفع الدعوات والابتهالات حتى يكون القادم ذكرا.

وإذا ظهرت أنثى؟

يجيب بإيقاع رتيب..

ليس لنا إلا الأمتثال

لمحت في نظراته لمعة لم أسترح لها، يعرف ما أريد الوقوف عليه ويصمت، ولو نطقت سيجيب في عبارات موجزة، إشارات.. مجرد لمحات نائية، بغضته، يخفي أكثر مما يظهر، كان يجب أن يخبرني، أن يفسر لي، هل يسري هذا عليّ أم لا؟

تنغص عيشي، أجهل ما سيصير إليه أمري، هل سأفارق جنسي؟ يختلف مصيري عن الآخرين، ماذا يحكم هؤلاء القوم، من يوجه شئونهم غيري؟. في واد أنا وهم في واد، أين تكمن معتقداتهم الخفية؟

كلما سنحت الفرصة أتطلع إلى المرايا. هل طرأ ملمح؟، هل ظهرت بادرة؟. كل من يدخل عليّ أشك في أمره. إذا كان رجلاً رأيت فيه الأنثى الآفلة أو المقبلة. أما رغبتي فصدأت، في زمني القديم حكى صاحب لي عن أحد معارفه أنه أعد لقاء ليلة أنس ومتعة. دعا ثلاث نساء. خلا بإحداهن، فوجئ بها نصف رجل، أصابه خوف غامض حتى إنه لم يطق البقاء في البيت مع مكث الخنثى فيه، عندما وقفت في الحمام منتظرا بدء البخار الوردي تطلعت إلى جسدي. فردت ذراعي مرتين متأملا أبطي، تحسست بروز صدري. هرع قلبي إذ لحظت نحول خصري، وبروز أردافي، لكنني انتبهت إلى وقفتي المائلة قليلا.

ضاق حالي فألحت امرأتي عليّ. أيامي في الواحة. لو أدرك عذاري وأشرب من مائها البارد، كنت أستعيد كافة التفاصيل بعد قضائي أوقاتًا طويلة منفردًا، إما في غرفة المرايا السبع، أو في الحديقة الفارسية، أو قبل هجوعي في الغرفة الشرقية المصممة بحيث تنفذ إلى داخلها أشعة الشمس فور بزوغها وتلامس المواضع نفسها عند غروبها.

جد عليّ الاستيقاظ مبكرا، شح نومى. بدأت الخروج إلى الشرفة الدائرية المطلة على الحديقة التى لا يحط على أغصانها إلا البلابل واليمام كنت أقابل الشمس عند طفلها من الأفق، لا يحرك ولا أفارق إلا بعد ارتفاعها. ظن القوم أننى اتبعت طقسا جديداً للتوجه إلى القرص المضىء، صار ذلك متبعًا. معتادًا. وأثق أنه بقى بعدى. ظنوا تقديسى للشمس، والحقيقة أننى كنت أسرح النظر وأحاول العبور بالبصر إلى ما فات منى هناك، ما انقضى منى. ومع استمرار رحيلى، وتمكن اغترابى، واستحالة المزار، صار تقليبى فيما مضى دأبى. إذا ما اضطرب أمرى. أو ضاق حالى، أعتصم بما عندى. أستعيد لحظات نائية، أنهكنى الحنين إلى أيامى المصرية. إلى أبى الذى فارقنا قبل الأوان. لم أتعرف على دروب المدينة إلا بصحبته. ولم أعبر شوارعها طفلا إلا برفقته، فى كل مكان له صاحب، وأينما ولى وجهه فهو ساع إلى رفيق، هذا خياط، وذاك حجام، وآخر قصاب، ورابع عقاد للخيوط الحريرية التى تنتهى بها ستائر الحرير، وخامس من أمناء البريد، معارف شتى. من مركز المدينة إلى أطرافها، حتى فى مقابرها، أصحبه إلى فناء يتقدم مقبرة عالية الأركان، ريحان أشجارها ما زال طازجًا، فواحًا عندى.

لم آمن إلا بقربه، خطواتى ظلال وأصداء لسعيه، فى اكتمال جمعنا ذروة رضاى، كلما اعتم أفقى وضاق أمرى أسترجع ما كان فأهدأ أشكو أمرى إلى الذكرى، ومن استحضاره بالمخيله التمس العزاء والصبر على المكاره. فكأنى أستجير بالعدم.

هذا شأنى طوال الرحيل. وما زلت رغم طعنى فى السن وتراكم المحن والرزايا. إذ يشتد بى الهفو أغمض عينى. إذ يلمحنى المكلفون

بالخدمة فلا يقتربون، أضافوا لقبا جديداً إلى صفاتي: المتأمل.. لأنني أمضي غربا. مدفوعًا. مجبرا. كثيرا ماحننت إلى ما انقضى. كنت أتطلع إلى الشمس المشرقة مسترجعًا علم الميقات الذى لقنه لي الحضرموتي العجوز. عند مفتتح اغترابي، وبدء ابتعادي. لكم أمعنت النظر إلى المكان والوقت.

ما من زمان مستعاد إلا مرتبط بمكان، وما من موضع متخيل إلا متصل بلحظات سارية، هذا ما خضت فيه طويلا. وأنني لأقصر حتى لا أحيد عن القصد.

لأنني مرغم على الرحيل، متوقع استئنافه في أي لحظة إذا ما بزغ الهاتف، وفي اتجاه واحد لا بديل له، كنت أتطلع بالمخيلة إلى ما فارقته، أنظر إلى الشروق، وأحاول حساب الوقت. لكنني لم أصل إلى تحديد دقيق لغرابة موضع الإقليم وبعده غير المألوف، وغرابة ترتيب النجوم في السماء. لم أر مثيلا لأعدادها. وتوزيعاتها. حتى إن التوصل إلى البروج المألوفة كان مستحيلا. أما تعلقي فجري بنجم لا أظن أنني رأيت مثله، كان يظهر قرب خط الزوال ويظل عالقا إلى ما قبل الفجر، قريب جدا، وكثيرا ما استعدت كافة ما ذكره الحضرموتي، لكن عبثا.. لم أصل إلى تحديد.

أعرف أن الشمس تطلع على القاهرة، على مصر كلها قبل ظهورها هنا، كلما أوغلت غربًا تتأخر عليّ، ويعلم الله أي مدى يمكن أن نبلغه إذا ما أوغلنا عبر المحيط الأعظم.

هنا، يمكنني تحديد الفرق، تطلع الشمس على مهادي الأصلية قبل ساعتين صيفا، وثلاث شتاء، يكون هنا ليل، وهناك صبح. ويكون

هنا أصيل وهناك اكتمال مغيب، الجمع بين اللحظتين مستحيل، بقدر ما يفصل المسافة بين نقطتين فى المكان. بقدر ما يتباعد الزمان، ما من لحظة واحدة تحتوى الكون المحسوس، ما يكون هنا ليس فى عين الوقت، التماثل منفي والاختلاف بين، أما اليقين فمستعص عليّ، مع كر الليالى تنفد المئونة ويعسر الخطو . .

أوضح الإشارات

.. يقول جمال بن عبد الله كاتب بلاد المغرب. مدونه: لما لاحظت وهن أحمد وإرهاقه خشيت عليه، خاصة عندما أوى إلى صمت مكين، ولاحظت انطباق فكه العلوى على السفلى وكأنهما لن ينفرجا أبدا فى هيئة لم تبد منه أول قدومه، كما طالت فترات صمته وسرحات عينيه صوب ما لا يرى!

حدثته عن مكثى فى المدينة، لم أبتعد عن أسوارها أكثر من مرحلة. أى ساعتين على ظهور الخيل، لكننى جست خفيها وظاهرها، سلطان البلاد اعتبرنى حجة ومرجعا، حتى إذا انهار حجر من بناء، ورغبوا فى معرفة من وضعه أفدتهم. وإذا ما تداخل الأمر وغمض حول من جاء ومن رحل، من أقام ومن اغترب، أوضحت وفسرت.

لا أعرف بيوتها فحسب. ومن يقطنها، ويتردد على كل منها، لكننى عالم بقبورها وما تضمنه من أموات، وضعت كتابا فريدا أسميته «أوضح الاشارات إلى أماكن الزيارات» على البعد أذكر الرقود المتمددين فى أى قبر، وترتيب دخولهم، ومن خلفوا وراءهم، أعيش حيث ولدت. يقول من تنقل وسافر وابتعد مثلك إنه لا يمكن رؤية المكان إلا بعد مفارقته.

إذن.. كيف ترى أدق التفاصيل فى موضع لا تغادره؟ المعروف أن طول النظر إلى الشيء لا يعنى إدراكه، ولكن إذا امتدت الإقامة يتحقق الاستيعاب بالحركة، بانقضاء المسافة، لكننى أدركت الفروق عندما تجاوزت الفترة.. ولهذا تفصيل.

اعلم يا صاحبى. يا من أشعر بقدوم معرفتى به رغم حداثة الصلة وقصر مدة الصحبة، أننى انشغلت بالنظر فى أمور غميقة منذ زمن بعيد، منذ صباى وفتوتى، كنت أتساءل عن الجهة التى مضى إليها الأمس؟ . حقا أين راح الماقبل؟ طيب.. إذا مضينا سعيا فى اتجاه نقطة محددة فى المكان. هل نصل إلى لحظات منقضية فى المكان؟

يا صاحبى، تقول لى إن الشمس تطلع على ديارك قبل أرضنا، لو أوتيت أنت وأنا أو أى شخص حدة بصر بحيث يمكن الرؤية بلا مدى، بلا حد، لو وقفت هنا والآن ساعة ضحى، سترى المؤذنين فوق المآذن القاهرية يدعون الناس إلى صلاة الظهر.

ألا يعنى ذلك إمكانية رؤية اللحظة التى لم تحل علينا بعد؟

افترض العكس يا أخى، لو أنك تطلعت إلينا من فوق سطح الأزهر، إذا نظرت الآن، ستجد أفقنا فى انتظار الشمس.

ألا يعنى ذلك أنه يمكن رؤية الماضى؟، ألا يعنى أمكانية رؤية ما هو قبل القبل أو بعد البعد إذا ما نأينا إلى نقطة قصوى فى المكان، هناك وراء هذا المحيط الأعظم. أو عند ذلك النجم المعلق؟، أراك تتطلع إلىّ دهشًا، أعرف أن ما جال عندى خطر لك، ولن تسألنى كيف؟، لا أطلب منك إجابة، لكننى أدعوك إلى المحاولة. علنا نصل معا إلى ما

يشفى الغليل يا ابـن المشرق البعيـد وقد صرت إلى المغـرب أقصى ليس بعده حد، سوى موضع مغيب الشمس، لعلك بالغه فى قصدك هذا.

اعلم يا أخـى الكريم أننى رغم انشـــغـالى هذا منذ الطـفـولة إلا أن إدراكى الأعم بما انقضى لـم يبدأ إلا بعد اكتمال عقدى الثانى تقريبا، فى الطفولة والصبـا لا يكون هناك إلا حاضر غيـر متصل فى الوعى المدرك بما قبله أو بعده إلا فـيما ندر، لكن مع التقـدم حثيثا فى الـزمان، تكتمل شيـئا فشـيئا أمـور استيعـاب ما فى الكون الإنسـانى، عندى بدرجة. أو عندك بدرجـة، ولكن الفروق طفـيـفة فى الأغلب، الأعم، حـتى إذ بلغ المرء نقطة فيـها ما مضى أطول مما تـبقى، وما مر أكـثر مما هو آت، ينثنى الإنسان ممعنا فى تقليب مـا انقضى، متحسـرا على ما فاته، ولكن يوم لا ينفع ندم، أحـيانا يا أخى الكريم، كنت أعـجب من أمرى، وأسـخر من ذاتى خـاصة عندمـا يهلكنى الحـنين إلى مفـقـود، إلى عادة لا أعى مـا تتضمنه من قيمة، كأننى لـم أعش طفولة واحدة، بل فى كل مرحلة أرى ما لـم أشهده من قبل، وعندما دنا الشباب من المغيب رأيت أموراً جديدة علىّ. البـيت الذى أعـيش فـيـه ولدت به أيضـا، لكن .. هل هو البـيت نفسه؟

إننى أسألك؟؟

قال إنه لـم تدم علاقته بموضع، وعندمـا يخيل إليه أنه بدأ يعتاد مكانا يبزغ الهاتف، هكذا يفارق ما اعتاد أو ما أوشك الاعتياد عليه.. لا يمكنه الحكم على صلة بمنزل أو دار أو وطن!

أشرت بإصـبعى متمـهلا فى نطقى، قلت أثق أنه ليس البيت نفسـه، الفناء الذى كان يبـدو رحبًا فـسيحـا أقطعه جريـا قبل أن تحل بى المحنة

التى أقعـدتنى، هذا الفناء ضاق على مـداه، الغرفة الداخـلية التى ولدت بها لم تعد تعنى شيئا، أدخلهـا كثيرا فلا أذكر ذلك، وإذا خطر لى فكأنما يمت إلى شـخص آخر، كـأننى أطالع تاريخـا قـديما يخص غيـرى، مع غياب أحباب وتلاشى عادات تبدلت الجدران مع أنها لم تهدم وتغيرت الأبواب مع أنهـا لـم تخلع، وتبـاعـدت أو تدانت الغــرف مع أنهـا لم تتحـول. لكن.. ثمة ما يستـعصى على الرصد. ما لا يمكن أن أعـبر عنه بكلمات يؤكد أن المكان ينتقل فـى ثباته وإن لزمته، يرحل عنك وترحل عنه وإن أقـمت فيـه عـمرك. ومـا أقـوله أعنى به الشـوارع والساحـات والنواصى ومـداخل البيـوت، يخيل للغـريب مثلك أنهـا تتشـابه ولكن عندى يختلف الأمر، لو فتـحت الحديث لأفضت وأمللت، بل لأعجب من نفسى.. كـيف أشرق وأغرب بينمـا رغبتى فى مـعرفة مـا جرى لك قوية، عـارمة أود مصـارحتك بأمر غـريب، ذلك أننى أتساءل الآن، هل خلوت إلى الهندية حـقا؟ هل ضـاجعت الصـبيـة فى حديقـة القـصر. سآمرهم بحملى إلى الموضع على أتنسم أثرًا، لكم اسـتعدتها، حتى إننى ضاجعتها بخيالى مرات لا تعد ولا تحصى، كل ما رغبته منها ومن بنات جنسها تخيلته وعشته. لكن اتصالى الواقعى بها، هل جرى حقا؟

والله يا أخى الكريم، بعد ما سمعته منك. وبعد إدراكى لأمور شتى اسـتعـصت علىّ، صـرت إلى شك مـقـيم، أحـقا تمـرغت معـهـا على الحشائش حتى امتزجت رائحتها بالأرض، بالتراب الندى.

يا أخى الكريم، قص علىّ، إننـى متـأهب لتدوين مـا سـتصـير إليـه أحوالك فى بلد يتحول رجاله إلى نساء، والنساء إلى رجال..

تأجج الكوامن

حدث أحمد بن عبد الله فقال :

لما استقر خوفى من تغير يلحق بى، يبدل جنسى ، أعدت النظر فى أحوالى . خاصة أن استفساراتى الصامته لم تلق أجوبة ، لم يفض القيم العجوز بما يشفى غليلى ، ويفش ضيقى !

زاد كربى بعد تيقنى أن سبعة من أركان الدولة ، أحدهم مكانه عند باب الإيوان النورسى المخصص لاستقبال السفراء الأجانب ، ودعاة الطير فى الأقليم ، كلهم ولدوا إناثًا ثم تحولوا ، أحدهم أمضى عشر سنوات وأكثرهم قضى أربعا وعشرين وأنجب طفلين . أما نساء القصر فمنهن عدد كبير بدأوا ذكوراً ، والأخريات فى سبيلهن أو ينتظرن !

من طريف ما أذكره أننى استفسرت من متولى الإيوان النورسى باعتباره ممن يحق لهم الجلوس بحضرتى عن متعة النكاح عند الرجل والأنثى ، فقال إن لذته كأمرأة كانت أعظم وأشهى ، خاصة مع وقوع التوافق . قال إنه عرف كيف يستفيد من حياته الأولى عندما تم التحول ، خاصة أن حظه كان جيدا فلم يستغرق وقتا طويلا . البعض يقضى عامين أو ثلاثة بين الجنسين ، لا أنثى ولا ذكر ، هذا من أصعب الأحوال ، وإن حاول بعض الحكماء إيجاد عقاقير تسهل المهمة ، فى

البداية أحجمت عن الاستفسار حول بعض من لازمتهن، وعرفت منهن فنونا لم ألقها فى غيرهن ولكم دهشت عندما علمت فيما بعد أنهن فى الأصل ذكور وانقلبن فى عمر مبكر .

خفت بوادر لا أعرفها، أن ينتهى ما عهدت لأبدأ ما أجهل، فى البداية صدت رغبتى، حتى عن الأبكار اللواتى يعتبرن نادرات هنا لأن القوم لا يمنعون بناتهم أو أولادهم قبل الاقتران، يمكن للولد مضاجعة الصبية عند البلوغ وعلى مرأى من والديه أو صحبه. قبائل الأقاليم ونواحية تجتهد لتقديم الأبكار بعد بذل جهد فى الحفاظ عليهن إلى السدة العليا والمرتبة الأقصى. ابن الشمس!

بمجرد قيامى بافتضاضها. يمكن الرجوع إلى الجهة التى قدمت منها إذا لم أستبقها، بمجرد عودتها وعلى جبينها دائرة صفراء زعفرانية تشير على مرتبتها الجديدة التى نالتها بعد الامتزاج المُعلّى. لا يمكن لشاب أن يقترن بها إلا وفقا لرغبتها، بعضهن يعلن اعتزالهن الرجال تماما، يتفرغن للنظر إلى الشمس، وانتظار شروقها اليومى، وغروبها، هؤلاء يتبرك القوم بهن، حتى إن المرضى يحملون إليهن من مسافات قصية ليلمسنهم، أو يهمسن فى آذانهم كل ذلك لأننى امتزجت بهن ولو مرة!

أكثر من شهر بحسابى انقضى دون أن أقرب إحداهن، لا أدرى. . ربما خوفا، أو تقززًا، إنما يسعى الإنسان إلى الجنس الآخر ليتم ذاته، فكيف إذا كان الجنس كله مشكوكًا فيه، إما فيما مضى أو فى الآتى، خفت أن يكون ذلك أول الأعراض، لكن لم يستمر الوضع، بل انقلب. كيف؟

لسبب ما، لا أدرى طبيعته، فى أثناء ركوبى جوادى قاصداً رحلة

مـبـاركـة تـفـقـدية. تذكـرت البنيـة التى توسطت الإناث السـبع عند ظهورى. منذ مدة لم أستعد انحناءتها، لم أفكر قط إذا كـانت امرأة فى طريقها إلى الرجوله أو العكس، انحناءتها المكتملة، الرحبة الواعدة. الداعية، لم تكن إلا لأنثى أبدية.

فوجئت بالرغبة تتقد فى جسدى، حتى إننى اضطررت إلى تعديل وضعى فوق الجواد، بالطبع انتشيت، وأضمرت النية على تعويض ما فاتنى، لكن ما جرى فاق ما توقعت. فوجئت ببيارق تنشر، وموسيقى وأسراب من طيور تتابع تحليقها فوقى، والقيم يتقدم ليمسك لجام جوادى بيده، ومن خلفه القواد والمدبرون والحكماء.

ماذا جرى؟

كلهم.. يتقدمون بتهنئة أفقية، أبدية، لإنعاظى!

بدأت دهشة عندى حجبتها ابتسامتى الدائمة عنهم، كيف اطلعوا على أمرى؟. هل عندهم ما يمكنهم من الوقوف على ما يدور بخلدى؟ أم رصدوا مد يدى إلى ما بين فخذى عند تعديل وضعى؟ قال القيم إنهم فرحون لوقوع الانتصاب، وتجدد أمرى بعد همود.

طال نظرى إليه وعندى منه توجس متجدد وضيق، لا يطلعنى على وسائله، ولا أموره الدقيقة، شغلت عنه بما تتابع ذلك اليوم، إذ سرت الأنباء فى كافة أنحاء الأقليم. جرى احتفال فى اليوم التالى لحظة شروق الشمس، أعظم أوقاتهم وأجلها. وطبقا لما يوائم عاداتهم اعتبروه عيدا يحتفلون به فى اللحظة عينها التى بدأ فيها إنعاظى!

لا أدرى إذا كان مستمرا أو توقف؟ أو انقلب إلى عيد غامض الأصول مثل مناسبات عديدة شاركت فيها ولا أعرف حقيقتها، وعندما يوشك الضحك أن يتملكنى لغرابة ما أراه أبذل الجهد لأكتمه.

المهم . . أننى بعد طول خمود عدت إلى أكثر مما كنت عليه، يمكننى القول إننى أخذت من النساء حظى، ادخرت صوراً وأوضاعًا وردود فعل أحتاج إلى سنوات طوال لاستعادتها. والتمتع بها مع المخيلة، كنت موغلا إليهن، مدفوعًا برغبة تأججت فجأة، وخوفا من انقلابى أنثى فجأة فألقى مصيرا أجهله. وأفارق دوراً طالما أتقنت القيام به. . من ناحية أخرى تصاعدت رغبتى فى تمكين وضعى. والإحاطة بكل كبيرة وصغيرة. مدة غير قصيرة أمضيتها والكل يولى وجهه ناحيتى، أى كلمة ألفظها تؤول وتفسر، بل تشرح، وتبسط للصغار. أى عبارة أقولها عمداً أو مصادفة تصير من المواثيق والعلامات، أما ما رصدته بعناية فإقبال الناس كافة علىّ، توجههم نحوى، وإطاعة كل ما يصدر عنى، وابتذالهم الذوات المصونة للتقرب والسعى لالتماس رضا معنوى أو محسوس، رب كلمة منى تحدد مصائر وتنهى أوضاعا، حدث أن قابلنى أحدهم فى يوم تصاعد فيه اضطرابى من إدراكى لتحول الجنس هذا. أشحت بوجهى عنه. وتصادف صدور حركة من يدى لم أقصدها. مضى صامتا كمدا إلى بيته وقعد، لزمه ولم يخرج منه إلا محمولا، راحلاً إلى الأبد. صرت حذراً فيما بعد. لا أشير إلا بقدر، ولا ألوح إلا بحساب، أكره أن يروح عدد منهم مصادفة، بدون سبب. لكننى فى الوقت نفسه زاد الحال عندى، وزاد فى دماغى ويقينى، استقر الأمر على أن أصير أنا المرجع والقياس المدرك لما يخبئه الأفق الشرقى والغربى، أن تنسب إلىّ الأبعدية، وتبدأ منى وتنتهى إلىّ البديهات. بمقدار القرب منى يكون الرقى وتستقر الطمأنينة على قدر رضاى يكون الارتقاء، غضبى ورضاى هما الأساس، صرت إذا

خلوت إلى نفسى أتعجب من قدرتى على إبداء الآراء التى ينحنى لها أعتى الحكماء. واتخاذ القرارات العويصة. شئون ظننت أننى لا أقدر على خوضها يومًا. ما لم يطرأ على مخيلتى قط، إذن.. حان الوقت لإظهار ما أضمرته، وما أضيق به منذ مدة.. باختصار. قررت الخلاص ممن يحجب عنى أكثر مما يبدى، من القيم..

تريث مستنفر..

حدث أحمد بن عبد الله فقال :

بدأت ألحظه بدقة، عيناه تتحاشيان النظر إلى. أصبح قليل اللفظ، بطيء الكلام. كثير الشرود، زاد هذا من نفورى وإعراضى عنه، أعملت الحيلة. مترقبا أى ردود فعل، برغم تمكنى لم أنس قط أننى غريب، أننى من جانب وهو من جانب، مع اعتبارهم إياى ابنا للشمس موفدا من جهتها كى أدبر شئونهم، لم أقرب واحداً منهم إلى درجة الوثوق به، لم أتدخل إلا لحسم أمور كبرى. لم أنحز إلى طرف، وبرغم موقوتية وضعى، لم أكف عن تثبيت أركانى كأنى باق أبدا، أحيانا راودنى أمل فى استقرارى بعد طول هجاجى. أن يكف الهاتف عنى، منذ أن تلقيت الأمر بالرحيل عن مصرى لم أهدأ، اندلعت غربتى وشبت، صحيح أن إقامتى فى الإقليم طالت، لكن إلى متى؟

لم يستمر انتظارى. إذ بدأت الاهتمام بالعقاقير، والأخلاط. واطلعت على خزانة الأدوية وما تحتويه من معاجين ولعوقات وأكحال وحبوب وفتائل وسموم.

استفسرت عن أنواعها. ومنافعها ومضارها، قال الخازن إن كثيرا منها يدخل فى تركيب بعض الأدوية، كما أنها تستخدم مع الغرباء الذين يفدون بقصد إلحاق الضرر أو الإقامة!

رأيت قنينة بها سائل أرجواني اللون يوضع قدر يسير جداً منه فى الطعام فلا يظهر أثره إلا بعد شهور ستة. ومعجون فى لون راحة اليد يدهن به مهبل الأنثى فلا يؤذيها. لكنه يتسرب إلى من يضاجعها فيبدأ انحلاله على الفور، يتساقط شعره، ويتفسخ جلده، يرى نهايته بعينيه ولا يمكنه عمل شيء. معجون آخر تدهن به الأوراق وعند الإمساك بها بعد مدة معينة يتسرب عبر المسام.

طلبت قارورة مادة تلون الماء بدرجات الطيف. وأخرى يسكب منها قطرة وسط قاعة شاسعة فتعبق بعطر النعناع، وثالثة يذاب منها قطرة فى كوب ماء. عندئذ تقوى شهوة الجماع عند المرأة. حتى لتخمش وتموء كالقطة. وقد عرفت مثل ذلك. ورابعة من سم سريع فتاك، وخامسة لبطيء لا راد له.

طبعا.. هدفي القنينتان الأخيرتان، وما الباقى إلا للتمويه وإخفاء الغرض، فى ليلة دعوت إلى اجتماع بأصحاب البريد بغرض ضرب مشورة لتحسين أبراج الحمام الزاجل، واختصار مدة وصول الرسائل إلى أقصى حدود الإقليم، بحيث نباهى الأمم الأخرى بالمدة، وما البريد إلا عصب الدولة، وأحد أركانها، أبديت اهتماما خاصا به، عند انصرافهم دنا القيم منى أبديت رغبتى فى تناول الإفطار معه غدا فى الشرفة الفيروزية المطلة على حديقة الطاووس الفضى.

أبدى السمع والطاعة. كانت نظراته تحوى قدراً من الاستسلام، لكم استعدتها فيما بعد، ومثل أشياء عديدة لا نراها إلا بعد انقضائها، ولا تتضح تمامًا إلا إذا ولت واندثرت.

أمضيت ليلتى أرقًا، أسترجع صوراً نائية. وأتخيل لحظات لم تأت

بعد، لحظة إبلاغى وفاة القيم، مبالغتى فى إظهار حزنى، معلمى، ملقنى الأسرار، أمرى بتجهيز جنازة مهيبة لتشييعه إلى المقابر المقدسة. تدوين سيرته وأقواله.

لا أدرى متى أدركنى النعاس. لكننى لم أغفل عن أرقى الذى بدأ يمضنى، لا أذكر من القائل على مسمع منى فى الواحة إنه إذا جافاه النوم سعى إلى مناغشة امرأته، يواقعها فينهك وينام راضيا، لكننى هذه الليلة لم أبد أى رغبة. كنت مستمتعا بعزلتى وانفرادى. متمدداً فوق حشية من الزئبق، وجدران مبطنة بحرير رهيف، ضوء مطيع، يأتمر بعينى إذا فتحتهما أضاء جنبات الغرفة، إذا أغمضت ينطفئ.

اخترت أصناف الإفطار بنفسى، ورحت أسرح البصر فى الحديقة متعقبا الطواويس النادرة. لا يوجد مثلها فى البر المعمور، أمرت بإبقاء الحرس، وتلك عادة غير مستجدة. فكثيرا ما آثرت الخلوة، ألم يضيفوا إلى ألقابى. المتأمل؟

قبضت القنينة المخفاة فى حزامى الطيلسانى. فقط.. قطرة صغيرة فى إناء اللبن الحامض المصنوع من الفخار الزجاجى، أعدتها إلى مكانها. استخدمت الملاعق الخشبية حرصًا، تراجعت مسروراً، قال أحدهم يوما على مسمع منى: أفضل أن أطبخ بيدى، وكان يقصد أمراً لا علاقة له بالأكل أو الطبيخ.

وقعت رقعتين الأولى خاصة برحلة للصيد سأخرج إليها غداً. فلتجهز الفيلة. الثانية لبدء ترتيب عشاء أسبوعى فى القاعة البيضاوية يدى إليها أرباب الشئون، والقواعد.

انتبهت إلى الأطباق المتراصة، إلى وعاء عسل النحل الأبيض الذى يأكلونه فى الجبال. إلى مرور الوقت المحدد لوصول القيم. تطلعت إلى الطبق الذى يحتوى القطرة القاتلة.

مؤكد . . لن يجيء!

بهدوء شرعت أتناول طعام إفطاري . بعد أن أمرت برفعه قمت واقفا عاقدا يدى أمام صدرى ، أمرت بتجهيز الحمام الصوتى بعد الظهر . وهذا حوض من صخر قاتم الخضرة ، يتمدد الإنسان فيه عاريًا ، ثم تبدأ صفافير فى إطلاق أصوات متناغمة صوب مسام الجلد ، تتخللها . وبذلك يكتمل تفتحها ، ثم يمتلئ الحوض بصابون جذاب فى عطور مختلفة .

استفسرت عنه صباح اليوم التالى أصغيت إلى إجابة آمر الأحكام ، رصدت لهجته لأقف على أى تغير بها ، أمرت بالبحث عنه فى كل الاتجاهات .

قال إنه غياب لا رجعة منه .

مات؟

لزم الصمت ، بقى مطرقًا لا يجيب ، أمرته بالانصراف ، مرة أخرى بمفردى . لماذا يبدوا الجميع وكأنهم توقعوا ذلك . اختفاؤه ليس مفاجئا لهم . توارى كل أثر له ، أركان مجلسى لا يذكرونه ، لا يشير إليه أحد ، أما مكانه فبقى خاليا .

غريب أمرى ، لكم ضقت به خلال الفترة التى سبقت دعوتى له للإفطار ، تخيلت موته ، ورتبت إجراءات تشييعه ، بل فكرت فيما سأقوله عنه ، وإظهارى الأسى والأسف عليه ، برغم هذا كله انفتح داخلى فراغ ، بل أقول إن وحشة نالت منى ، افتقدته . كان يبصرنى بأمور أجهلها ، ويشرح لى غوامض شتى . لم يكن ممكنا أن أبدأ وأستمر إلا بمعونته ومشورته وكل ما لقنه لى خلال العزلة الأربعينية .

لم أنس قط أنني غريب عنهم، وأنني راحل باستمرار، لم أخدع باستقرار أمري، حتى في ذرا أوقات صفوى واستغراقي كنت أنتبه إلى موقوتية وضعي، وأن ما يحيط بي لن يدوم أبداً. صحيح أنني كنت في عرض دائم، ومتغيرات، ومتجددات. لكن رحيلي الدائم أدى بي إلى هنا. وسيخرجني عند لحظة معينة منه، كيف؟؟ لا أعرف. لكم افتقدته.

طقوس شتى أديتها بدون إدراك جوهرها أو غاياتها، كان يبصرني يقول لي اعمل كذا وأقدم على هذا فأمتثل ولا أستفسر، كان يمكنني أن أراه باستمرار، في أي وقت، في أي طارئ هو الوحيد الذي يحق له الدخول حتى باب مخدعي، لكم عمل على راحتي. لم يترك رغبة عندي إلا وعمل على تحقيقها. من مأكل أو مشرب أو عنصر رفاه، حتى مزاجي تجاه النساء. أتى إليّ بما يوافق هواي: الباسقات دون العشرين، والمنمنمات الدقيقات. مكتملات الأرداف، مشرعات الأثداء وعندما لاحظ نظراتي تجاه صبية فلجاء قرينة أحد كبار القواد، جاءني اليوم التالي بأنثى إذا ابتسمت لاحت انفراجة ملحوظة بين سنتيها العلويتين، الأماميتين، بث عيونه ليأتي بمن يوافقن مزاجي.

حزنت عليه مع أنني سعيت إلى الخلاص منه بيدي، لكنني رحت أعزي نفسي مردداً أن نفاذه إلى أدق شئوني زاد على حده. كما أن ملاحظاته سببت لي ضيقا. نعم.. كان الخلاص منه ضروريا. ألم تكن يده مطلقة في كل شيء؟ كيف أقبل وصيا أو شريكا؟

لكن.. هل تخلصت منه فعلا؟

لا..

اختفى فى الوقت المناسب، ألم بما أدبره له. كيف فاتنى ذلك يوم أن أدرك انتصابى وجعل منه عيداً؟ فراره إذن مزعج وليس مطمئنا، إنه فى مكان ما. قريب، وبعيد، يقف على خبىء نواياى، كيف؟

لا أعرف.

شرعت فى إصدار أوامرى بالبحث عنه. لكننى لم أقدم. آثرت أن أبدو فى نظرهم وكأننى أفهم سر ابتعاده. قررت تسيير أمورى بنفسى. ألم أوافق فيما بادرت إليه، ألم أتساءل فى لحظة صفو. أين كان هذا كله عندى؟ كأنى وضعت أسرار الملك والسلطنة، لم أعد فى حاجة إلى بذل الجهد كى أبدو خلاف ما أنا عليه، إذ صرت فعلا إلى غير ما كنت عليه. تمهلى عند المشى صار طبيعيا. إجاباتى إيماءاتى. كذا أوامرى، شرعت فى خطوات لم يعهدوا مثلها. وابتدعت رسوما جديدة لم يألفوها، من ذلك إكثارى الخروج. مرة ملثما. ومرة مرتديا قناع الطير الذى اعتادوا رؤيته مرة كل سنة، تعددت رحلات الصيد. بنفسى أختار من سأنعم عليهم بصحبتى، لكم استمتعت بتسابق القوم على ركوب الأماكن الأربعة تحتى، كنت أفاجئ بعضا ممن ينتظرون مجرد المثول أمامى، أتتبع أخبار من صحبتهم مرة واحدة لم تتكرر. اتصالاتهم ومساعيهم.

دعوت المنبوذين إلى مائدتى البيضاوية، بل قابلت عدداً من الكفرة المارقين القائلين بوجود فجرين. الأول كاذب، والثانى حقيقى. أصغيت إليهم. طمأنتهم على أحوالهم، بدا كبيرهم غير مصدق، ثم علمت أن مجيئهم إلى القصر أحدث بلبالا كبيرا عندهم، وأنهم انقسموا إلى ثلاث فرق. الأولى تبارك ذهابهم، والثانية تعتبرهم مجرمين والثالثة لم تعلق برأى معلن!

أكثرت من التفقد، لم أترك بناءً جديدا إلا وشاركت في وضع أساسه. وجلت فيه عند افتتاحه، أي معمل ولو صغير قصدته للفرجة، أتوقف أمام ما يعرض عليّ، أبدى ملاحظات عامة سرعان ما تدون ويجرى العمل للأخذ بها مع أننى لم أقل إلا كلمات عادية، أعجبنى ذلك وأثار سخريتى لكننى لم أفصح عنها. صرت أدقق كل شيء، وأتابع كل أمر، أظهر فهمى كل كبيرة وصغيرة.

اتبعوا تقليداً لم يعمل به من قبل. كتابة سجل يحفر فى الرخام يتضمن اسمى واليوم والشهر والسنة ولون الرداء الذى كنت أرتديه، لا أدرى.. هل بقيت هذه اللوحات أو أنهم طمسوها بعدى طبقا لما يعتقدونه من انتفاء الحاجة إلى التاريخ.

لو استمر القيم لما رضى عن هذا، تحديته فى غيابه، كنت أتخيل ما يثير ضيقه أو انزعاجه وأقدم عليه، وأحيانا أخرى أتصور رأيه فى هذا الموقف، أو ذلك القرار، ما كان يمكن أن يقوله لى، فأعمل وأقدم! لكن أغرب ما عرض لى يتعلق بأمر اقترحته عليهم وجدّ عليهم منى، وتفصيل ذلك مثير.

وقعت عندى دهشة عندما تأكدت أنهم لم يخوضوا حربًا منذ حقب سحيقة. ومع هذا يعدون جيشا نصفه راكب ونصفه راجل، يظهر فرسانه ومشاته فى المناسبات والأعياد، وأحيانا يخرجون فى عروض مهيبة إلى مهام غامضة لا يعرفها أحد، وقد حاولت الاطلاع لكن برغم هيمنتى وكامل بأسى لم أوفق.

رأيت استنفار الجيش، وإيجاد ما سميته الخطر المحدق، وأساس الفكرة سمعتها من رجل فى سوق خان الخليلى كان يحاور تاجر أبسطة أعجميا، يحدثه عن شابة وقع لها خلط فصارت تبكى وتضحك بعد أن

تلقت خبرا ثقيلا ، فما كان من المحدث وهو قريب لها إلا صفعها بقوة فكفت، أفاقت. علق الأعجمى مؤمنا، موافقا. وقال إن الحس كله يتوجه إلى مصدر الخطر المباغت فيشحذ ويستنفر.

لا بد من خطر محوم. إذا لم يطل حقيقة، فلنوجده. من يدرى.. ربما يضع حدًا لتلك الرخاوة البادية عندهم. والمؤدية إلى تحول رجالهم إلى نساء، وإناثهم إلى ذكور.

هكذا خرج المنادون إلى طرقات المدن. وحلقت الطيور إلى الأطراف النائية. رسالة منى تعلن عن تحرك الطامعين فى خيرات الأقاليم. أعلنت ضرورة وقوفنا متأهبين لصدهم. أكثرت من خروجى إلى الميدان الكبير واعتلائى البرج المستدير، وتحدثى إلى الناس، حذرت وأنذرت، هددت وتوعدت، لوحت بإصبعى الشهير الذى صار علامة. فى اليوم التالى يردد المعلمون فقرات مما قلته، وينبه الأب أولاده إلى الخطر المطل الذى اكتشفه ورآه الرأس الأعظم، ثم أستنفر القوات وتمر تحت أسراب الطيور الجارحة متجهة إلى الحدود القصية لإقامة الدفاعات. والحصون، كنت أفكر فى أهالى الواحة، والمرقب، وحذرهم الدائم. وتعاقبهم على رصد الفسطاط حتى صار جزءا من حياتهم، آه لو أعرف ماذا جرى لهم؟

لكن هذا موضوع ربما حاد بنا عن القصد، إننى راغب فى الإفضاء بما جرى، فى يوم لا أدرى موقعه الآن. لم أستطع حفظ أسماء أيامهم أسابيعهم لغرابتها، خرجت إلى القاعة الملحقة بمخدعى، أخبرونى بقدوم صاحب الأخبار المكلف بمتابعة ما يجرى فى أرجاء الإقليم. ولا يمكن أن يقوم على طلب مقابلتى فى موعد كهذا إلا لوقوع أمر جلل.

عندما رأيته واقفا وسط الحجرة مطأطئ الهامة أيقنت من وقوع شىء

غـيـر عـادي، ولأننى أتقنت التـأنى حـتى صـار ذلك من سـمـاتى لم أستفسر، إنما أشرت له فجلس، ثم تطلعت إليه هادئا. واثقا. طلبت منه استدعاء شيخ مفسرى الأحلام المقيم فى البر الغربى. بعد لحظات صمت، قلت إننى رأيت منامًا حيرنى كأنى أقف فى مكان مغلق. وبصحبتى ثلاثة يشبهوننى تماما، أحدهم واقف، والثانى قاعد، والثالث نائم، قام مقبلا الأرض أمامى. أكد أن الرجل سيمثل أمامى بعد وصوله مباشرة. فقط.. مسافة الطريق.

صمت منتظراً الإذن ليفضى بما عنده، طبعا بدأت بحديثى عن الحلم حتى لا أبدو متلهفا على معرفة ما جاء من أجله.

أظهرت الإشارة.

قال إن الأخبار تتوالى منذ يومين من المدن الحدودية بظهور من ينوى الأذى، جند كثيف، يقتربون، ونصبوا خيامهم قرب بعض عيون المياه المباركة. فى الليل ترى نيرانهم المشتعلة من مسافات بعيدة، تكاد تضىء الصحراء.

من أى الجهات بالضبط؟

من الجنوب، والشمال.

هل ثمة سابقة؟

لم يحدث ذلك منذ إشراقك علينا.

قلت إننى اسأل عن الزمن القديم، قبلى، بكثير..

لزم الصمت الأتم، علامة الجهل بالمكان والزمان. قلت إن الأمر يقتضى استنفاراً عامًا، ورفع البيرق الأبيض الذى يتوسطه باشق أحمر باسط جناحيه، قمت واقفا.

سأخرج صباح الغد لأكلم الناس . .

صرفت الرجل ، ودعوت الأركان السبعة ، وبقى مكان القيم خاليا ، لم أدر . أحقا خطر حقيقى أو تنفيذ لسياسة الخطر المحدق؟ لكننى فى المرات السابقة كنت أنا الداعى ، المبادر إلى إطلاق النفير العام ، لم أكن متأكدا . ما من يقين عندى ، لكننى قدرت أن أبدو ثابتا ، وأن أرتب كل ما يصدر عنى وكأن كل شىء حقيقى ، واقع . خاصة بعد أن قاموا وركعوا أجمعين أمامى ، داخلنى يقين أننى ما قطعت مراحلى كلها إلا من أجل هذه اللحظة ، وقعت المراسيم التى سترسل بالحمام الزاجل إلى سائر النواحى ، ملزما كل قبيلة بتجهيز مائة من أشداء الذكور الذين لم يتحولوا بعد لدعم الجيش ، كما أصدرت مرسوما بجباية الأموال ، وللدهشة التى قابلوه بها أيقنت أنها السابقة الأولى .

طلعت البرج مرتديا العمامة الصفراء ذات الأشعة والتى لا تظهر فوق رأسى إلا فى الظروف الخاصة ، والملمات . تطلعت إلى الساحة الكبرى ، الأرض لا تظهر من الواقفين ، فى أثناء ارتقائى الدرج فكرت فى الفتاة التى وقع بصرى عليها صباح ظهورى ، انحناءتها المثالية ، تناسقها هل تقف بينهم ، هل ترانى الآن؟

تأهبت لبدء حديث غير عادى . الزحام مختلف عن كل مرة الحشد كثيف بما يعنى إدراك الخطر ، سأعلن بدء الجهاد دفاعا عن موطن الشمس . إقليم الطير ، سأهدد العدو القادم إلى موطنها ، أسرابها ستحرق خيامهم . .

خيامهم؟

فى هذه اللحظة برق أمامى الفسطاط ، الخيام المتراصة التدريبات ، النداءات اليومية .

هل وصلوا؟

أى طريق سلكوا؟ كم سيرابطون عند الحدود؟ أى نوايا يضمرونها؟ لا بد من سفرى لألقى نظرة من قريب حتى أستوثق وأتأكد.

ما زلت أذكر ألوان الأعلام والطبول والنداءات الليلية المتلاشية فى الفراغ.

تأهبت لصعود الدرجات السبع المؤدية إلى الشرفة الدائرية. حيث لا يقف إلا أنا. لا يمكن لأى مخلوق أن يقترب، بينما تتردد التماعات الياقوتة النادرة التى تتوسط عمامتى والمعروفة بشطف النار، يمكن رؤية بريقها من مسيرة يوم كامل.

ما بين الدرجة الثالثة والرابعة.

بالضبط.

بالضبط، هبط ثقل مفاجئ شل صفوى. اجتز زهوى. لم أتوقع هذا قط، لم أعد لمواجهته. لم يكن ثمة مجال لأى مرسوم أو قرار أو استنفار أو جند مدجج أو طير نادر أو حيوان زاحف أو مخلوق كى يشد أزرى أو يثنيه عنى!

مرة أخرى أصغيت إلى الصوت القادم من كل فج، النابع من جهة ما عندى وتخفى علىّ، تلك النبرة الآمرة. التى لا قبل لى بها. بمماطلتها أو التحايل عليها.

«ارْحل».

لما بدأ خطوى يتعثر، دنا أكثر. نبع من كافة الاتجاهات. أشد حزمًا، وأثقل وقعا..

«ارْحَل الآن إلى موضع مغيب الشمس».

عبـور القـافلة ...

هذا بعض ما خطه أحمد بن عبد الله بيده :

. . لم أعد أقضى معظم وقتى فى المقهى، إنما زدت من جوسى خلال المدينة، مع اكتمال كل غروب أعى إدراكى لما لا يمكن رؤيته الخبئ منها، عرفت تعاقب الأوقات عليها، فما يمكن الاطلاع عليه فى الضحى، يبدو مختلفا عند الأصيل، بل إن مرور غمامة يبدل الأمر كله، حضور المبانى والطرق والدروب الموصلة ومنابع المياه والأشجار والأطيار وتلك النواصى وحافة البر وأمواج المحيط تتغير مع اختلاف درجات الضوء، والضحى والليل إذا سجى .

ارتحت إلى حاضرة بلاد الغرب، إلى مرسى غارب كما يسميها البحارة المترقبون دائما صفو الموج، واعتدال الأحوال للإمعان بحثًا عن الرزق، لكنها ليست الراحة المصاحبة للإقامة، نعم . . ركنت إلى المقهى، ولمست طيب المأوى، وكرم القوم، وحنو من تكلف بى، وصبره على ما أقول، وعدم إزعاجه عند بدء نوبات صمتى أو سرحات فكرى، أيضًا رغبت المشى فى دروبها المصاغة من الحذر، والمظلة بالترقب القديم، فالمدينة بقدر ما تبدو من الخارج مستنفرة، متأهبة، بقدر ما تلوح من أذقتها وساحاتها الصغرى منطوية، مترقبة، إنها مدينة الحد الأمامى، الطرف الأقصى، رباط الانتظار، وبرغم قدم الخطر،

وابتعاده، لكن ثمة يقينا ما إنه ربما يطل مرة أخرى، هكذا تتجاور البيوت، تتقارب الواجهات، تنحني الشوارع والزنقات، يؤدى بعضها إلى الآخر، وعند حافة المحيط الأعظم يعلو السور فتنأى النوافذ والواجهات عن لا محدودية المدى. من رحيلي الطويل أيقنت أن العمارات والخطط ليست ما تبدو، لكنها ما تحتوى وتخفى أيضًا، ما جرى فيها عبر أزمنة مندثرة، ملوية، طاوية لكل شيء، صغر أو عظم، ليست القاهرة ما تلوح للعابر، أو المقيم الغافل، إنما ما جرى لها وفيها، وعند الإنسان الفرد ربما لا يكتمل المكان إلا برحيله إلى موضع آخر فيرى محله الأول على البعد، يدهش إذ يقف على أمور كانت تبدو له عادية وليست كذلك في جوهرها، بقدر ما ضمنى المكان واحتوانى، بقدر ما احتويته وتنقلت به من موضع إلى آخر، كثيرا ما استحضرت سعيى فى أيامى المصرية، الواحة، إقليم الطير، بينما أجلس فى المقهى، أو عند شرفة المحيط، هذا الزمن الذى أستعيد فيه ما كان، تلك المواضع، ينتمى إلى من؟ يحسب لأيهما؟، المحل الذى أوجد فيه بجسدى، أو ذلك الذى أستدعيه بمخيلتى، وكينونتى غير المتطورة؟

لكم أمعنت النظر إلى ذلك، لكننى لم أصل إلى مرسى نهائى، وهذا مما شق علىّ خلال ترحالى، إذ إننى لم أثبت، لم أسكن بموضع مهما طالت إقامتى.

أقول إننى لم أشعر قط أن حاضرة بلاد الغرب آخر المطاف، لم أنتظر الأمر بالرجوع، بالانثناء، فلا مفر من التقدم صوب موضع مغيب الشمس، زادى أرق دائم فى انتظار لحظة البزوغ، وإذا نامت العيون كلها، وإذا غفت فإننى لا أنام، لا أهجع أبدا.

غير أن خاطرا يلح عليّ منبها إلى أن هذ البلد آخر حد العمار المسكون، إلى أين إذن؟

الحق أننى لا أقدر على القطع، ما أنا إلا فى انتظار أمر أو تفسير، ليس أمامى إلا أن أتبع الشمس، أن أقصد موضع غروبها، لهذا أعى تمامًا أن مقامى به مؤقت، محدود مهما طال.

لا.. ليست تلك دار إقامتى.

إذن.. إلى أين؟

وإذا أعلنت العصيان، لافترض ذلك جدلا، إذا شرعت قاصدا تلك القنطرة التى اجتزتها فوق الخليج إلى مربط القوافل ذلك الصباح القاهرى البعيد. متى أصل إليه لو شرعت الآن؟، ماذا سيقابلنى وأى أمور تنتظرنى؟ وهل يكفى ما تبقى؟

. أعى أن من خرج هذا الصباح البعيد تناثر وتذرى ليصير إلى كائن آخر، أضيف إليه وأخذ منه، إنى الآن مغاير، متحد بالقديم ومنفصل عنه فى آن، بعيد، جد ناء، تواق إلى راحة لم أعرفها قط حتى فى زمن أبهتى وسلطانى!

لم أتصور قط أننى ملاق بعض من عرفت فى خطواتى الأولى، بعد أن وصلت إلى حافة البر المعمور، بدأ ذلك فى أثناء مكثى فى مقهى البحارة، كنت صامتًا موليًا ظهرى إلى الحاضرة، أحس دبيب الحياة فيها ولا أدركها، كل الجالسين صامتون، شاخصون إلى المحيط، بدا من فراغات الجريد التقاطع جهما، غامقًا، تنبع الغيوم الثقال من أمواجه لترتقى السماء، ويبدا توقع لغيوث هواطل لم تلح بعد، كان أهالى المقاطعة الشمالية فى إقليم الطير يتطلعون إلى السحب ذات البروق، فإذا توالى البرق سبعين مرة توقعوا المطر خلال وقت قصير.

هكذا تحل أوقات يكف القوم خلالها عن الحديث، عن تبادل الحوارات، كأن أمرا خفيا يصدر فجأة فيسكت الجميع ويشخصون إلى المحيط، لذلك سمعت من يقول إن طول القعاد بالمقهى أو عند الشرفة يذهب بالعقل، بعض رواده انتقلوا إلى مستشفى الحمقى أو المجانين كما نعرفهم فى الشرق، هنا يربطون بالسلاسل ويقيدون إلى الجدار بأساور من حديد كالأسرى ويجلدون إذا عاطوا أو ارتفع صراخهم.

فى المقهى سمعت بوصول القافلة، وما أندر الوصول من المشرق، صحيح أن الأفراد لا يتوقفون عن التوافد، بعضهم يقيم أو يستمر فى الرحيل جنوبا أو شمالا، ثمة حكاية وأخبار تتردد عمن يقصدون الإبحار فى الإيغال غربا، هؤلاء مجهولون، لا يعرف عنهم شىء، ولم يعد منهم أحد ليخبر بما قابله أو رآه!

دافع لا يفسر جلعنى أهرع إلى حومة السوق، لحظة رؤيتى الجمال باركة والأمتعة على ظهورها كأن شيئا لم يتبدل، لم يتغير، كل ما انقضى من المسافة الفاصلة عندى كأنه لم يكن، اقتربت، طفت وحدقت، مازلت أذكر وجوهًا، بقايا ملامح بعد أن تبدلت عبر الدروب والمحطات، وجوه أخرى اختفت، مضى أصحابها تماما، سألت عن أقربهم إلىّ فلم يذكره إلا رابع من وجهت إليه استفسارى.

رحل منذ سنوات بعيدة، وقبره مجهول، دفن على الطريق، عند حدود بلدة تركمانية قديمة هجرها أهلها، لكنه قضى فى أكرم حال لحظة سجوده مصليا بعد أن ضبط اتجاه القبلة، على مسيرة نصف يوم ضريح شيخ جليل، ذكره شائع وأتباعه كثيرون، قتل وهو يحارب التتار، برز إليهم على رأس الجند، وكان يدور راقصا، ومنشدا، وله كتاب يقرؤه القوم بصوت مرتفع اسمه «فواتح الجمال».

أصغيت غائبا، كأنى مباغت بما أسمع مع أنى أتوقع ذلك منذ زمن طويل، بل مضت علىّ أوقات أردد لنفسى مؤكدا حتمية غيابه الآن، ومع ذلك بكيت تأثراً بعد ظنى جفاف دمعى، ولم أدر هل بكيته أو رثيت نفسى؟، حزن غامض غتيت لم أعرفه عبر رحيلى جثم علىّ حتى إننى أرجأت سعيى إلى أمر القافلة، هو كما توقعت، لكن ملامحه درست ولم يبق منها إلا طلل.

كأنه كان يشعر، هو المسافر القديم، من رأى وسمع ما لا عد له ولا حصر، لكنه لم ينطق، لم يستفسر حتى، ولم أسفر، جرى بيننا حوار ومداولة، ولكم أتمنى أن أقصها على صاحبى، أو أدونها، لكن هفهفة الأسى تعيقنى، وإدراكى لعمق الشجى يعطلنى، صحبته إلى حافة المحيط، وانصرف عند الأصيل. عدت إلى مكانى الذى أرقب منه الغروب. تعلقت بقرص الشمس.

هل أرقبها حقا. أم أضفى مما عندى؟

تغيرت ولكن تلك الدائرة لا تتبدل، أترحل هى أم ترحل بها؟ من يمضى بالآخر؟، فى هذه القعدة طال تحديقى وإصغائى، وكنت قاب قوسين أو أدنى.

تبدل المواضع..

حدث مدونه، جمال بن عبد الله كاتب بلاد الغرب فقال :

بعد إصغائي إلى حديثه، لم تلح عليّ الأسئلة المتوقعة، كيف غادر الديار؟، هل استجاب إلى الهاتف فوراً أو أنه تحايل حتى يدبر أمره، إنما ترددت عندى حكاية جد قصيرة مما يرددها أهالي حاضرتنا في ثنايا حديثهم، يقولون إن الذئب تزوج الناقة، مضوا إليه ليهنئوه، قال : إذا بركت.

أرجأت إخباره لأنني اعتدت احترام صمته المفاجئ، زم شفتيه ومضى بصره إلى نقطة غير محددة في الفراغ، أظنها داخله هو وليس في الجهة التي يسدد إليها بصره.

إذ تكتسي العينان بزجاج غير مرئي، وتثبت الحدقتان، ويخلو الوجه تمامًا من أي تعبير، أتشاغل برسم بعض الأشكال على ورقة خالية، أو أتحسس نصف جسدي الميت.

هل بلغه نبأ القوم بعد خروجه ملبيا نداء الهاتف؟

لمحت لكنه لم يجب، ولم يوضح، خشيت أن نفرغ قبل وضوح الإجابة كيف أوضح للسلطان إذا واجهني أو استفسر؟ لكنني أيضا صرت به عليمًا. ما لا يرد البوح به لن ينطقه أبدا.

يومًا سألني مولانا وسيدنا عما إذا كنت أعرف من مات وهو يقف فوق المنبر؟.

قلت إنني طالعت في معجم الأدباء لياقوت أن الأصبهاني صاحب الأغاني أنه قال في مجلس له: أخبرني شيوخنا أن جميع أحوال العالم قد اعترت من مات فجأة، إلا أنني لم أسمع من مات على المنبر!

كان في المجلس شيخ أندلسي قدم لطلب العلم ولزم أبا الفرج يقال له أبو زكريا يحيى ابن مالك بن عائد، وكان أبو الفرج يعظمه ويكرمه ويذكر ثقته.

قال أبو زكريا إنه شاهد في مسجد الجامع ببلدة من الأندلس خطيب البلد يصعد الدرج يوم الجمعة، وقبل بلوغ آخره تهادى ميتًا، أنزل منه ورقى أحد الحاضرين المنبر فخطب وصلى بنا.

أقول إنني أول ما واجهت الموت زمن غضاضتي الأول، عندما كنت أسبق بعض الصبية جريًا، قبل أن يلحقني ما أقعدني ونال مني، عصر يوم علا صراخ من البيت المجاور، لزمت مكاني خوفًا ورهبة.

قال أبي حزنان أسفا إن الشيخ حسن بن علي الفزاني طلع منه السر الإلهي، لم أفهم ماذا يعني ذلك؟ لم يطف الغياب الأبدي بذهني قط حتى بداية عقدي الثالث، وإذ أصغي على حديث الموت يداخلني يقين أنه مدرك الكافة عداي، لكنني عرفت الخوف من الفقد، كنت أترقب عودة أبي من الديوان، خاصة أن موعد ظهوره على رأس الزنقة لم يتغير إلا فيما ندر، فإذا تأخر خرجت إلى الشارع أتطلع، خوف غامض يرجف قلبي، ألا يظهر، ألا تهل طلعته، ألا أشم رائحة ملابسه، خاصة عباءته المنسوجة من الصوف، مما أقضني مجرد خاطر قدوم المغيب وتأخره، لكن أن أفكر في احتمال غيابه الأبدي فهذا ما لم يخطر على

عقلى، فى الكتـاب رأيت لأول مرة صبيا يتيمـا، بلا أب، وآخر بلا أم، ولكم أشفـقت، وترفقت، وتسامـحت معهـما، لكننى لم أتخـيل نفسى مكانهـما قـط، قبل اكـتـمال المغيب كنت أصـحب والدى، نمضى إلى الشـرفات المطلة على المحـيط الأعظم، لحظة اكـتـمال الغـياب اليـومى أقتـرب أكثر من أبى، حتى لألتـصق به تمامًا، وكـأنه يفهـم فيقـدم على ضمى إلى صـدره. تتجه أنظارنا مـعا صوب نقطة واحدة حـيث غربت الشمس، وتلك موازية، مقابلة تماما لنقطة شروقها كما أدركت بعد زمن بعيد، لو مد خط عبر السمـاء لكان اتساقه مثاليًا، هائلا!

أذكـر خوفى الغـامض فى صـبـاى، ألا ترجع الشـمس مرة أخـرى فيـدوم الليل المسكون بالجن، وأرواح القتلى أبدا. لـكن من أوفى مدته، وقـبض ملك الموت روحـه لا يظهـر هائمـا فى الليل، إنما يأتى إلى الأحباب عبر المنامات والرؤى.

عندما سـمعت الصـراخ يحتـد صعدت إلى السطح، الـوقت ما بين العصـر والمغرب، لمحتـهم يخرجون، الجـثمان ملفـوف، لا يظهر ملمح منه، لكن لم يصعب علىّ رؤية ملامح الجسـد الفاره النحيل، لكم رأيته ساعيًـا دابا على عصاه قاصـداً المسجد الكبـير خمس مرات يومـيا، بعد تقـاعده عن عـمله فى سوق الـوراقين، كان من أمـهر وأشـهر ناسـخى المصحف الشريف فى ديار المغرب، مـتقنا للخط الأندلسى القديم الذى يصـعب على أهل المشـرق قراءته، ومـا زال مولانا يـحتـفظ فى قصـره بنسخة من خطه، أوقفها ليتلو القـراء منها ليلا ونهاراً عند قبره، اطلعت عليـها، وقـرأت منهـا، ومـا من لفظ كريم رأيتـه إلا وتذكـرت لحظات انسياب الحروف وتشكلها بين يديه.

بعد أن أغلقوا التابوت الخشبى تساءلت: كيف يتنفس؟

سأل أحد الواقفين.

«هل أوصى بشىء؟»

أجاب ابنه الأكبر، نحيل مثله، بادى التجهم.

« لا.. لكنه اعتاد الصلاة فى المسجد الكبير..»

ما علق عندى رائحة غامضة لم أدر مصدرها، هبت على حواسى لحظة تطلعى إلى الصندوق المستطيل، رائحة لم تعرفها حاسة شمى مرة أخرى، لم أقدر على تصنيفها أو نسبتها إلى شىء محدد ــ لا يرد الموت على مسمعى أو فكرى إلا ونفرت عندى ــ انبعثت من داخلى.

دائما كنت أنظر إليه كأمر يخص غيرى، ولكن مع تكرار خروجى إلى حافة المدينة، مع دوام تطلعى إلى طفل الشمس، رصدى لدرجات اقتراب واكتمال الليل، انتبهت إلى الدورة، حتى أقلع أبى بغتة فى أثناء سجوده مستقبلا القبلة، اقتحمنى فيمن انتمى إليه، دنا ولاح، عندئذ بدأ انتظارى، وأدركت معنى خروج القوم إلى حافة المحيط الأعظم، وشخوص أعينهم إلى المغيب.

تحت السور منطقة رملية بعدها صخور وعرة، منها كهوف منحوته تتكسر على جدرانها الأمواج القادمة من المجهول، يصعب الرسو على أى قارب تجاه المدينة، لذلك كان أساسها هنا، أما الميناء فهناك خارجها، بعيدا عنها إلى الشمال، يمكن رؤيته من مقهى البحارة، تمترست الحاضرة خلف الأمواج والصخور والسور المشيد، محاولة منا لاتقاء المخاطر القادمة من المجهول، من موضع المغيب، لعل وعسى، وإن كانت معرفتى لما مضى تؤكد أنه ما من سور دفع عدواً مباغتا شرسا، ولكن القصد إطالة الأمد، وإيناع الأمل.

في المنطقة الرملية قبل الصخور ندفن أعزاءنا، موضع غريب أثار دهشة أحمد بن عبد الله المصرى، غفر الله له، دقق واستفسر، مضى وتأمل، وزادت دهشته عندما اطلعته على ما لا يعلمه إلا الثقاة من أهل مدينتنا. آخر حد العمار، وأول نقاط المجهول ذلك أن اعتقاداً ترسخ، إن المرأة العاقر يمكن أن تحمل إذا امتزجت بمياه المحيط الأعظم، يتم ذلك فى وقت اكتمال المد، وعند هبوب الرياح الشمالية الشرقية، معها يعلو الموج إلى حد معين يرتطم بالصخور، عندئذ ترفع المرأة ثوبها، تكشف تماما عن فخذيها، ولا تقرب كل منهن المحيط إلا متجردة من سروالها، تعرض نصفها الأسفل لرذاذ الموج فى وضع يعرفنه كلهن، وعندما تبدأ تشعر بالبلل المالح يجب أن تأتى كافة ما اعتادت عليه من رهز وغنج عند خلوتها بزوجها، وبعضهن يبالغن، فإذا تم البلل ونفذت الذرات فإن الحمل يبدأ بعد حين بإذن الله وهذا معمول به من قديم الزمان، ومجرب!

أبدى عبد الله اهتماما لم أتوقعه بالحالين، دفن الموتى عند الشاطئ واستفسر عن التفاصيل، بل دقق وأمعن، أى موعد أفضل عند النساء اللواتى يقصدن المحيط؟

كنت أجيبه بما أعرف، لا أبخل عليه، راغبا فى القربى، لم أبد إعجابا أو فرحًا أو حزنًا أو شكًا بما يقول، التزمت تدوين ما يملى علىّ، وعندما دنوت منه واقترب منى لم أخرج عن حد معين، أخفيت ميلى إليه وحيرتى، ليس مما أسمعه وأكتبه، إنما لتقلب أحواله، تارة يدفق حيوية فى سكونه، ومرة أسمع صوته كأنه آت من شخص آخر، محايد، لا يمت إليه بصلة، فكأن آخر لا يبين ينوب عنه.

أما ابتسامته الدائمة فتخفيه عنى إلى حد ما، كل ما تبقى من أيام

عزه، ودولته، أعـرفها الآن إلى درجة تمييـزى ابتسامته الحـقة وهذا ما لم يتفق لأحد غيرى من قبل كما أكد.

بدا متهللا هذا الصباح، قال إنه رأى فى المنام كأنه يجول فى شوارع القاهرة العـتيـقة، ويأوى إلى مقـهى اعتـاده، ويرشف كوبا من خـلاصة النعناع الجبلى.

قال إنه بقدر إحساسه القوى بلوغ حد البر المعمور، أمعن فيما كان، مـا انقضى، عنده تراثه، تفـاصيـل، ومضـات، لو أفصح عنهـا ربما رآها الأخرون بلا معنى، لكن أوشك كـبده أن يتفتت مرات إذ يستـعيد لحظة مستحيلا تكرارها..

«لماذا تبتسم؟».

ملت تجاهه.

«كأنك تكنى عنى..».

قال دهشًا.

«لكنك لم تفارق ديارك قط.. لم تتحسر مثلى؟».

قلت متأنيا.

«لأن ما فات لن ندركه..».

أشرت إلى الأرض، إلى الجدران..

«وهذا الموضع لا يمكن الإحـاطة به، مـا كان منه عندى اندثر.. ومـا يطالعنى منه الآن شىء آخر..».

سرى شرود فى عينيه، تساءلت حاثا إياه على الكلام لأول مرة.

«ألن تحدثنى عن أصحاب العكاكيز».

العكاكزة

.. حـدث أحمـد بن عبـد الله فقـال إنه رأى غروب الشـمس ثلاثا وخمسين مرة. حتى الأن يجذع ليلا إذ يستعيد غرائب الأصوات التى ترددت. بعضها مصدره حقيقى يمكن تعيينه، والآخر تكوينات صاغها الفراغ وسفى ذرات الرمال وتعارض مسارات الرياح.

لم يحـمل إلا مـخـلاته، ثيـاب له، والركـوة التى سـدت جـوعـه وأوقفت مسبغته وتلك الكتب، الحضرموتى، قصاص الأثر، القيم، كل منهم أسهم بقدر.

لن يطيل فى الإفضـاء بمعاناته لانتقاله من النقيض إلى النقيض من جـاه الملك وطيلسـان العـز إلى وحـشـة الفـقـر، ويبـوسـة الصـحـراء، والوحدة الصماء بعد إحاطته بالندامى، والساعين طلبا للرضا السامى، كـان يقـتـفى أثر المغـيب طوال الليل مـهـتـديا بالنجـوم حتى إذا لاحت شرابات الضوء الأولى يتمهل، يرنو إلى القرص البازغ عند الأفق.

بعد طول مكثه فى الشرفة المطلة على المحيط يمكنه القول بثقة إن ما يظهـر أول النهـار مـغـاير تمامـا لما يغـرب. مـلامح الشـمس عنـد الأفق الشـرقى غـيـرها عند الغـربى، رحـيـلهـا لا يغـيـر منا فـقط، ولـكن من جوهرها أيضا.

لولا الهاتف لاتجه شرقا، إلى المنبع، لكن ليس بوسعه إلا الامتثال، الهاتف يرج كيانه رجًا، يهمى عليه، يحيط به، لا يدع له ثغرة، إذ يمتثل يلقى نفسه وحيدا، ما من مرجع له على شوطه القديم الذى قطعة منذ خروجه الأول، ما لقيه صعب، لن يطيل.

قبل اكتمال مغيب اليوم الرابع والخمسين، بالضبط . . عند تلك اللحظة التى يوشك فيها القرص على ملامسة حد الأفق.

توقف شاخصًا.

ما هذا؟

تمدد فوق الرمال ملصقًا أذنه باليابسة، هكذا علمه الحضرموتى منذ زمن طويل، هكذا تبدو الأصوات أوضح.

لا . . لم يعد ثمة مجال للشك.

دبيب أقدام، ركض، قرع دفوف، رنين صنوج نحاسية، أصوات جماعية تشبه ما يتردد فى حلقات الذكر عندما أصغى إليها فى حوارى وشوارع المحروسة زمن أمنه وسعيه، على ناصية الزقاق الذى عاش فيه راضيا، قبل خروجه مأموراً، مجبرا، يقع ضريح سيدى مرزوق الأحمدى، لكم توقف عند النافذة المطلة على المقام المكسو بقماش أخضر متين، عندما شب صار يسعى بمفرده، عند عودته ليلا يرى مجهولين يقفون خاشعين، يتضرعون، أو يبتهلون، أو يبسطون الأيدى بالدعاء، يتراقص لهب واهن، شموع وضعها من لا يعرف عنهم شيئا، بعد الانتهاء من مولد الإمام الحسين يبدأ الاحتفال بسيدى مرزوق، تغص الطرقات بالزحام، يقيم القوم القادمون من الأقاصى، يفترشون الحصر والبسط، لا يكفون عن الذكر طوال الليل.

هذا ما فارقه منذ زمن بعيد.

قال أحمد بن عبد الله.

«لك أن تتصور حالي في البرية القفر عندما أصغيت إلى أصوات ذكر أو هكذا تبدو من بعيد..»

طرح عنه أي حذر، مضى غير هياب، لن يرى أعجب مما مر به، لم يعد يخشى ما ينتظره، رأى سرادقات متجاورة أو متباعدة، مفتوحة الأجناب، حشايا وقدور طهو وأوعية فارغة وطارات خشبية وعصيا وصنانير لصيد سمك.

في الصحراء؟

هذا ما رآه.

رجال ونساء بعضهم يتحدثون، يتعانقون، يجلسون متجاورين محملقين إلى الفضاء، أطفال صغار يحبون، فتيات في السابعة أو الثامنة يرقصن، كل ثلاث أو أربع معًا، شاب يجثو على أربع، وآخرون يتعاقبون للقفز فوقه، صبية تنفخ قربة جلدية لا يبدو تأثرها بما يندفع إليها من هواء، رجل وحيد يحيط صوان أذنه بيده، لكن ما من أحد يحدثه، آخر يرتدي عمامة ثقيلة يلوح مهددًا بعصا غليظة معقوف أعلاها، يشير إلى السماء، سبعة أو ثمانية يجلسون متجاورين، شاخصين إلى رجل يتكئ على عصا مماثلة، تتعاقب الانفعالات على ملامحه، لكنه لا ينطق.

فوق الرمال أطباق نحاسية فسيحة، أرز، ضأن مشوي، طيور مختلفة الأحجام، مسلوق، مشوي، محمر، جبن مستدير، مستطيل، زجاجات قوارير فخارية، نبيذ؟ نعم.. أحمر وأبيض!

البعض يأكل، يكور الأرز الناضج بالسمن ويدفع به إلى فهمه، أو يلتهم قطعة من اللحم، أحدهم يستند إلى عصا، كلهم إما يمسكون أو يستندون أو يضعون إلى جوارهم تلك العكاكيز الخشبية، مع أنهم صحيحو البنية، خطوهم سليم، أمامه وعاء من خوص ممتلئ حشائش خضراء يدفع بها إلى فمه، لا يمضغ، إنما يبلع مباشرة، لا يتوقف.

امرأة ورجل يتعانقان، يرفع ثوبها، ما هذا؟ على مرأى ومسمع والجمع لا يلتفت، بل إن شابًا يتطلع إليهما، ثم يميل ليربت كتف الرجل مبديا الرضا والاستحسان؟

تحت سرادق فى المنتصف تقريبا، فرقة من أرباب الآلات، حوالى سبعة، ستة تتدرج أعمارهم من الصبا إلى الشباب، شيخ يتوسطهم يرتدى جلبابا أبيض وغطاء رأس أحمر، لولا إغماضه عينينه الأبدية لظنه القيم، حضوره وهيئته متماثلتان، يمسك آلة وترية. يسندها إلى ركبته يمرر فوقها قوسًا، أوتارها أربعة أو خمسة، الآخرون يعزفون، عود، رق، قانون، طنبور، ناى طويل، ناى قصير ذو شعبتين، أيديهم تتحرك، تلمس أو تطرق، لكن ما من صوت، ما من نغم، هل يجربون أنفسهم، لكن أى أصوات موسيقية أصغيت إليها عن بعد؟

نار موقدة هنا وهناك، شواء، شواء. انتبه إلى جوعه وحرمانه من الطعام الساخن منذ خروجه القسرى على أم رأسه، بعد أيام عرف فيها لحم الطاووس المطهى على البخار، وأطباقا من ألسنة السمك، وعيون المها المقلية فى زيت النعناع . .

جائع :

لم يتطلع إليه أحد، لم يستوقفه رجل، لم يزعق فيه طفل، كل لاه،

لم يحدث ظهوره أي رد فعل، كأنه يسعى بينهم منذ زمن، أقدم على الطعام، أكل وشرب، وتمدد مسترخيا، مسترجعًا، متنقلا ما بين اليقظة والوسن، دانيا بين الحين والحين لعل خبرا يأتيه من النجوم الشوارد!

فارقه حذره، لم يعد يتلفت خشية البغتة، وهنت غربته مع اشتدادها، بل إن لا مبالاة حلت به، ماذا سيجرى أكثر مما جرى؟، هذا مما صار يتردد عنده، عكس الترقب الذى لازمه مراحل شتى كلما قطع مسافة أو بلغ أرضًا تحوى جديدا، غريبا.

مع إطلالة الشمس اتجه القوم إليها، ولأول مرة يسمع الموسيقى تصدح فى أنغام سريعة لولبية التصاعد، عانق بعضهم بعضا، ولثمه أحدهم، وصافحته امرأة شابة، لكنه عندما تماست نظراته بتلك الصبية النافرة أدرك أنه عند حدود المغامرة، وأن جديدا ينتظره.

«ابتهج . . فلا ندرى هل ستطلع الشمس غدا أم لا؟».

يقول أحمد بن عبد الله، إن صوتها كان سوسنيا، منمنما كقدها، كما أن أول جملة توجه إليه حوت إشارة إلى معتقدات القوم والتى بدأ يكتشفها شيئا فشيئًا.

قال إنه طوال إصغائه إلى خبر البنية الهندية كانت هذه الصبية ماثلة أمامه لكنه لم يشأ أن يفصح حتى لا يفسد، كانت شديدة النفاذ إليه، برغم كثرة من عرفهن مدة سلطنته وتمكنه لم يستطع إجراء أى مقارنة، ما من شبيه، ربما لوعيه أن كل أنثى بازغة فى لب الوجود مختلفة.

ما أجج رغبته مع نصبه وكده الداخلى لبعد الشقة أنوثتها الفياضة العابرة، تكوينها الجسدى الدقيق، طفولته ملامحها، إيماءاتها، غلمنتها، إذ بدت تلخيصا للبشرية بشقيها الأنثوى والذكورى ولهذا سحر!

تطلع حوله، خطا نحوها، كان مستعدا، لكنها مدت يدها . .

«الأوان لم يحن بعد . . ».

تقبله الرفض صعب بعد قدر ليس هينًا من الزمن كان القوم يسعون فيه بأبكارهن إليه طلبا للبركة، لم يقدر على الإلحاح، انبثق وعيه بغربته، لا يعرف رد الفعل الممكن، هذا شعور يطل فجأة، لازمه فى الواحة، فى الإقليم، فى عبوره الصحراء متبعا مسيرة الشمس، دائما يفاجأ بما يجهل فلينم على الفور.

تطلع إلى حركة القوم، من أين يجيئون وإلى أين يذهبون؟ هذا الطعام وتلك القدور، ما المصدر؟ . عندما فتح عينيه أول صباح هنا سمع حفيف الصمت الملكى الذى يتردد فى غرفة نومه الفسيحة كميدان يتوسط مدينة . أصغى إلى النعومة المدثرة، لكنه سرعان ما وعى، كم لبث؟

لا يدرى، هنا تأخذه الإغفاءة فجأة، ربما لطول تعبه، ودسامة الطعام بعد طول حرمان، القوم منتظمون حول أرباب الآلات . للصبية عطر خفيف لم يخطئه، داخله تراث من الروائح المتنوعة، صينية، زنجية صقلبية، العطور المخصصة للوجه مختلفة عن تلك التى تدلك بها الأعضاء الداخلية، واليدان، وما بين الفخذين، أما الشعر فله محاليل وتراكيب، كان الحلاق من أهم شخصيات القصر المقربة منه . . ألا يسلم له ذقنه ورقبته؟

ينتمى هذا إلى شخص آخر غيره، حتى الواحة، وامرأته، وطفله الذى لم يره . حقا . . كم ابنا خلف فى الإقليم؟ كيف سيعاملون بعده؟ تساءل : هل مرّ حقا بتلك الأيام؟ يشك فيما عنده، ولكن يومض بارق

خاطف فتتفجر لحظات ظن اندثارها، يتوق إلى درجة ضوء، أو ركن لا يذكر موضعه بالضبط، مجرد عبير واهن يبعث عنده زمنا أتم، مجرد إشارة توقد داخله نارًا ظن خمودها.

غرابة ما عاينه شغلته عن محاولة الفهم. أما رغبته في الصبية فاستعرت خاصة أن كافة ما يجرى حوله منفلت عن كل ما عهد مدخله إليهم جاء عبر الرقص، وتفصيل ذلك أننى انتبهت إلى عزف هادئ بدأ وكأنه بلا مصدر. نابع من الفراغ. تفتقت عنده لحظات طال بعدها، إصباح القاهرة، طلوع الشمس فى الصحراء وغروبها الغامض، وأصوات الليل فى البرية، واتقاد نشوته المفاجئ.

ازدادت سرعة الأنغام، تلاحقت، تنقل بين الفائت والحاضر وما لم يعرفه بعد، يمسك قائد الفريق بطلبة قصيرة، أسند الآلة الوترية الأخرى إلى جواره، يحدق إلى الأرض باتجاه نقطة لا يحيد عنها. يتبع الآخرون هزات رأسه، من لحظة إلى أخرى يضرب الطبلة بطرف إصبعه فيتغير الاتجاه. مع نهاية كل لحن يستديرون تجاه إحدى الجهات الأربع، يحنون رءوسهم، عندئذ تعلو أصوات القوم بترتيب موفق، وإذ يصغون يبدأ العزف من جديد.

قام واقفا عندما اندلعت أنغام راقصة، تمايل يمينا ويسارًا، أشار بإصبع إلى لحظة مولية، وبآخر إلى لحظة آتية، فرد ذراعيه على سعتهما، دار على ساقين، ثم على واحدة، زاد من سرعته حتى لم يعد قادرًا على رؤية جسده، أو من يحيطون به، لم يتوقف، كأنه يسعى إلى ما لا يدرك.

بعد أن هدأ فوجئ برجلين أحدهما خمسينى والآخر أكبر، معهما

امرأة غاربة، كانت تحملق إليه، تحاول أن تقلد رقصة، سأله أحدهما..

«أين أتقنت هذا الرقص؟»

هذا السؤال فاتحة تعرفه إليهم، أجاب موضحا منبعه لكنه أخفى مقصده، قال إنما هو سائح فى أرض الله، استفسروا عن المدن التى مرّ بها، المدن بالتحديد، هل رأى هناك ما ينم عن اليوم الذى تقوم فيه القيامة؟

استفسر منهم، شيئا فشيئا بدأ يدرك، عند أى قوم حل؟

إنهم العكاكزة، أو أصحاب العكاكيز..

قال أحمد بن عبد الله هون الله عليه فى آخرته كما هون عليه ما كان من دنياه، إن هؤلاء قوم كانوا يسكنون إقليما شاسعا عامراً بالمدن والأنحاء، والأسواق، تمر به دروب القوافل المتجهة غربا إلى المحيط وجنوبا إلى بلاد الزنج.

ثم جاء رجل من المشرق، لا يعرف أحد من أى جهة بالضبط؟، كان يرتدى الأبيض الناصع، ويمشى على عكاز خشبى مع أنه بدا صحيحا، سليم الأطراف، قال إنه جاء من الجبال بعد اعتكاف دام أكثر من مائة عام مما يعد الناس، حتى رأى فى المنام شيخا جليلا يقول له: أنائم أنت والأوان يدنو؟، سأله مرتجفا، أى أوان؟، قال الشيخ إن يوم القيامة قريب والساعة وشيكة، أمره بالنزول إلى الناس ليأخذوا نصيبهم من الدنيا!

قام مفزوعا، وعنده يقين أن ثمة تغيرا هائلا وقع لكنه لم يستطع التحديد، فارق موضعه، منهيا خلوته على الفور، نزل الإقليم وبدأ

ينذر الخلق، ويقول إن ما تبقى قليل، وكافة ملذات الدنيا فى سبيلها إلى الفناء، فلينهل كلا منها بقدر استطاعته، ورحمة الله واسعة!

سرعان ما لاقى كلامه هوى فى نفوس البعض، فى البداية صاروا يجولون الطرقات منبهين، منذرين مذكرين بدنو الأجل النهائى، فى البداية مضى كثيرون إلى دور العبادة، اعتصموا بها، أقاموا الصلوات باستمرار، دفعوا أصواتهم بالدعاء والابتهال أن يغفر لهم، البعض طفش ظنا أن الهجاج في الأرض منجيهم، منهم من فارق امرأته وعياله ومنهم من صحب أهله، أما اتباع صاحب العكاز فقالوا بقصر ما تبقى من مدة، وحرج الوقت، وأن الحياة فيها مباهج عديدة لا يحيط العمر بها، ما يعرفونه أفضل مما يجهلونه، ما من وقت ليضيعوه، خرجوا من المدن المعمورة إلى الخلاء البعيد، وبدأ كل منهم يفعل ما يريد، ولكن وفق خطى كثر الحديث عنها، فمن ذلك قيامهم بإتيان كل ما هو معاكس لما استقر عند القوم، لم يتخذوا بيوتا، إنما مجرد سرادقات من قماش، وأدنى ما يحتاجون من فرش، وهب كل منهم ما لديه للجماعة، وأطلقوا العنان، ومما أقدموا عليه شرط إماتة النفس المعنوية قبل الالتحاق بهم، من ذلك ضرورة أكل لحم الميتة، وقولهم فى ذلك إنها ذبيحة الله، فلماذا الامتناع؟ وضرورة أن يصحب القادم امرأته، ويشهد وطأها من جانب من لا يعرف وهو ناظر لما يجرى لزوجته أو ابنته أو ابنه، حتى إذا بدا طبيعيا غير مبال صفقوا وحق له المشاركة، كفوا عن مناداة بعضهم بالأسماء أو الألقاب، صار الابن ينادى أمه فلا تلتفت إليه، وإذا طق أى خاطر فى دماغ أحدهم يقوم لينفذه فوراً بدون أن يواجه لومًا أو ردعًا، ومما قاله بعضهم إن اليوم لنا وغدا لا ندرى ما سيجرى فيه.

والشمس الغاربة من يضمن رجوعها إذا كان النذير بالقيامة أطل

ولاح، لينفق كل ما بحوزته، ليفعل كل ما يروق له، ولا داعى لإظهار ما يخالف باطنه.

يقول أحمد بن عبد الله إن بعضا مما سمعه لا يرغب فى ترديده، كما أن أمورًا كثيرة جرت لم يستطع فهمها أو إدراكها، رأى خلال إقامته التى لم تمتد بينهم طويلا عجبًا، بعضه ارتدى المصبوغ من الثياب النسائية، حمار الذكر من هؤلاء يمشى متمايلا، متثنيا، مطقطقا بأصابعه كالراقصات، آخرون تجردوا تماما وكشفوا عوراتهم، اشتهر فى الإقليم أمر رجل شرطة عرف بانضباطه وقسوته وفظاظته مع الضعفاء والأيتام وأصحاب الحاجات، كان مجرد ظهوره فى الأسواق يسبب سريان رعدة، ذات ظهيرة وقف فى فناء مبنى الشرطة خلع ملابسه المزركشة المحلاة بالقصب، وأشعل فيها النيران، تجرد تماما إلا من عكاز اتخذه من غصن شجرة سنط، لم يعد يدخل من باب بيته، بل راح يتسلق الشرفات، والجدران، صار يهجم على النساء، يخطف الحلى والمصاغ من حول أعناقهن، يقطع الطريق على بعض العائدين، ويختفى عند الزوايا حتى إذا اقترب أطفال يخرج فجأة ملوحًا بعكازه، يفرون فزعين، ثم سعى إلى الخلاء..

آخر كان تاجرًا للأعشاب المداوية، بل إنه عالم متجر فيها، ضج الناس منه بعد أن بدأ يعطى المرضى عكس ما يصفه الأطباء فلا يزدادون إلا خسرانا مبينا..

ثالث ربط نفسه مكان البهيمة التى تجر عربته، وراح يعدو بها فى الأسواق ناهقًا، زاعقًا.

كثيرون هجروا محلاتهم، لماذا البيع والشراء، لماذا تكبد المشاق لإحضار البضائع النادرة أو نقلها، لم يعد الاهتمام منصبا إلا حول الطعام والشراب، يقال إن شابا ثريا توفى أول الهوجة فجأة ولم يكن

متزوجا، لا ابن له، ورثه أحد أقاربه، ورآه الناس مهمومًا مغمومًا، مع أن الشراء نزل عليه بعد إملاق، كان يتساءل، كيف ينفق ما آل إليه؟ حتى إنه جمع صحبه وسألهم:

«أريد عملاً وتجارة لا تعود علي بربح»

قال واحد منهم

«تصدق بها على الفقراء».

قال

«الحسنة بعشرة أمثالها: أخشى أن أكافأ فيعود إلى أضعاف المال»

قال آخر

«اشتر جمالا وحملها برمال الصحراء من الجانب الغربي إلى الشرقى».

قال

«ربما يسفر نبش الرمل عن كنز فيئول أمره إليّ..».

قال احدهم

«اشتر كافة الإبر المعدنية الصغيرة واصهرها فى سبيكتين لن تزيد قيمتها على درهمين».

أجاب

«أليس يرجع منهما درهما؟».

قال نديم له

«إذن . . اشتر الزجاج من مشارق الأرض ومغاربها واكسره . . » .

أبدى حماسًا ، صاح

«هو ذاك . . » .

استأجر القوافل ، صار يرسلها إلى المدن القريبة والبعيدة تشترى كل آنية من زجاج ، ما رخص وارتفعت قيمته ، ثم يجمعها فى كومة خارج البلد ولا ينصرف إلا بعد انتهاء العمال الذين استأجرهم من التحطيم .

قال أحمد بن عبد الله إنه لا يريد الإطالة ، فالتفاصيل لا حصر لها ، كم من نساء كن خافرات ، منتقبات ، خرجن إلى الشوارع حاسرات ، بعضهن عاريات كما ولدتهن أمهاتهن ، بل إن رجلا تزوج نخلة ، عشقها ، راح يمضى إليها ويحيطها بذراعيه ، يقبلها ويمسك جذعها ، ثم أعلن أنه عقد عليها ، وأنها تحدثه وتفضى إليه ، قال القوم إن هذا طبيعى مع اقتراب القيامة ، قاضى القضاة صار يحبو على أربع ، وكان إذا رأى كلابا ضالة نبح فى وجهها ، فتفر منه الضوارى مذعورة بعد أن يوسعها عضا وخمشا ، انفلت الأمر وطق العيار ، وصار ظهور الإنسان مهما اختلف قدره أو شأنه ممسكا بعكاز خشبى كأنه إعلان للكافة بتوقع أى تصرف منه .

حدث أحمد بن عبد الله فقال إنه نظر فى وضعه فخشى على نفسه ، ذلك أن بقاءه جامدا ، متماسكا ، رزينا ، لما يثير القوم ، لذلك أقدم على إتيان ما لم يفعله فى الواحة ، أو عندما تمكن من رقاب العباد زمن ملكه ، يعى الآن أنه شعر فى القصر بوطأة الرصد ، لم يفارقه يقيه أن عيونا خفية ترقبه فى أشد أوقاته خصوصية .

خلع ملابسه ومشى عاريا بينهم ، لا يمسك إلا مخلاته بيمينه ، أضمر النية أن يموت دونها لو حاول أحدهم سلبها ، لا يستتر إلا إذا

مسه برد الخلاء، وعندما انتبه إلى نفسه يمشى منثنيا أدركه خوف تحوله إلى أنثى نتيجة مكثه فى إقليم الطير حاكما ومدبرا، هل ألم بما قدم له من طعام وعطور وأدوية؟ . هل يفلت من قانون يحكم البشر هناك لمجرد أنه ابتعد مرغما؟

طوال أيام عريه لم يتطلع إليه إنسان بنفور، لم ينهره صبى أو رجل، بل إن النساء كن راضيات، إحداهن توقفت أمامه وتفحصته ثم ضحكت ومضت، فى الليل يقبلن عليه، لا يعرف أيا منهن، يتم المضاجعة ولا يدرى، لكنه كان دائم البحث عن تلك الصبية، فى كل إقليم تلوح له غيداء، يتعلق بها وتمضى، لم ينس هذه البنية التى توسطت زميلاتها عند وصوله إقليم الطير، أبدا . . لن تروح انحناءتها من باله، حتى الآن يستمد رغبته من استدعائها، فى الليل إذ تقترب منه امرأة يتنسم الفراغ بحثا عن الرائحة الخافتة السوسنية، لكنه عبثا يسعى!

يقول إنه اعتاد صراخ القوم المفاجئ، ورقصهم المباغت، وزعيق هذا، وصمت ذاك، تشقلب عجوز، ورنو غلام، لكنه ضاق بما حوله، ربما خشى على نفسه، وما رآه حوله جعله يحذر، ولأنهم تحدثوا إليه فقد اعتبروه واحدا من جماعتهم حتى إن شيخا منهم قدم إليه عكازا، لا يصل إنسان هنا إلا سعيا للانضمام إليهم، هذا مفروغ منه عندهم، يقول أحمد بن عبد الله، إنه لم ينتظر بزوغ الهاتف فى أفق وجوده، لأول مرة منذ بدء اغترابه يفارق موضع إقامة طوعًا مع علمه بوحشة القفر ويبوسة البادية، آخر ما رآه رجل يتمنطق بحزام جلدى، يمسك بسيفه الخشبى ملوحًا، مهددًا شيئا غامضا لا يبين.

أولى ظهره لموضع الشمس، مضى وعنده دافع مبهم، وتوقع لما لا يدريه. وترقب لما لم يحط به علمًا.

هذا مما
خطه أحمد بن عبد الله بيده

إذن . . يممت وجهي طائعا، ملبيا، جهة مغيب الشمس، أقفو أثرها، لا أدرى . . هل تمشى بى أو أمضى بها؟

أحيانا يشب داخلي وازع، أن أنثنى، أن أعصى، أسلك ما جئت منه صوب المشرق، أولى إلى كافة ما مضى منى، غير أن مانعا يبدأ منى، ومن خشية الهاتف يحول دونى .

إنى مطلع الآن على الدروب العامرة، والمدن المسكونة المؤدية إلى المشرق . لكن الخاطر ينبهنى، لقد لاقيت ما لا تتوقعه وما لم تتخيله عند قطع الخراب، ـالصحراء المجدبة، المقفرة، فماذا يتنظرنى فى البر المعمور، وكم أحتاج من وقت؟

استسلمت لتأجج حنينى، تحركه أمور دقاق، ربما لا تعنى لغيرى شيئا، لكنها عندى الأمر كله . من ذلك هبوب نسمات حانية، تطاول الظلال عند العصارى . استرسال أذان ينبعث من فوق مئذنة نائية، جبلت على حب الواهب من الضوء . خاصة لحظات الانتقال من النهارات إلى الليالى القاهرية، دنو الغسق، انعكاس لهب شمعة تحنو عليها مشكاة على بلاط مبلل بقطر المطر . انعكاس ضوء على قماش أخضر يغطى ضريح أحد العابرين من الصالحين المجهولين . كلما

استعدته أكاد أنفطر، أوقن أنه يتنفس. أن الغطاء يرتفع وينزل بتأثير شهيق غامض وزفير محير، أكاد أتذرى، لست شرقيا أو غربيا إذ أستعيد الشريط الأصفر، مكتوبا بحروف كبيرة، متداخلة لم ينسخها كاتبها، إنما بذل الجهد لمحاكاة المعنى:

﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ بقدر هَمِيى وتوقى، بدأت أقف على ما لم أتبينه جليا من قبل وأنا ممعن فى غمارى.

ما كان راسخا عندى يتشظى.

ما ظننت أنه يبيد أبدا. لا ألمحه مهما سددت البصر. وإذا خطر فلا يسفر إلا عن نتف باهته كأنها تخص غيرى. كنت عند بدء وعيى بذلك يكاد الدمع يفيض، وإذا رآنى من يعرفنى أو من يجهلنى يظننى كالمغشى عليه من ألم الفقد، لكن.. مع طول رحيلى وتنقلى يبس شىء لا يبين عندى، صرت أتقبل ما كان وعراً علىّ تحمله، ولا أنفر جزعًا مما لم يخطر لى توقعه.

عندما التقيت مصادفة بالقافلة فى حومة السوق، عند حافة المحيط، آخر البر المعروف، لم أدهش وكأننى توقعت ذلك، عندما أخبرنى بموت الحضرموتى، هفا قلبى لكننى سرعان ما وليت وإن استعدته فيما تلا ذلك وتأسيت!

هل يقسو القلب مع طول السفر؟. لماذا أنسى ما ظننت أنه لن يفارق قلبى وبالى أبدًا؟. هل الاقتراب من موضع المغيب له صلة؟

غير أنى ترقرقت أسفا عندما أطلعنى على اختفاء جزيرة تنيس، طغا عليها موج البحر إثر موت آخر شجرة بلسان، بذلك اختفى من الدنيا، أما الطيور فحادت بعد أن كانت تأتيها من كل فج.

كمدت . . مع أننى لم أر تنيس قط لم أمر بها ، ولن أشهدها ، ليس لاختفائها ، ولكن لموقعها الشرقى عندى . بينما كل سعيى صوب موضع المغيب .

أحيانا أهفو .

لو أننى على مقربة من الأزهر الآن ، أسعى كل يوم إلى ضريح مولانا وسيدنا الحسين ، أطالع الآيات المنقوشة على جدرانه ، وتنانيره ، ومشكواته ، وأتنسم عبيره الخفى ، لو أننى أسعى ما بين بوابة الفتوح وميدان الرميلة ، لو أن امرأتى الواحية تنتظر عودتى عند الظهر فى بيت مكنون بصحبة ابنى الذى لم أطالع وجهه !

لو تتجسد اللحظة الآنية فأحاط علمًا بما يجرى فى كل موضع حللت به . لكننى أطلب المستحيل ، لو أوتيت البراق عينه فمجرد نقلتى من هنا إلى هناك تلغى الآنية ، إذن . . ما أنا إلا محكوم عليه بالعدم . عندما أصل منتهاى تبدأ رحلتى ، كينونتى الحقة .

لما ذاضيعت ما ضعيت إذن؟

ألم يكن ممكنا تلبية الهاتف فى دار إقامتى؟

يبدو صاحبى ، مدون قولى ، وكأنه يدرك ما أعنى ، عرفه بدون رحيل ، بغير انتقال ، كذا ملامح الرجال المنتظرين هدوء البحر الأعظم فى مقهى البحارة .

استفسر صاحبى :

«ألم يرهقك الترحال؟» .

قلت :

«بلى . . » .

بدا متعجبا :

«لماذا المواصلة إذن وقد بلغت ما بلغت؟» .

قلت :

«لكى يطمئن قلبى . . » .

الظـلال..

خطواته أقصر، لكن . . أسرع، النهارات تتوالى، الليالى تنتهى لتبدأ، كم غروب توالى عليه؟ كم امتدت إقامته؟ لا يمكنه التحديد، إنه يشك الآن فيما عنده.

هذا ما كرره أحمد بن عبد الله فى جلستنا الأخيرة، قال إن سنوات شتى تعاقبت عليه، يراها عند هذا الحد حلما يصعب أحيانا استرجاع تفاصيله وملامحه.

وقوفه اليومى عند حافة البر وأول البحر، رؤيته الغروب أضاءت عنده ما ظنه معتما. إنه يمضى الآن غربا بغير نداء هاتف، لا يعرف إلى أين تؤدى المراحل التالية، ما خلفه وراءه أكثر مما يتوقعه، لا يترقب مثل الحقب المنقضية منه، لكنه يتوجس خيفة بعد أربعين غروبا من مشيه وحيدا. منقطعا عن الخلق تماما، بدأ ظهور نخيل، أشكال غريبة من الصبار، تغير لون الرمال من صفرة إلى حمرة. أيقن أنه على وشك بلوغ علامة فارقة. خاصة عندما رأى طيوراً محومة.

هل ترقبه؟ تتحين اللحظة المناسبة للانقضاض عليه، هل يدنو مصيره؟ يعرف قدرة تلك الجوارح على رؤية سعى النمل من تلك الارتفاعات الشاهقة. ربما ترقب وهنه وكفه عن السعى لتأخذ نصيبها منه، فى الواحة اعتقد أهلها أنها تبنى أعشاشها فى الفراغات العلا،

تبيض وتتكاثر فى السماء، الحضرموتى أخبره عن أوكارها فى رءوس الجبال، متابعتها القوافل عسى أن يتخلف عنها ما يمكن التقاطه. مثل ضبع يتعقب ضحيته، يراوغها مرة يأتى من يمين، وأخرى من شمال، حتى إذا تمكن الدوار وبدأ الخبال يدنو. يلحس ما تحت الإبط، ما حول الاست، يفكك أعصاب الفريسة، ثم ينشب أنيابه على مهل.

لكم استعاد فى قفره نظرة الحضرموتى الحادة. تلويحه إصبعه القاطعة، إذ يحذره من خطورة الاستسلام للوهن. للاسترخاء بعد بلوغ التعب درجة قصوى. واليقين من انقطاع السبل، المسافر بمفرده أو الضال فى الصحارى يدركه هذا الحال، الركون إلى الكف، التوقف عن السعى، متعة بداية الصمت الأبدى، قال الحضرموتى إنه بقدر رغبة الإنسان فى الحياة ودوامها. يسعى طائعا، مختاراً إلى العدو، هذا بيان!، لم ينس ذلك.

لكم ألح عليه الخاطر وقويت الرغبة، أن يكف، أن يستكين عند الموضع الذى بلغه، أوشك على تقبل ما يصدر عنه، لكنه يذكر الرجل النحيل الذى طاف العالم المعمور عدة مرات فينتفض مفارقًا مكانه أيا كان الوقت!

عند الأصيل بلغ مرتفعا من الأرض، الحواف الرملية كلها مؤدية إلى المدينة. رآها مستقرة فى الوادى، ألم بحدودها، كل أسقفها بادية، من قرميد أخضر، أما الجدران فبياضها شاهق، دقق فميز أفنية البيوت، والمداخل، والأزقة الصغيرة والطرقات الفسيحة، فى الوسط ما يشبه المئذنة، برج مستطيل حوله ثلاث شرفات.

كأنه يكتشف الهواء أول مرة، لينا، طيبا، لا بد أنه مر على بحر

قريب، أيقن أن زرقة الموج قريبة، استنشقه مستسلما للحنين وتوقع الوصول!

صحيح.. أنه لا يعرف ما سيلقاه، لكنه لم يعد يفكر كثيرا، لا يعبأ، بل إنه لا يتعجل اللحظة المرتقبة، بل يؤجلها قليلا، عندما يخلو بأنثى جميلة طال شوقه إليها، لا يتعجل عريها، إنما يؤجل لحظة الكشف، للتوقع لذة.

شرب ثلاث جرعات ماء من الركوة، استجمع قواه، على مهل حذر نزل المنحدر، بدا العصر هادئا، واعداً بإمكانية ما. فى الواحة يمتد الأصيل، يقع الغروب بغتة، تنطفئ الشمس بلا تمهيد، اختلف الأمر فى إقليم الطير، إذ يستمر النهار الخادع حتى يستقر الليل. كثيرا ما تأمل تلك الظاهرة من شرفة القصر الدائرية المخصصة لإمعان الفكر.

أحقًا عاين هذا؟

ترى.. من شغل مكانه؟

من قدم بعده؟

هل ظهر القيم بين المنتظرين، المستقبلين؟

من القادم الجديد؟ ما ملامحه؟

كيف تبدو صورته فى لوحات البهو الأعظم؟

لا تتوقف الأسئلة عن التداعى، المهم الآن.. ماذا ينتظره وراء تلك الأسوار؟. حتى اللحظة لم يطلع على إنسى أو حيوان أو طير، ليبدأ البحث عن أبواب السور، منافذه، لكل أمر مطلع ومفتتح. يقول أحمد بن عبد الله إنه رأى أعراضا لم يسمع بمثلها. تداخل عليه

الوقت، لم يعد قادرًا على تحديد المدة. كذلك رؤيته لمن أحب ومن عرف، أو من خطر على باله، أو عايشهم زمنًا، قبل لوح النسيان وزيغ البصر.

فى لحظة غروبية طالع امرأته الواحية، ماثلة أمامه، تماما كما فارقها، فى أوجها. مقبلة، متطلعة.. لكن إلى جهة أخرى، كأنه لا يمثل أمامها، لا يفصله عنها إلا مقدار خطوات، مسافة لا تزيد أو تنقص، مهما أقدم أو قطع، مرة أخرى كف، لزم مكانه واكتفى بالتطلع صامتًا بعد يقينه من انعدام الفراغ اللازم لمرور صوته، كلاهما لا يسمع الآخر ولا يراه.

تتوالى عليه المواجيد، وحالات الانتشاء، حتى ليبلغ منها ما يطاله الرجل من المرأة ولكن.. بدو تماس، بالضبط كامتلاء المرء، يضاجع الهباء، بينما يعمل الجسد المحسوس عمله.

رأى البنية الفارهة، اللدنة، فى وضعها المنحنى، لم يدركها رغم ملكه، بقيت صورتها تلهب مخيلته بعد أن أبقاها فى دائرة التمنى.

تابع صبية العكاكيز، كانت تتثنى، تتمايل، مبرزة شرافات جسدها وأغواره، كيف لا يتحرك عنده نبض؟

يرى فتاة فتحت بابا مغلقا أثناء عبوره طريقا فى مدينة جبلية، فور وقوع بصره على ملامحها، صاح:

«الله..».

لكنها سرعان ما ولت، لم يخف أسفا، تتداخل الملامح، يمتزج بعضها ببعض. تتشوه، تفقد خصوصيتها..

كان ذاك زمن رياسته، عندما أهدته قبيلة تسكن المقاطعة الحدودية ابنة زعيمها، بدت نحيلة، خاملة، كثيفة الخجل، حتى إنه أمضى ثلاثة أيام لم يطلبها لتناول العشاء معه وقضاء الوقت، مما اضطر القيم إلى تنبيهه بلطف، في إهمالها مخالفة للأعراف والأصول الرئاسية، قبيلتها في كرب، ورجالها مازالوا منتظرين المنديل الأبيض المبرقش بنقط الدم، تأخيرهم يعنى أنه ما من رجل فيهم سيمكنه رفع عينيه فى أى مخلوق، ربما أدى ذلك إلى فتن وضطرابات . . !

عندما نظر إليها أيقن من الجهد غير العادى المبذول لإعدادها له، أطرقت، تطلع إليها صامتًا، فجأة . . جذبها، فوجئت، لكنها لم تقاوم.

بالطبع . . على قدر المحبة تكون العناية، ولأنه كان مستهينا فلم يحرص، لكن مع اللحظات الأولى بدت علامة بدلت أحواله، إذ رآها تعض شفتها السفلى بسنتيها البارزتين، مجرد إقدامها أشعل دفئا حميما عنده. اتقد عندما أصغى إلى درجة صوتها المتخثر:

«خذنى بالراحة . . ».

لم يسمع مثله، اعتاده، لم يتم أمره معها إلا بعد مناغاتها، ونداءاتها. تسربها إلى دمه، إلى أقصى خلاياه، فى كل مرة يميل دماغها، تغمض العينين، يمرر تحت فتحتى أنفها خلاصة النعناع المركز، تفيق فيمتزجان.

هذه الهادئة الملامح، داخلها بئر نفط مشتعل، لم ير مثل ذلك، استعادها باستمرار، واستمد من وقتهما المبدد نشوة حاضرة.

رآها هنا. تمكن بصره منها، وثق أنها تتطلع إليه، لكن ما من تعبير

باد على وجهها، ما من رد فعل لمثوله فى مواجهتها . . أمامه صاحب نسيه منذ زمن بعد، كانا صديقين، لا يفترقان، لكم أقسما على أن يلزم كل منهما الآخر . ثم كرت الأيام، تذرى كل منهما فى ناحية، لسنوات نسى ملامحه حتى رآها أمامه ماثلة فتساءل عما إذا كان حيًا يسعى أم أنه غاب إلى الأبد؟

شيخ مهيب، صموت، كان يظهر عند المنحنى قادما من الحوارى الجوانية، قفطانه شاهى، لحيته بيضاء، كان يلقى درس العصر فى صحن الأزهر ويصلى المغرب وخلفه الخلق، لم يعرفوا اسمه ولم يطلع أحد عليه، أسماه الناس بالجوانى لأنه كان يجىء من هناك .

حلاق، كل شىء يمت إليه نظيف، يبدو دائما متأففا، شاكا فيما حوله، نافضا الغبار دائما عن كل ما يحيطه . إذا رآه واقفا أمام دكانه يسرع الخطا . .

بائع جبن، عيناه واسعتان، إذا كشف رأسه بدا شعره غزيرا، منمقًا، ناعمًا، مسترسلاً .

ملامح لا يذكر أسماء أصحابها تتوالى . مواضع مر بها يومًا، أشجار عتيقة، نخيل، موائد طعم منها، أرائك جلس عليها، يبدو هذا كله أمامه، لكن ثمة حاجزاً شفافا حتى لا يمكن رؤيته أو اجتيازه، لدهشته رأى ما لم يره فى حينه، بينما غابت عنه أمور ظن أنها ستتمكن منه أبدا .

ما تعجب منه أن تقديره للوقت اختلف فى أثناء انتظاره، كأن الشمس تتخذ مداراً أسرع، أو فى بعض الساعات بعضها تندغم، كثيرا ما ردد : هل أتى عليه زمن لم يكن شيئا مذكوراً؟

حدث أحمد بن عبد الله فقال إنه عند لحظة لا يمكنه تحديد موقعها، شعر بالبوابة تفتح قبل أن يرى مصراعيها منفرجين.

اجتازها. .

بمجرد عبورها كأن غشاوة أحاطته من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، دثرت وجوده المادى. رأى الضباب خلال رحيله فى درجات شتى، من خفيف هين إلى كثيف كاللبن، لكنه اختلف هنا، بدا سائلاً باستمرار، كما تفرد الضباب القادم من المحيط والذى فوجئ به هنا، فجأة يظهر من العمق السحيق، يتقدم فى كرات حلزونية هائلة، يشمل كل شىء كالنبأ العظيم.

فى الواحة يخشون ظهوره. ذات صباح بدا كأنه قادم من أعماق الأرض. اضطربت امرأته، قالت إن هذا نذير. تطلع إليها حائراً فوجئ بانطوائها، بابتعادها، بتوجسها.

ما أكثر ما اطلع عليه من معتقداتهم، لا يرون نخلة أنثى إلا ونطقوا بتحية حارة. لا يعبرون جسراً أو شقا فى الأرض إلا بعد استئذان القرين الخفى المقيم تحت الأرض. لكل شىء ظاهر عندهم حضور آخر خفى.

إذا بدأوا الطعام تمتموا. إذا فرغوا تلفتوا حولهم ثلاث مرات. إذا انتقل أحدهم من بيت إلى بيت لزم أن يتلو عبارة عند البوابة تعنى أن باب الأول يسلم على الثانى.

حرصوا على ألا يلقى كبير أو صغير نواة بلح فى عرض الطريق، لا بد أن يقوم كل منهم بوضعها فى جرة ذات شكل خاص توضع تحت الإبط. ما أكثر ذلك. لكن. . أين انقضى؟

تفاصيل دقيقة تتوالى عليه بينما يلفه هذا الضباب الغريب، لم يكن باستطاعته رؤية إصبعه لو وضعه أمام عينيه مباشرة، ولا تلك الزاوية من أنفه التى اعتاد النظر إليها إذ ينظر إلى أسفل محاولاً إدراك ملامحه بنفسه.

لم يكن بحاجة إلى انقضاء وقت آخر ليدرك أنه وصل إلى درجة يمكنه فيها السعى بدون رؤية. كافة ما رآه من الخارج عند وقوفه المرتفع. البيوت، الأزقة، القرميد الأخضر، له وجود مغاير بعد عبور البوابة، يمكن القول إنه اللاوجود، ليست الأشياء فقط، إنما البشر، ليس الساعين، إنما كل حى، كل وافد، انتفى كل محسوس.

تمامًا.. مثل لحظات الانتقال من اليقظة إلى النوم.

ذلك الحال.. عندما يحلم المرء أنه يطير فى الهواء أو يسبح تحت الماء هذا بالضبط ما لقى نفسه فيه.

لا يذكر متى بدأ معه هذا العرض، فى الواحة أو إقليم الطير، المؤكد أنه لم يعرفه فى زمنه المصرى، وخلال مراحل القافلة، حال مقيت، لا قدرة له على دفعه، أو منعه، يداهمه حيث لا يتوقع.

يصحو فى أثناء نومه ليجد نفسه غير مستيقظ!

يكون وعيه حادًا، منتبهًا لكافة ما يحيطه، لكنه غير قادر على تحريك أطرافه، أقصى إمكانه إصدار صوت مكتوم من أنفه، لكم أفزع ذلك امرأته الأولى فى البداية. كانت تهزه برفق هين، وهى لا تدرى ماذا تنطق؟ وأى عبارة تلفظ؟

إذن..

عرفه أثناء مكثه فى الواحة. يتذكر مضيها إلى قصاص الأثر. أوصاها الرفق به. ألا تفزعه، إنما تأخذه على مهل، فلن تقدر على الشياطين التى تدخل فى عراك مع زوجها لاختطافه من عالم البشرية!

فيما بعد أدرك أن ما ظنه وعيًا حادًا إنما هو مجرد وهم. بالأمس كاد يهلك لطول النزع، فى كل نوبة يسمع خطا امرأته الواحية، إذ تقترب يهدأ عراكه مع المجهول، تخفت مقاومته انتظاراً لسماع النداء واللمسة الحانية التى ستنهى وثاقه الكونى، لكن صوتها لا يصل إليه، وجودها يظل بمنأى.

ماذا جرى

تباغته دفقة من الوعى المفاجئ، إنها قصية عنه، فارقها مرغمًا، إنه فى مكان جد مغاير، وسرعان ما يستأنف مشقة النزع أو تستأنفه.

أقول أنا جمال بن عبد الله مدونه إننى اقتربت منه مشفقا، بدا متعبا مجهدا، كأن نصب الرحلة حط عليه مرة واحدة، أثق فى أنه يرغب الإفضاء بشىء كثيرا ما لمحته فى طلة عينيه، على حافة شفتيه، لكنه لا يبين، لما طال صمته وسمعت أنفاسه مجهدة متلاحقة، اقترحت خروجنا معا إلى شاطئ البحر المحيط.أشار بيده، قال إنه مطلعنى للتو على ما جرى له فالغروب شديد!

قال إن ما يمر بنومه مؤقت، لكنه يلقى عليه ظلا ثقيلا، حذره قصاص الأثر من تهجد الأنفاس، ربما يلقى خاتمته إذا ثقل عليه الأمر، أما ما لقى نفسه فيه بعد عبوره البوابة فكان شاملا. طفا فى فراغ لا نهائى. ما من يابسة تحته، ولا جذع يمكن الاستناد إليه. فقد وعيه بأطرافه. يدرك وجود ساقيه ويديه وصدره وجذعه. لكنه لا يراها.

سائر أعضائه مجرد فكرة مستقرة عنده، كذا حركته، يخطر له المشى فيدرك أنه يسعى بدون خطو، بينما تتوالى عليه مرئيات متخيلة تتوارى طبقا لسرعته المفترضة.

يفكر أنه يمضى فى طريق ممتد، إذا خطرت له ناصية ظهرت وإذا استدعى مدخل بناية رآه كما صاغه عقله، وإذا رغب فى شرفات مطلة مثلت على الفور، أمامه تقوم بنايات لا تمكث إلا مقدار مرورها عبر وعيه. إذا شرد قليلا اختفت المعالم وانطوت الواجهات ودرست الرسوم. وامتد ذلك الفراغ المتماهى اللين الذى لا يمكن التشبث فيه بشىء.

تماما مثل المحيط.

لا أول ولا آخر. لا يمكن تحديد نقطة بداية وأخرى للنهاية، الغروب فيه إشارة، وزرقة الموج لا يطالها إدراك، فيه انتفاضات الحياة، وارتجافات الموت، عات.. لا قبل لإنسان به.

أصوات!

خرير ماء. ربما ينحدر من مرتفع. أو يتدفق من صنبور إلى حوض من مرمر، يترقرق فى جدول مفروش بالحصى.

أصوات متدخلة، بعضها واضح، تتضمن تساؤلات:

من هو؟

من أين جاء؟

إلى أين وجهته؟

كأنها صادرة عن محققين، بوعيه الطافى أجاب عن كل استفسار رغم جهله بالمصدر، وانعدام اليقين، يحاول استدعاء الأقربين ليأتنس، لكنه لا يرى إلا ظلالا مارقة. أمه مجرد أصداء، همسة سرعان ما تتلاشى.

أما والده فلم يتبق منه إلا معنى يشى بحيرة خفية، غامضة، وخطوه إذ يسعى.

عند حد معين أيقن أنه لم يعد بمفرده، أنه يتماس مع كيان آخر، أنثوى الحضور، وجد لذلك متعة. لكنها ليست مما عهد. جديد عليه ذلك، يعيشها لكنها تبدو مستعادة عبر الحنين، تتداخل مع بقايا عطر منبعث من خشب الصندل، وعبير شعر منسدل على عنق سرح، متطاول، مؤد، انبعاثات الزوايا الدقيقة للجسد التأجج، لكل منهن عقبها الخاص، حتى المستدعيات بالمخيلة!

يتعرف على المدينة غير المرئية، يقترب من تحديد بعض المعالم، يبدو أن مهمة أسندت إليه، وظيفة أو تجارة يتكسب منها أو ينشغل بها، ربما يكتب أوراقا قصيرة تشبه الإيصالات، يسلمها إلى أناس شتى لا يمكنه التحقق من ملامحهم، سرعان ما يولون مبتعدين موقن أنه صاحب تجارة ما. يجلس عند ناصية سوق التوابل والعطور، فى دكانه أوعية لم يتبينها تماما، أهى مصنوعات جلدية؟

رائحة جلد مدبوغ، لكنه يشك فيما يرى، لا. . ليس متجراً للجلد، إنما محل صغير، عطور. . أرفف من خشب قديم، مطرزة، مطعمة الحواف. تغطى الجدران، زجاجات صغيرة، بعضها ملون، دقيقة الحجم، فل، ياسمين، جلنار، شقائق نعمان، بنفسج، نرجس،

عود، قشور أشجار تنبت فى أقاصى الدنيا، عنبر يطرحه المحيط، يطيل النظر إلى إناء زجاجى داخله ما يشبه تمساحا دقيقا جدا، ساكن الحركة، أسير سائل ثقيل القوام.

يتذكر قولا لا يدرى أين سمعه ولا من قائله: تاجر العطور لا يخسر أبدا، إذا بارت تجارته فحسبه أنه تمتع برائحتها. لكنه يرى نفسه على رأس قافلة من الجمال، يعبر دربا ضيقا يحفه سور من طين لبن قديم يبرز فوقه سعف النخيل، وللنخيل عنده شأن عظيم، يمشى سعيا إلى منحنى لم يبد بعد، من أى جهة قدم؟ على أين؟

لا يدرى..

غير أنه موقن من امتلاكه مقهى صغير الحيز، لطيف المكان، يتوافد عليه قوم صامتون، يقعد قرب مدخله عند موضع مرتفع قليلا يشرف منه على الكافة، دكك مستطيلة، مناضد مستديرة، مقاعد من الجريد.

أين المقهى؟

لا يمكنه القطع، حتى الكيان الأنثوى الذى لازمه، تداخل به لا يعرفه. كيف يخلو إليها وكيف تقترن به؟ لا يمكنه توصيف لحظات المتعة التى يتفجر بها عند توالج عالمها.

أحيانا.. يوقن أنه كله مستعاد، حتى الآتى منه، ما هو إلا ظل لأصل فى مكان ما، كل ما انقضى منه فى متناوله، لكن.. ليس كما عهد، إنما كأصداء لا يدوم أحدها. وغمامات عابرة، قطرات متدفقة، لا تثبت إلا مقدار عبور الموجة للموجة.

ما من كينونة محسوسة، ما من ثابت مدرك، المدينة تتحدد عندما يشرع، وتزول إذا أراد. كل الطرق تبدأ منه وتنتهى إليه، ومعها

اللحظات المولية والقادمة . . تماما كالمحيط، بمقدار التحديق وإطالة النظر يمكن الاطلاع على ما يبغى .

ما طمح إلى رؤيته شاهده، لكنه لم يدركه، اطلع على القصر الكبير المطل على الطريق الرئيسى من القاهرة. رأى كافة المآذن والمداخل التى اجتازها أو عبر أمامها، تلك التى تأملها طويلا، والتى لم يعن بها .

اطلع على كافة من وقع بصرهم عليه، ومن رآهم بنظره، طلاب علم، تجار، شيوخ، جنود، روم، صقالبة، زنوج، كرد، جراكسة أرمن، أوزبك، تركمان، سفراء من الهند والصين، رعاة، زراع، صيادو سمك، أطباء، حجامون، مجبرون، مصحفون، علماء فى الأنواء والبروق والطيور، فى الآفاق، فى الصخور، عند الشفق والليل وما وسق .

كافة ما رأى، محلات، ميادين، برارى مقفرة، أقاليم شتى، الصداقات والعداوات والخلافات، ما حاول إدراكه مرارًا وما جهد لكى يلحق به، قلاع يسكنها مرابطون لا يغفلون .

هذه شجرة عتيقة، ضارية، مالت بعد انتصاب جذعها، انكشفت جذورها الدفينة. جفت واسودت، لكن بقيت صلة واهية بالتربة من خلال جذر واه سمكه كشعرة، عبره تخضر الأوراق وتتفرع الغصون. هذا من غريب ما رأى. عاوده مرارًا رغم كثرة ما مر به من عجائب .

لكن . . لم الدهشة؟

إذا كان المحيط الأعظم أصله قطرة . . فلم العجب؟

قال صاحبى أحمد بن عبد الله وصوته يتخذ نبرًا هادئًا حرت فى

توصيفه، فلم أجد إلا الهدوء الأتم والطيبة والسكينة. الصوت الملازم للمراحل النهائية، للخواتيم، عندما تتمهل الاندافعات، ويدرك البصر ما كلّ عن الإحاطة به، ويبدو قريبا كل ما ظنه المرء بعيدا. قال إنه لا يعرف حتى الآن كيف رجع إلى وضعه الأول خارج المدينة راضيا، مرضيا.

هل تردد الهاتف داخله؟

هل أتاه من بعيد؟

هل أمره باستئناف الرحيل إلى موضع الشمس؟

يسعى الآن صوبها بدونه.

قال غفر الله له:

«لم يهلكني إلا الحنين إلى ما لا يمكن إدراكه..».

ربِ أعــن..

حدث جمال بن عبد الله، كاتب بلاد المغرب، قال:

.. لم أفـاجـأ إلا أن خـواء بـدأ عندى، إذن.. قــدر علىّ أن أودع وأستقبل، أن يعبرنى الآخرون وأبقى. أن أنتظر. بدءا من ابنى شـقيقى. على أى أرض انتهى أكبرهما بعـد أدائه فريضة الحج منذ ثلاثة وعشرين عاما؟ أو.. فى أى بقعة هلك؟

هفـا علىّ الأصغـر، طالت رحلتـه منذ إقلاعـه فى الخريف. سـبعـة شتـاءات ولا أعرف عنه شيـئا. يماثلنى أحمـد بن عبد الله عـمراً وطولا وشرود عينيه رأيت فيه سرحـاتى، أشعر كأنه ابنى الذى لم أنجبه. كل ما أفضى به استقر عندى، حـتى حنينه واشتياقـه وحزنه على اختـفاء زهر البلسان وغرق تنيس وحرمانه من اجتياز المداخل التى ألفها وعرفها.

أبدى التصـديق والفهم عندما أفضيت إليه بنبأ الصبـية الهندية، أثق أنه يدرك، لكنه لم يبح، تـداخل الأمر علىّ، فـلا أدرى مـا وقع لى حقـا وما توهمته، كلاهما تساوى، ربِ يسر..

أجلت رفع تدوينى إلى سلطان الديار، تلك أوراق لا تخص غيرى، لم يملها علىّ غـريب قدم إلينا من المشرق وقص على القوم مـا عاينه من أمور تحيد البصر الحسير، ما تحويه متعلق بى، ليس لأننى كتبت حروفها، فى الأيام التى جمعتنا لم أكن مصغيا فقط.

لم أحط به كله، لم يطلعنى على الكتب التى حـوتها مخـلاته، فاتنى ذلك، فاتنى الكثـير مما رغبت معـرفته، ولكنى وقفت على كـثير، وددت ألا أطلع مـخلوقـا على مـا أفضى به إلىّ، كـأننى أهتك سـرى، الشـيخ الأكـبرى لم يفـاجأ، وكـأنه على علم ومطلع، رأيت مـلامحـه كمـا لم أواجهها من قبل.

بعـد تمام يقـينـى من غـيـابه طلبت منهم الـذهاب بى إلى الشـرفـة، حملونى أنا المقعد إلى السور. جُست بعينى عند أفق المحيط، من أى فج عميق تنبع هذه الأمواج؟ وإلى أى مسـتقر تمضى شمسنا تلك، لم يرجع منه أحد، وما زال القوم يتوقعون عودة الفتية المغرر بهم، رغم أن النساخ أدرجوا رحيلهم فى أوراق العجائب، هل لحق صاحبى بهم؟

هذا أفقى المبين، على هذه المواضع الصعب إدراكها نظر طويلا، أكاد أوقن أنه يرانى مـن مكان مـا، من نقطة يصـعب رصـدهـا أينمـا وليت وجـهى أدركـه، أثق من تمام وعـيـه، أن مـغـيب الشـمس عندى أمـامى وخلفى، فـوقى وتحـتى، لحـقت به فى ثبـاتى، ودنا هو منه بعـد ترحـال طويل.

حركـة المحيط الجبـارة نتاج أنفاسى، وتسـعى أمواجـه للتلاشى عند شواطئ ذاتى، كـان يمكنه تلبيـة الأمر هناك، لكنه رحل، ومـا الرحيل إلا عنده وعندى.

ما الشمـس إلا علامة، سفرها الـلانهائى مشروط، ومـا الشروق وما الغروب إلا داخله وداخلى. كل يمضى إلـى أجل مسمى، كل يستـجيب إلى الهاتف الذى لا يرد، كل يصل إلى شرفة كهذه، مرئية أو غير معاينة، عندها تحل السكينة، وتطول السرحات، وتفيض الطلات محبة وشفقة.

لم يكن رحيله إلا رحيلي، مدارجه مدارجي، أوقن أنه جاء إلى الدنيا لحظة وفادتي، أنه فطم وحبا وسعى معي، وعندما بزغ الهاتف لبيت في ثباتي، واستجاب عبر رحيله، لذلك غيابه غيابي.

بعينيه ألبى، أتطلع.

أرقب الشمس الدانية من حافة المحيط، حتى إذا اكتمل مغيبها، ورحت أتعلق بصفرتها المعلقة فوق الزرقة الممنوحة منها للمدى الواسع، يكتمل يقيني أنه أدرك ما أراه الآن. وأن اكتمال الموضع عندي وعنده، هذا غروبنا المُدْبِر. ومجهولنا المُسْفِر فأين قرارنا المكين؟

جمال الغيطاني

١٩٩٠ـ١٩٩١

صدر للكاتب

١ ـ أوراق شاب عاش منذ ألف عام		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٦٩	
الطبعة الخامسة	١٩٨٧	(صدر فى بغداد ـ بيروت ـ القدس المحتلة عن دار صلاح الدين)
الطبعة السادسة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢ ـ أرض.. أرض		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٢	القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب
٣ ـ الزويل		قصة طويلة
الطبعة الأولى	١٩٧٤	بغداد ـ وزارة الإعلام
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٨٧	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الرابعة	٢٠٠٦	القاهرة ـ دار الشروق
الطبعة الخامسة	٢٠٠٧	القاهرة ـ دار الشروق
الطبعة السادسة	٢٠٠٨	القاهرة ـ دار الشروق
٤ ـ الزينى بركات		رواية طويلة
الطبعة الأولى	١٩٧٤	دمشق ـ وزارة الثقافة
الطبعة الثانية	١٩٧٥	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثالثة	١٩٨٥	القاهرة ـ دار المستقبل العربى
الطبعة الرابعة	١٩٨٨	القاهرة ـ كتاب اليوم ـ مؤسسة أخبار اليوم
الطبعة الخامسة	١٩٨٩	القاهرة ـ دار الشروق
الطبعة السادسة	١٩٩١	تونس ـ دار الجنوب
الطبعة السابعة	١٩٩١	بغداد ـ دار الشئون الثقافية
الطبعة الثامنة	٢٠٠٥	القاهرة ـ دار الشروق

٥ ـ وقائع حارة الزعفرانى		رواية طويلة
الطبعة الأولى	١٩٧٦	القاهرة ـ دار الثقافية الجديدة
الطبعة الثانية	١٩٨٦	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثالثة	١٩٨٧	بغداد ـ دائرة الشئون الثقافية
الطبعة الرابعة	١٩٩١	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الخامسة	٢٠٠٦	دار الحوار اللاذقية
الطبعة السادسة	٢٠٠٨	القاهرة ـ دار الشروق
٦ ـ الحصار من ثلاث جهات		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٥	دمشق ـ اتحاد الكتاب العرب
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٧ ـ حكايات الغريب		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٦	القاهرة ـ كتاب مجلة الإذاعة
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٨ ـ ذكر ما جرى		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٨	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٩ ـ الرفـــــاعى		روايـــة
الطبعة الأولى	١٩٧٨	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
١٠ـ خطط الغيطانى		روايـــة
الطبعة الأولى	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثانية	١٩٩١	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثالثة	٢٠٠٨	القاهرة ـ دار الشروق

١١ـ كتاب التجليات (السفر الأول) رواية
١٩٨٣ القاهرة ـ دار المستقبل العربى
بيروت ـ دار الوحدة العربية

١٢ـ كتاب التجليات (السفر الثانى) رواية
١٩٨٥ القاهرة ـ دار المستقبل العربى

١٣ـ كتاب التجليات (السفر الثالث) رواية
١٩٨٧ القاهرة ـ دار المستقبل العربى

١٤ـ كتاب التجليات: الأسفار الثلاثة (مجلد)
الطبعة الأولى ١٩٩٠ القاهرة ـ دار الشروق
الطبعة الثانية ٢٠٠٦ القاهرة ـ دار الشروق
الطبعة الثالثة ٢٠٠٧ القاهرة ـ دار الشروق

١٥ـ إتحاف الزمان بحكاية جلبى السلطان مجموعة قصصية
الطبعة الأولى ١٩٨٥ القاهرة ـ دار المستقبل العربى
الطبعة الثانية ١٩٩٠ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب

١٦ـ رسالة فى الصبابة والوجد رواية
الطبعة الأولى ١٩٨٧ القاهرة ـ روايات الهلال
الطبعة الثانية ١٩٩٠ القاهرة ـ دار الشروق
الطبعة الثالثة ٢٠٠٧ القاهرة ـ دار الشروق

١٧ـ رسالة البصائر فى المصائر رواية
الطبعة الأولى ١٩٨٨ القاهرة ـ روايات الهلال
الطبعة الثانية ١٩٩٠ القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثالثة ٢٠٠٨ القاهرة ـ دار الشروق

١٨ـ شطح المدينة رواية
الطبعة الأولى ١٩٩٠ القاهرة ـ روايات الهلال
الطبعة الثانية ١٩٩١ القاهرة ـ دار الشروق
الطبعة الثالثة ٢٠٠٧ القاهرة ـ دار الشروق

١٩ـ هاتف المغيب		روايـــة	
الطبعة الأولى	١٩٩٢	القاهرة ـ روايات الهلال	
الطبعة الثانية	٢٠٠٨	القاهرة ـ دار الشروق	
٢٠ ـ ثمار الوقت		مجموعة قصصية	
الطبعة الأولى	١٩٨٩	القاهرة ـ كتاب اليوم	
الطبعة الثانية	١٩٩٠	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب	
٢١ ـ أسفار المشتاق		أدب رحلات	
	١٩٩٢	القاهرة ـ دار سعاد الصباح	
٢٢ ـ منتصف ليل الغربة		مختارات قصصية	
مختارات فصول	١٩٨٤	القاهرة ـ الهيئة المصرية للكتاب	
٢٣ ـ أحراش المدينة		مختارات قصصية	
كتاب اليوم	١٩٨٥	القاهرة ـ مؤسسة أخبار اليوم	
٢٤ ـ المصريون والحرب من صدمة يونيو إلى يقظة أكتوبر		دراسات ومشاهدات	
كتاب روز اليوسف	١٩٧٤	القاهرة ـ مؤسسة روز اليوسف	
٢٥ ـ حراس البوابة الشرقية (الجيش العراقى فى حرب أكتوبر)		دراسات ومشاهدات	
الطبعة الأولى	١٩٧٥	القاهرة ـ مكتبة مدبولى	
الطبعة الثانية	١٩٧٥	بيروت ـ دار الطليعة	
٢٦ ـ نجيب محفوظ يتذكر			
الطبعة الأولى	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة	
الطبعة الثانية	١٩٨٧	القاهرة ـ مؤسسة أخبار اليوم	
٢٧ ـ مصطفى أمين يتذكر			
	١٩٨٠	القاهرة ـ مكتبة مدبولى	
٢٨ ـ ملامح القاهرة فى ألف عام			
الطبعة الأولى	١٩٨٣	القاهرة ـ كتاب الهلال	
الطبعة الثانية	١٩٨٤	القاهرة ـ مكتبة مدبولى	

٢٩ ـ أسبلة القاهرة

٣٠ ـ مقامات بديع الزمان الهمذاني (تحقيق الإمام الشيخ محمد عبده) | دراسة ومراجعة | ١٩٨٨ القاهرة ـ مؤسسة أخبار اليوم

٣١ ـ شطف النار | مجموعة قصصية | ١٩٩٦ القاهرة ـ هيئة قصور الثقافة

٣٢ ـ مختارات أبي حيان التوحيدي | ١٩٩٣ القاهرة ـ المجلس الأعلى للثقافة

٣٣ ـ توفيق الحكيم يتذكر | ١٩٩٤ القاهرة ـ المجلس الأعلى للثقافة

٣٤ ـ مطربة الغروب | مجموعة قصصية | ١٩٩٦ القاهرة ـ دار الحضارة العربية

٣٥ ـ سفر البُنيان | رواية
- الطبعة الأولى | ١٩٩٧ القاهرة ـ روايات الهلال
- الطبعة الثانية | ٢٠٠٨ القاهرة ـ دار الشروق

٣٦ ـ حكايات المؤسسة | رواية | ١٩٩٧ القاهرة ـ دار الشروق

٣٧ ـ الخطوط الفاصلة | ترجمة ذاتية | ١٩٩٧ القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية

٣٨ ـ خلسات الكرى (دفتر التدوين الأول)
- الطبعة الأولى | ١٩٩٨ القاهرة ـ دار شرقيات
- الطبعة الثانية | ٢٠٠٠ القاهرة ـ دار الشروق

٣٩ ـ دنا فتدلى (دفتر التدوين الثاني)
- الطبعة الأولى | ١٩٩٩ القاهرة ـ دار الحضارة العربية
- الطبعة الثانية | ٢٠٠٣ القاهرة ـ دار الشروق

٤٠ ـ متون الأهرام | ٢٠٠٢ القاهرة ـ دار الشروق

٤١ ـ حكاية الخبيئة | ٢٠٠٢ القاهرة ـ دار الشروق

٤٢ ـ رشحات الحمراء (دفتر التدوين الثالث) | ٢٠٠٣ القاهرة ـ دار الشروق

٤٣ ـ نوافذ النوافذ (دفتر التدوين الرابع) ٢٠٠٤ القاهرة ـ دار الهلال
٤٤ ـ نثار المحو (دفتر التدوين الخامس) ٢٠٠٥ القاهرة ـ دار الشروق
٤٥ ـ يومياتى المعلنة ٢٠٠٦ القاهرة ـ دار نهضة مصر
٤٦ ـ المجالس المحفوظية ٢٠٠٦ القاهرة ـ دار الشروق
الطبعة الثانية ٢٠٠٧ القاهرة ـ دار الشروق
٤٧ ـ يوميات الحصر القاهرة ـ أخبار اليوم
٤٨ ـ رن (دفتر التدوين السادس) ٢٠٠٨ القاهرة ـ دار الشروق

أعمال ترجمت إلى لغات أجنبية

١ ـ الزينى بركات

الطبعة الفرنسية	Edition Du Seuil
الطبعة السويدية	Norestad & Soners
الطبعة الإنجليزية	Penguin
الطبعة الهولندية	Unieboek
الطبعة النرويجية	Ascheoug
الطبعة الألمانية	Lenos
الطبعة الروسية	رادوجا
الطبعة البولندية	الدولة

٢ ـ وقائع حارة الزعفرانى

ـ صدرت ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية، فى سلسلة الأدب المعاصر عن الهيئة العامة للكتاب فى القاهرة.

ـ صدرت باللغة الألمانية عن دار فولك ـ إندلخت.

ـ ترجمت الروايات التالية إلى عدد من اللغات:

١ ـ شطح المدينة ٢ ـ هاتف المغيب ٣ ـ متون الأهرام
٤ ـ رسالة البصائر فى المصائر ٥ ـ كتاب التجليات ٦ ـ مقاربة الأبد

ـ وترجمت عدد من قصصه القصيرة إلى الفرنسية، الإنجليزية، الإيطالية، الإسبانية، العبرية، الألمانية.

جــوائز

- جائزة الدولة التشجيعية للرواية عام ١٩٨٠
- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ١٩٨٠
- وسام الاستحقاق الفرنسى من طبقة فارس ١٩٨٧
- جائزة سلطان العويس ١٩٩٧
- جائزة لورباتايون الفرنسية ٢٠٠٥
- جائزة جرزياتا كافور ٢٠٠٦
- جائزة الدولة التقديرية ٢٠٠٧

دراســات

أعدت دراسات عن أعماله فى جامعات:

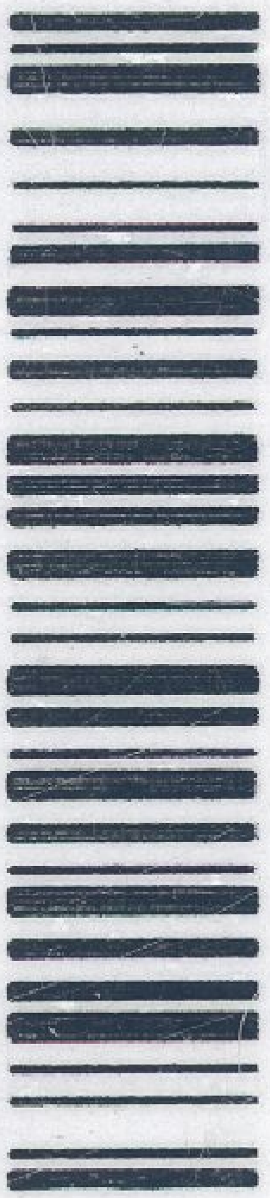
القاهرة، السوربون (باريس) - بيركلى (أمريكا) محمد الخامس (الرباط) - جامعة لندن - جامعة مارتن لوثر هاله (ألمانيا الديمقراطية) - جامعة ليبزج - جامعة أرلنجن (ألمانيا الغربية). جامعة المنيا، أكاديمية الفنون، جامعة كولومبيا.

هاتف المغيب

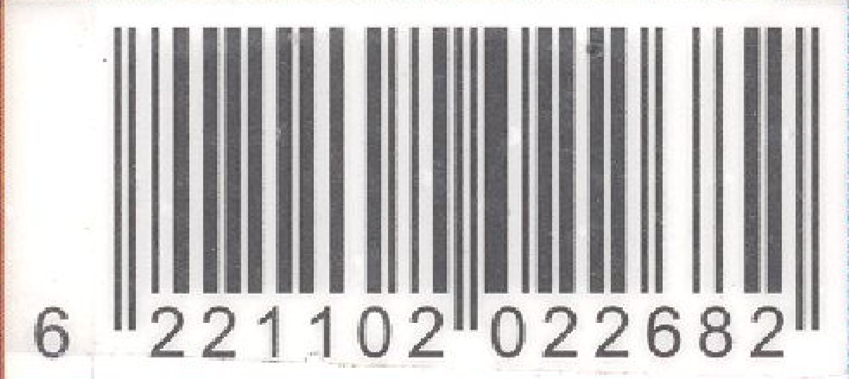
يقدم الغيطانى فى «هاتف المغيب» تجربة خصبة، تدرب لها خياله طويلاً بمعايشة مستمرة لألف ليلة وليلة وكتب غرائب المخلوقات، مما يجعله يتجلى كوريث حقيقى لثروة كبرى من الفانتازيا البشرية عامة، والمصرية بصفة خاصة.

إن الملمح البارز فى هذه الفانتازيا، يتمثل فى أريج مصر الفرعونية الذى يفوح منها. فلا نحسب أن هناك شعبا من شعوب الأرض، قد أمضى - ولا يزال - آلاف الأعوام فى ممارسة عمليات تحويل البشر إلى آلهة مثلما فعل الشعب المصرى. مما يضعنا عند منطقة جديدة من الفانتازيا السياسية التى تتجلى فى «هاتف المغيب»، وتمثل موروثا مصريا حميما ينحدر إلى جمال الغيطانى من أغواره اللاشعورية العم

ل







دار الشروق
www.shorouk.com